

مكتبة بغداد

@BAGHDAD_LIBRARY

ج.ع.ح

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

المهادي

تأليف: ألان روب - غرييه
ترجمة: الدكتورة زبيدة القاضي

أوليات هفارة ٣

تصميم الغلاف
خالد يزبك

المماحي

رواية

تأليف : ألان روب - غرييه
ترجمة: الدكتورة زبيدة القاضي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

دمشق - ٢٠١١

مكتبة بغداد

@BAGHDAD_LIBRARY

ج.ع.ج.ح

Alain Robbe - Grillet

Les Gommages

المماحي : رواية / تأليف ألان روب - غرييه ؛ ترجمة زبيدة القاضي . -
دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٠ . - ٢٩٦ ص؛ ٢٤ سم.
(روايات مختارة؛ ٣)

١- ٨٤٣ ف روب م ٢- العنوان ٣- روب-غرييه
٤- القاضي ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

روايات مختارة

المقدمة

«يعمل آلان روب-غريه على إدخال خليط جديد من الفضاء والزمان في القصة، ما يمكن أن ندعوه بالبعد الأينشتايني للشيء». وهذا مهم إلى درجة تجعلنا نعيشها تماماً في رؤية نيوتن للعالم: فكأمو أو بروتون وصفا المشهد كشاتوبريان ولا مارتين»

(رولان بارت، لوسرفاتور، ١٩٥٣)

«بفضل النقد السلبي حققت النجاح؛ إذ لم تؤدِ مجاملات بارت أو بلانشو إلى بيع كتيبي»، هذا ما أعلنه آلان روب غريه في جريدة «ليبيراسيون» عام ٢٠٠٧.

وروب-غريه كاتب منارة للرواية الجديدة التي كان هدفها تجديد الرواية، والتخلي عن الهم الواقعي، بوضع الشخصيات في البعد الثاني لصالح الأشياء والأماكن. وتعد «المحامي» الرواية الأولى من هذا النوع.

توفي آلان روب غريه في ١٨ شباط/فبراير ٢٠٠٨: كان ذلك خبراً سيئاً بالنسبة إلى بعضهم، وخبراً لا أهمية له بالنسبة إلى الآخرين. العديد من التحليلات المهمة عن الرواية، والكثير من الحماقات قيلت وكتبت حوله؛ إذ كان هدفاً للجدل، وذريعة لنقاشات لا تنتهي، ولم تكن «الرواية الجديدة» استثناءً عن القاعدة، بل على العكس، كانت دائماً في قلب الجدل. واليوم، لم يعد

هناك جدوى من الإضافة على هذا الدفع من الريق أو الحبر ، الذي لا يعكس في أغلب الأحيان سوى أحكامنا المسبقة . ولهذا فضّلت هنا أن أتحدث عن أمور تتعلق بالذوق . . .

أعترف أن فضولي دفعني ، مثل الآخرين ، وبحكم الاختصاص ، في الثمانينات ، للاطلاع على الرواية الجديدة ، وعلى لذة القراءة التي كان من المفترض أن تحملها لنا ، فهل يقرأ المرء أبداً إلا بحثاً عن لذة القراءة؟ وبعد ذلك ، للإفادة من «هذا الشيء الصغير المضاف» الذي سنكون بالتأكيد عاجزين عن تعريفه ، الذي قد لا تكون له علاقة بـ «الثقافة» ، بينما علاقته وثيقة بفن الحياة .

من بين كبار الكتاب الفرنسيين في النصف الثاني من القرن العشرين ، يعد الآن روب-غريه الكاتب الأكثر شهرة في الخارج ، والأكثر إثارة للجدل في فرنسا . لقد وصل إلى الأدب «بالمصادفة» تقريباً ، إذ كان هذا الروائي السينمائي الذي تلقى تأهيلاً في الهندسة الزراعية ميالاً للأصالة الأدبية ، وذلك للاعتراض عما وجد قبله ، أكثر منه خياراً حراً . لقد توصل إلى ذلك من خلال رفضه لجزء مؤثر من النقد الأدبي الذي وجه لروايته الأولى والثانية: «المحامي» و «الملتصص» في عامي ١٩٥٣ و ١٩٥٥ . بعد هذه المواجهة ، خرج كتابه «من أجل رواية جديدة» عام ١٩٦٣ ، يعرض فيها قواعده الخاصة المتعلقة بنظرية الجمال الأدبية ، قواعد ستصبح دارجة في عصره .

إن الملفت في المقام الأول في كتب روب-غريه هو الوجود الملح للأشياء والديكورات ، التي يصفها الكاتب بدقة متناهية ، و «بشغف كبير في الوصف» («من أجل رواية جديدة») . ومع ذلك ، فإن هذا الوصف بعيد عن الشحنة الانفعالية التي تسم إدراك الوعي لها ، فتبدو حيادية على العكس ، ومجردة من كل دلالة أخلاقية أو شعورية ، وهذا ما يعطي معنى جديداً لكلمة واقعية في

الأدب . ومع ذلك فالكاتب يعترف أن الأشياء لا يمكنها أن تُنزع نهائياً من نظر الإنسان ، لأنها توجد بالضرورة عبر ذاتية هذا النظر . لكن ما يتمناه روب-غرييه هو أن تبدو هذه الأشياء للقارئ ، تماماً كما أطلقها الكاتب بوصفها مادة خام ، لا لكونها مفسرة مسبقاً من قبله .

ثمة مدينة بشارع عريض دائري . وسلسلة متتابعة غامضة من جرائم القتل . جريمة قتل جديدة اختفت فيها جثة الضحية . منظمة سرية غامضة . قاتل ينتابه الشك ، ويتسكع بحثاً عن مماحي . . .

يبدو أن المواد الأولية اللازمة كلها لصنع رواية بوليسية تقليدية موجودة هنا ، ومع ذلك فإن «المماحي» شيء آخر ، ولا بد من قراءتها إذا أردت ، عزيزي القارئ ، اكتشاف هذا الوجه للرواية الجديدة .

يتحول العالم الروائي في «المماحي» كله إلى مجاز بواسطة شيء واحد ، قدم بوصفه وثيقة إثبات للجريمة - الممحاة ، من العنوان «المماحي» - الذي يبحث عنه فالاس من مخزن إلى مخزن . لأن المقصود هنا أن تمحى تدريجياً من مسار النص: العقدة ، والشخصية (التي قلصت إلى تصرفاتها فقط) لصالح وصف دقيق ، ومهووس للأشياء .

فمنذ هذه الرواية الأولى (وهي الثانية ، إذ كتب ألان روب-غرييه قبلها رواية «قاتل ملك» نشرت لاحقاً عام ١٩٧٨) ، وضع الكاتب أساساً لتقنيات كتابة «رواية جديدة» سيضع نظريتها بعد عشر سنوات في دراسته «من أجل رواية جديدة»: اختفاء الشخصية التقليدية وريثة الرواية في القرن التاسع عشر ، وإلغاء الدراسة النفسية ، ووضع نظرية جمالية مضللة من خلال الوصف المنهجي للأشياء والمحدد لها ، تزعزع ثبات التسلسل السردى المعروف للرواية ، وتخيّب انتظار القارئ .

الرواية مبنية بحسب مخطط الرواية البوليسية - من عقدة وتحري - لكنها تطرح أسئلة حول النوع الأدبي ومكوناته التقليدية ، لا سيما وضع الشخصية: ففالاس التحري ، في بحثه عن ماضيه ، ينتهي إلى ارتكاب الجريمة التي كان يقوم بالتحريات عنها ، جريمة ستوضح بعد ذلك أنها جريمة قتل للأب . يمكننا هكذا أن نرى في مصير البطل ، بفضل العديد من المؤشرات التي وضعها الكاتب في نصه ، إعادة كتابة لتراجيديا أوديب ، أو حتى تكريماً لرواية القصر لكافكا ، إنها مسارات خاطئة عديدة تقود القارئ إلى تقمص شخصية التحري .

يبحث فالاس عن ممحاة لا يتذكر جيداً نوعها (ماركتها) - الكلمة تتألف من ثلاثة مقاطع صوتية ، لم يُمحَ المقطع في وسطها «...دي...» - ولن يجد الكلمة - لأنها ممحاة - ولن يجد الممحاة أيضاً - فهي تمحى كذلك . من خلال الرموز ، وعبر سلسلة من الإشارات والدلالات ، يفهم القارئ أن الكلمة التي يبحث عنها فالاس هي «أوديب» .

وواقع الأمر أن كل شيء في الرواية يحيل إلى تراجيديا سوفوكليس: البنية الدرامية للقصة (تمهيد - خمسة فصول - ملحق) ، والجملية التي تنصدر الرواية: «الزمن ، الذي يسهر على كل شيء ، أعطى الحل رغماً عنك» ، وكذلك سلسلة رائعة من التلميحات المتفرقة التي تعود إلى الأسطورة ، تلميحات لولبية متداخلة - واضحة لمن يريد أن يراها: «كلمة تشبه طفل وُجد» ، «شارع كورينته» ، «أطلال طيبة» ، «ما هو الحيوان» . كل شيء يحيل إلى سوفوكليس ، وإلى فرويد بالتأكيد: ففالاس جاء من قبل إلى هذه المدينة عندما كان طفلاً ، مع والدته ، للقاء . . . قرية؟ رجل؟ أبيه؟ إن آثار هذا اللقاء محيت ، لكنها مكبوتة في أعماق اللاوعي ، إلى أن يعي فالاس فجأة ، مثل أوديب سوفوكليس ، أن القاتل الذي أقسم على اكتشافه ليس سوى نفسه ، وأن هذا الاكتشاف «يفقأ العين» بالنسبة إليه .

أما البنية الزمنية للقصة ، فكل شيء يحصل وكان ٢٤ ساعة «مُحَيَّت» .
كما يلح الكاتب في النص القصير الذي نجده في الصفحة الأخيرة للغلاف:
«المقصود حدث محدد ، ملموس ، أساسي: موت رجل . إنه حدث ذو طابع
بوليسي - أي أنه يوجد قاتل ، وتحرٍ ، وضحية . بمعنى آخر: الأدوار محفوظة
(يطلق القاتل الرصاص على الضحية ، يحل التحري المسألة ، تُقتل الضحية) .
لكن العلاقات التي تجمع بينهم ليست بهذه البساطة ، أو ليست بسيطة تنتهي
بنهاية الفصل الأخير . لأن الكتاب هو قصة ٢٤ ساعة انقضت بين طلقة المسدس
وهذا الموت ، الزمن الذي استغرقته الرصاصة لكي تقطع ثلاثة أمتار أو أربعة
- ٢٤ ساعة على الأكثر .

والباقي؟ إنها عقدة بوليسية «تقليدية» يضيع فيها التحري في الاتجاهات
الخاطئة ، فيدور في حلقة مفرغة في المدينة ، وفي الزمن ، فساعته متوقفة ، كما
يدور في حلقة مفرغة في حياته حيث لا شيء يسير كما يجب . فهو يسلك
شارع آربانتور ، يفتش منزل دوبون ، يطرح أسئلة على البوابين ، كأي تحرٍ آخر
في رواية بوليسية عادية . وهو يقوم بذلك من دون أن يسمع خلفه الآلهة وهي
تسخر منه ، في زاوية من جبل أولمبيا ، المختبئ خلف غيوم الشمال .

والباقي؟ رواية ذكية التحري فيها هو الممهد للقارئ ، القارئ الذكي الذي
يجلس من دون استئذان إلى يمين الآلهة . إنها رواية تمحو بلزك (أو ، بالتحديد ،
الكتاب من نموذج بلزك التائهين في خضم القرن العشرين) ، وتفتح أبعاداً جديدة
لهذا النوع الأدبي . إنه كتاب يحبس الأنفاس ، مليء بالدعابة ، كتبه كاتب
شاب مليء بالموهبة ستتحدث عنه خلال نصف قرن بعيد ، في هذا القرن الواحد
والعشرين ، حيث سيبدو «مثل كاتب كلاسيكي» ، مثل موسيقى سترافنسكي
أو لوحات ماتيس . تذكروا جيداً هذا الاسم: ألان روب-غريه .

لقد تساءل برنار دور في مجلة «الأزمة الحديثة» عام ١٩٥٣: هل رواية «المماحي» رواية بوليسية أم هي حكاية ميتافيزيقية؟

مما لا شك فيه أن العالم الموصوف هنا ليس عالم شاتوبريان أو لا مارتين . إذ ندخل في بعد آخر: فالشخصيات محاطة بهالة عائمة ، ويبدو وجودهم مضللاً ، والسبب في وجودهم في زمان ومكان معينين لا مبرر له تماماً . كما تحدث رولان بارت في مجلة «أوسرفاتور» عن «البعد الأينشتايني» و «رؤية نيوتن» للعالم . وهنا نجد اللمسة الفنية الخاصة لأن روب-غرييه ، إذ يقوم بتفجير وضوح (مقروئية) العالم بحسب محور خطي ، فيصبح التماسك دائرياً . ونخرج من العمل بانطباع الدوار ، والزوبعة . ثمة مهارة لغوية ، وبراعة تكمن في العقدة ، ضيق وبرودة في الجو ، وانزلاقات سردية مقصودة ، تجعل من قلم هذا المؤلف فناً تجريبياً .

ليس الجوهري في الأحداث بل إنما في الذاكرة . . . وبما أن هذه الرواية ليست رواية بوليسية تقليدية ، فإن العقدة البوليسية ليست الأهم ، إذ علينا أن نجد المهم في تسكع الشخصية ، وفي قدرتها على الضياع باستمرار في مدينة لا تعرفها ، أو تعتقد أنها لا تعرفها . المهم ، قد يكون في هذه الأشياء الغريبة المنتشرة كلها في الرواية ، والتي لا نجد لها شرحاً مباشرة: الهوس المتعلق بالمحاة التي يبحث عنها دون كلل أو ملل ، والاسترجاعات التي تمر بذاكرة الشخصيات التي تجعلنا نعتقد أن هناك حقيقة خلف المظاهر .

قد يكون المهم قدرة روب-غرييه على وصف ما يراه في تفاصيله الدقيقة . (يكفي أن نقرأ الوصف الهندسي لطبق ومحتواه لنعرف أن للكاتب موهبة خاصة) . باختصار ، نحن نرى في رواية «المماحي» مراناً كبيراً في الأسلوب ، لا نفهم روعة مساره إلا عندما نصل إلى النهاية وحل العقدة .

بالنظر إلى الماضي ، تظهر الرواية الأولى المنشورة لألان روب-غرييه «المحامي» تنبؤية لأعماله القادمة . فهي ليست عملاً تجريبياً فقط ، أو مراناً أسلوبياً ، في نوع مختلط - رواية بوليسية مع وصف «للأشياء» ، بل تُقدّم بوصفها نموذجاً لرواية روب-غرييه ، إذ يصف البطل مساراً دائرياً يعيده ظاهرياً إلى نقطة الانطلاق .

ومع ذلك ، على الرغم من تشابه الوضعيتين البداية والنهاية ، فإن المصير تغير تماماً . إذ تكون الأشياء في مشاهد «المحامي» سلسلة خفية من العناصر ، يستمر كل واحد منها بعناد ، على الرغم من التداخل العام ، المحسوب- في وجود مضلل لا مسوّغ له . ومع أن النقاد كالوا المديح للرواية عند ظهورها ، إذ أعلن جان بلانزا أنه «كتاب يتمتع بسلطة مفاجئة» ، ووصفها جان كيرول «بالرواية الشامخة» و «الكتاب العظيم» ، فإن الرواية لم تجد صدًى كبيراً لدى جمهور القراء الواسع .

كل شيء مبني في الرواية ليقوم بتفجير التماسك ، والثبات ، ووضوح العالم الذي تمثله الرواية البرجوازية من نموذج رواية بلزاك . وعلى العكس من الرغبة في الإيحاء بالحقيقي ، الرواية الجديدة التي تدعى أيضاً «بمدرسة النظر» تقترح نقل حضور لا دلالة . مما دفع آلان روب-غرييه إلى كتابة ما يلي : «العالم ليس ذا دلالة ، ولا عبثي . إنه كائن بكل بساطة . وهذا على أية حال المهم فيه» ومن ذلك شغفه بالوصف على نحو «موضوعي» لترجمة غرابة العالم الذي ينظر إليه الإنسان ، «ولا يبادلُه النظر»

ماذا نجد إذاً في هذه الرواية؟ قصة غير ممكنة ، غريبة ، نوع من البوليسي المفكك ، المشوش ، مع تحر مؤثر يدعو للشفقة ، وشهود مضحكين ، ومذنبين غريبين ، وضحايا لسنا متأكدين من أنهم كذلك . حتى الجثث ، الموتى ، لا

نعرف حقاً ما إذا كانوا كذلك . الشيء الوحيد الذي نحن متأكدون منه هو أن العالم المحيط ، أي الأشياء ، الكراسي ، الطاولات ، العمارات ، الستائر . المزدوجة والمماحي (بالتأكيد) موجودة ، أي الديكور . فالديكور المحيط ملموس ، لكن العقدة والشخصيات تفلت منا باستمرار . كل شيء يقع في الجو ، في الأجواء . . .

وروب-غريه هنا ، في الخلف ، الكاتب الراوي ، يعلم كل شيء ، ويرى كل شيء ، يحتال علينا ، ويدور بنا في متاهة ، وفي النهاية . . . (ولكن . . . انتظروا ، هل تعتقدون حقاً أنني سأروي لكم نهاية القصة؟!).

هل «المماحي» رواية «جديدة»؟ نحن نرى فيها «ضد -رواية» أو «لا رواية» ، فهي رواية ترفض أن تكون روائية ، بشخصيات تبدو حتى واعية لكونها ليست سوى شخصيات رواية (عفواً: لا رواية) . وهذا دون شك ما يجعل «المماحي» رواية لم تهرم كثيراً مثل أغلب الروايات المنافسة في العصر . فهل هي رواية جديدة؟ لا أدري . لكنها رواية مهمة ، لا شك في ذلك . قد تكون اليوم أهم مما كانت عليه عندما نشرت ! لأنها كانت عام ١٩٥٣ «رواية جديدة» مثل الكثير من الروايات في ذلك العصر ، واليوم عام ٢٠٠٩ ، إنها رواية «جديدة» نجدها في المكتبة من بين العديد من «الروايات القديمة» المكتوبة في يومنا هذا . وذلك أخيراً لأن الحداثة الجريئة (المتغترسة) لقلم روب-غريه ، لم تطلها بعد التجاعيد ، فجعلت ثلاثة أرباع منشورات ما بعد ١٩٥٣ لاغية .

ثمة نقطة مشتركة تجمع أتباع الرواية الجديدة بزعامة آلان روب-غريه: رفض الرواية التقليدية حيث يتجلى التسلسل الزمني والتخييل ، الشخصية وعلم النفس ، بناء عقدة بأسباب وآثار ، باختصار بناء واقع مستعار (أو شبه واقع) على أساس شكل إنساني . يقابل الروائيون الجدد العالم المبني للرواية الذي يفضل

كتابة مغامرة شخصية ما «بمغامرة الكتابة» (جان ريكاردو)، وهي بحث لا غاية منه، اكتشاف للاوعي، ينحل فيه الموضوع (أي الشخصيات، والعقدة، والوضعيات). تقود هذه الرؤية إلى الكتابة لنصوص تبين قيمة حضور الأشياء، والزمن، والفضاء، والهواجس، والذاكرة، وعلاقتها مع الكاتب. تصبح الرواية هكذا كتابة غرضها فعل الكتابة، وهو فعل هدفه اللغة في نهاية المطاف.

لقد أثار ألان روب-غرييه الإعجاب، والاحترام، والغيرة، إذ دافع عن معتقداته الجمالية بطريقة الهجوم. وقد وري الثرى في ١٨ شباط/فبراير عام ٢٠٠٨ في مدينة كاين، أمام صحراء من الشخصيات الأدبية: لم يكن هناك ناشر، ولا أكاديمي، ولا عضو في لجنة حكم جائزة ميديسيس الذي كان أحد مؤسسيها عام ١٩٥٨.

وبحسب إعلان قصر الإليزيه (الرئاسي): «فقدت الأكاديمية الفرنسية اليوم أحد أعضائها المشاهير، ومن دون شك أكثرهم مشاكسة». حتى روايته الأخيرة «رواية عاطفية» التي نشرت في خريف ٢٠٠٧، أثارت فضيحة. عندما انتخب في الأكاديمية الفرنسية ليخلف موريس رامس عام ٢٠٠٤، رفض أن يرتدي الثوب الأخضر، ويتقلد السيف، ولم يتل خطاب القبول، فلم يتم قبوله النهائي فيها أبداً.

ومع أن أغلب النقاد وصفوا أعمال روب-غرييه بأنها متفاوتة الأهمية والقيمة، وكاريكاتورية في نهاية حياته، إلا أننا سنذكر دائماً «المماحي» و«الملتصص».

لقد أتاحت لي فرصة لقائه عام ٢٠٠٠، خلال زيارته الأولى (والأخيرة) لسورية (مدينة حلب بالتحديد)، إذ قضيت معه ثلاثة أيام بين الجامعة، واتحاد الكتاب العرب، ولقاءات الإذاعة والتلفزيون، وقلعة حلب، وكنت أقوم

بالترجمة له . لقد أصر بداية على أن يسجل اللقاء التلفزيوني في فندق بارون ،
وكانما للسير على خطا أغاتا كريستي . وهنا اعترض كثيراً على بعض الأسئلة
التقليدية . وفي عشاء خاص صادف يوم عيد ميلادي هنائي بلطف ثم سألتني : بما
أنك مترجمة جيدة ، لم لا تترجمين رواياتي إلى العربية ، ولما ذكرت الإباحية التي
فيها ، وعدم تقبل القارئ العربي لها ، اقترح علي رواية «المماحي» ، ذات الطابع
البوليسي ، التي هي بين يدي القارئ اليوم . لقد حالت الظروف دون ترجمتها قبل
ذلك لأسباب شخصية ، وللأسف ، لن تر الترجمة العربية النور إلا بعد وفاته .

أثناء لقائه بالأدباء السوريين ، تحدث ألان روب-غريه ، بروح الدعابة
المعتادة لديه ، عن مسيرته الأدبية ، وعن رؤيته للأدب والسينما ، وأكد من ناحية
أخرى أن «الناس لو قرؤوا بانتباه «الغثيان» لجان بول سارتر ، و «الغريب» لألبير
كامو ، لما أصابهم الدهشة من كتيبي» . وللإجابة على سؤال يتعلق بالرسالة التي
يود تقديمها للقراء ، قال مع ابتسامة كبيرة : «ليس لدي رسالة ، فأننا لست مرسل
برقيات . . . أنا كاتب ، أكتب كتباً غامضة ، يأخذ منها كل واحد ما يهيمه .
فالكاتب لا شيء لديه يقوله ، وهو في بحث مستمر عما يريد أن يقول ، وأنا
أحاول أن أقوله بشكل جيد . الكتابة مغامرة كبيرة»

وعن تجديد الرواية ، عبر الرجل «بتواضع» :

«كنت أعظم كاتب على قيد الحياة . وكذلك مارغريت دوراس ، وكلود
سيمون ، والآخرين . كنا جميعاً أعظم الكتاب ، لأنه لا يمكن للمرء أن يكون
كاتباً إذا كان مقتنعاً بأنه الأفضل ، دائماً»

وعلى الرغم من هذا الخطاب ، فقد كانت تصريحات روب-غريه
الأخرى ، وتصرفاته تدل على أنه مقتنع في أعماقه بأنه أعظم كاتب رواية في
العالم ؛ وأنا أعتقد أنه كان من أهم الروائيين في القرن العشرين .

بعد انتهاء زيارته لحلب ، أدركت أن الآن روب-غرييه شخصية غريبة وإشكالية مثل أعماله ، مما يعيد التساؤل حول مصداقية مسألة «موت الكاتب» التي طرحها النقاد في النصف الثاني من القرن العشرين ، لاسيما فيما يتصل بكاتب مثله ، وهنا نترك للقارئ حرية القرار بهذا الشأن ، بعد قراءة الرواية .

المترجمة

تمهيد

- ١ -

في النور الخافت لصالة المقهى، يجهز صاحب المقهى الطاولات، والكراسي، وصحون السجائر، ورشافات المياه الغازية؛ إنها السادسة صباحاً. هو ليس بحاجة لأن يرى بوضوح، ولا يعرف حتى ما يفعل. ما يزال نائماً. قوانين قديمة جداً تنظم تفاصيل حركاته، وقد نجت لمرة واحدة من تردد النوايا الإنسانية؛ فكل ثانية تشير إلى حركة صرف: خطوة جانباً، الكرسي على بعد ثلاثين سنتيمتراً، ثلاث مسحات بالخرقة، نصف دورة يمينا، خطوتان إلى الأمام، تحدّد كل ثانية، متقنة، ومتوازنة، وبمهارة. إحدى وثلاثون. اثنتان وثلاثون. ثلاث وثلاثون. أربع وثلاثون. خمس وثلاثون. ست وثلاثون. سبع وثلاثون. كل ثانية في مكانها المحدد بدقة.

بعد قليل، للأسف، لن يبقى الوقت هو السيد. فأحداث هذا اليوم المغطاة بهالتها المكونة من الخطأ والشك، وإن كانت ضئيلة، ستبدأ شغلها بعد عدة لحظات، وتباشر تدريجياً تنظيمها المثالي، فتدخل هنا وهناك، بتكتم، قلباً، أو فرقاً، أو غموضاً، أو انحناءة، لتتم عملها شيئاً فشيئاً: إنه يوم في بداية الشتاء، من دون مخطط أو اتجاه، مبهم، وفظيع.

لكن الوقت مازال مبكراً جداً، وباب الشارع فتح مزلاجه للتو،

والشخصية الوحيدة الحاضرة في مكان الحدث لم تسترجع بعد وجودها الخاص .
إنه الوقت الذي تنزل فيه الكراسي الإثنا عشرة بهدوء عن الطاولات المصنوعة من
الرخام المزيف حيث أمضت الليل . لاشيء أكثر . ذراع ، آلية ، تعيد الديكور
إلى مكانه .

عندما يكون كل شيء جاهزاً ، يُضاء النور . . .

رجل ضخّم يقف هنا ، إنه صاحب المقهى ، وهو يسعى للتعرف إلى ذاته
وسط الطاولات والكراسي . فوق البار ، مرآة طويلة تظفو عليها صورة مريضة ،
إنها صورة صاحب المقهى ، مخضراً ، بلامح مشوشة ، مكبوداً (مصاباً بمرض
في الكبد) ، وسميناً في وعاء للمائيات .

من الجانب الآخر ، خلف الواجهة الزجاجية ، نجد صاحب المقهى أيضاً
وهو ينحل ببطء في طلوع شمس الشارع . إن هذه القامة هي من دون شك من
رتب الصالة للتو ، ولم يبقَ عليها سوى أن تختفي . في المرآة ، يرتعش انعكاس
هذا الشبح ، وقد تفكك كلياً على وجه التقريب . ووراءه ، مجموعة ، مترددة
أكثر فأكثر ، غير معروفة من الخيالات : صاحب المقهى ، وصاحب المقهى ،
وصاحب المقهى . . . صاحب المقهى بهيئة سديمية حزينة ، غارقة في حالتها .

ينبثق صاحب المقهى بمشقة ، فيلتقط من دون تبصر بعض بقايا تطوف حوله .
لا حاجة للاستعجال ، إذ لا يوجد تيار قوي من الزبائن في هذه الساعة .

يستند بكتا يديه على الطاولة ، والجسد منحني إلى الأمام ، ليس مستيقظاً
تماماً ، وبصره موجه إلى شيء لا ندري ما هو : هذا الأحق أنطوان بحركاته
السويدية كل صباح ، وربطة عنقه الزهرية اللون في ذلك اليوم ، أي أمس .
واليوم هو الثلاثاء ؛ تأتي جانيت فيه في وقت متأخر قليلاً عن المعتاد .

كم هي غريبة هذه البقعة الصغيرة ، كم هو قذارة جميلة هذا الرخام ، فكل شيء يترك فيه أثراً . كأنه بقعة دم . دانييل دو يون مساء أمس ، على بعد خطوتين من هنا . قصة مريية على الأكثر: لا يمكن لسارق أن يذهب قاصداً إلى الغرفة المضاءة؛ كان هذا الشخص يريد قتله ، هذا مؤكد . كان ذلك أمس . سنى ذلك في هذه الصحيفة بعد قليل . آه نعم ، ستأتي جانيت في وقت لاحق . سنطلب منها أن تشتري أيضاً . . . لا ، غداً .

مسحة شاردة ، كإثبات غياب ، على البقعة الغريبة . بين مائتين - تمر كتل غامضة ، لا يمكن بلوغها؛ أو ربما هي ثقب فحسب .

سيكون على جانيت أن تشعل المدفأة فوراً ، فقد بدأ البرد مبكراً هذا العام . يقول الجنائي إن الأمر يكون دائماً هكذا عندما تمطر السماء في الرابع عشر من تموز؛ ربما يكون ذلك صحيحاً . بالطبع ، الأحق الآخر أنطوان ، المحق دائماً ، كان يريد بكل قوته أن يثبت العكس . والجنائي الذي بدأ يغضب ، أربع كؤوس أو خمس من النبيذ الأبيض تكفيه؛ لكنه لا يرى شيئاً ، أنطوان . لحسن الحظ أن صاحب المقهى كان هنا . كان ذلك أمس ، أم الأحد؟ إنه يوم الأحد: كان أنطوان يرتدي قبعته؛ إنها تعطيه شكلاً خبيثاً ، قبعته ! وربطة عنقه الزهرية! عجباً! كان يرتدي أمس أيضاً ربطة العنق . لا . ثم ، ما أهمية ذلك؟

مسحة فظة تزيل مرة ثانية غبار الأمس عن الطاولة . ينتصب صاحب المقهى من جديد .

يلحظ على الواجهة الزجاجية انعكاس العبارة المكتوبة: «غرف مفروشة» ، حيث ينقص حرفان منذ سبعة عشر عاماً ، سبعة عشر عاماً ، وهو يفكر أن يعيدهما ثانية . هكذا كان الوضع سابقاً في زمن بولين ، قال ذلك عندما وصلا . . .

من جهة أخرى ، لا توجد سوى غرفة واحدة للإيجار ، وإن كان هذا غباء على أية حال . نظرة إلى ساعة الحائط . السادسة والنصف . يجب إيقاظ الشخص .

«إلى العمل أيها الخمول!»

تخرج هذه المرة تقريباً بصوت مرتفع ، مع تكشيرة من التقرز على الشفتين . لا يتمتع صاحب المقهى بمزاج جيد ، لأنه لم ينم بالقدر الكافي .

والحق يقال إنه لا يكون غالباً بمزاج جيد .

في الطابق الأول ، آخر الممر ، يقرع صاحب المقهى الباب ، ينتظر بضع ثوان ، وبما أنه لا يصله أي جواب ، يقرع من جديد عدة قرعات ، أقوى بقليل . من الجانب الآخر من الباب ، تبدأ ساعة منبه بالرنين . يبقى صاحب المقهى منصتاً ، ويده اليمنى مسمرة في حركتها ، مترصداً بخبث ردود أفعال النائم .

ولكن لا أحد يوقف الجرس . وبعد حوالي دقيقة يتوقف من تلقاء نفسه على بعض رنات مجهضة .

يقرع صاحب المقهى مرة أخرى: لا شيء أيضاً . يوارب الباب ، ويمرر رأسه ، فنميز في الصباح البائس السرير مخرباً ، والغرفة في فوضى . يدخل تماماً ويتفحص المكان: لا شيء مريب ، السرير فارغ فقط؛ سرير لشخصين ، دون وسادة فردية ، بمكان واحد حُدد وسط الوسادة الطويلة؛ والأغطية مرمية نحو الرجلين . وعلى طاولة الزينة ، الحوض المعدني المطلي بالميناء ، مليء بماء قذر . حسناً ، الرجل غادر من قبل ، وهذا يخصه على أية حال . رحل دون أن يمر عبر الصالة ، كان يعلم أنه لن تكون هناك قهوة ساخنة بعد؛ والخلاصة ، ليس عليه أن يبلغ أحداً . يخرج صاحب المقهى وهو يهز كتفيه ، فهو لا يحب الناس الذين ينهضون قبل الموعد المحدد .

في الأسفل ، يجد شخصاً واقفاً ينتظر ، شخص ما ، جدير بالرافة على الأغلب ، ليس من مرتادي المقهى . يمر صاحب المقهى وراء باره (مشربه) ، يشعل مصباحاً إضافياً ، ويتفرس في الزبون بفضاظة ، هو مستعد لأن يصرخ في وجهه أن الوقت مبكر جداً بالنسبة إلى القهوة . لكن الآخر يسأل فقط :

- السيد فالاس ، من فضلك ؟

- خرج ، يردف صاحب المقهى ، منهياً بذلك جملته .

- متى حصل ذلك ؟ يقول الرجل مبدئياً بعض التعجب .

- هذا الصباح .

- في أي ساعة من هذا الصباح ؟

وبنظرة قلقة إلى ساعة يده ، ثم إلى ساعة الحائط ، يرد صاحب المقهى :

- لا أدري .

- ألم تره عندما خرج ؟

- لو كنت رأيته عندما خرج لعرفت في أي ساعة .

يقول ذلك بلكنة مشفقة ، تؤكد هذا النجاح السهل . يفكر الآخر بضع

لحظات ، ثم يقول من جديد :

- إذاً ، لا تعرف أيضاً متى سيعود ؟

لا يجيب صاحب المقهى البتة . ينبري مستنداً إلى قواعد جديدة :

- ماذا أقدم لك ؟

يجيب الرجل : قهوة سادة .

يقول صاحب المقهى: لا توجد قهوة في هذه الساعة.

ضحية جيدة تماماً، نموذج صغير لعنكبوت حزين يقوم باستمرار بإعادة تشكيل مزق ذكائه المدعوك. من جهة أخرى، كيف يمكنه أن يعلم أن فالاس هذا وصل مساء البارحة إلى هذا المقهى المعتم في شارع آربانتور؟ إن هذا موضع ريبة.

وبما أن صاحب المقهى جرب حالياً كل محاولاته، فهو لم يعد يهتم بزاثره. يمسح زجاجاته بذهن شارد. وبما أن الآخر لم يطلب شيئاً، يطفئ المصباحين الواحد تلو الآخر. لقد حل ضوء النهار تماماً الآن.

غادر الرجل وهو يتمتم بجملة غير مفهومة. يجد صاحب المقهى نفسه وسط حطامه، البقع على الرخام، وطلاء الكراسي وقد جعلته القذارة لرجاً في بعض الأماكن، والكتابة مشوهة على الواجهة الزجاجية. لكنه فريسة أشباح أكثر عناداً، إذ تعكر بصره بقع أكثر سواداً من بقع النيذ. يريد أن يطردها بحركة، لكن دون جدوى؛ فهو يتعثر في كل خطوة... حركة ذراع، موسيقا كلمات ضائعة، بولين، الناعمة بولين، ماتت على نحو غريب، منذ زمن بعيد جداً.

غريب؟ ينحني صاحب المقهى نحو المرأة. ماذا ترى من غرابة إذاً في ذلك؟ تشنج عدواني يشوه وجهه تدريجياً. أليس الموت غريباً دائماً؟ تتأكد التكشيرة، وتتجمد في قناع بشكل مزراب، يبقى لحظة يتأمل نفسه. بعد ذلك؛ تُغلق عين، ويلتوي الفم، يتشنج طرف من الوجه، فيظهر مسخ أكثر قبحاً أيضاً، ليمحى من تلقاء نفسه في الحال، تاركاً المكان لصورة هادئة وباسمة تقريباً. إنها عينا بولين.

غريب؟ أليس الأمر من أكثر الأشياء طبيعية؟ انظروا إلى دوبون هذا، من الغرابة أكثر ألا يكون ميتاً. بهدوء تماماً، أخذ صاحب المقهى يضحك، بنوع

صامت من الضحك ، من دون بهجة ، كضحك مسرّم . حوله أشباح مألوفة تقلده ، يتحرج كل واحد منها من تكشيرته . حتى إنها تبالغ قليلاً ، فتقهقه ، توسع بعضها بركلات مرفق ، وتتبادل كفوفاً كبيرة على الظهر . كيف السبيل إلى إسكاتها الآن؟ إنها كثيرة العدد ، وهي في منزلها .

ثابت أمام المرأة ، ينظر صاحب المقهى إلى نفسه وهو يضحك؛ يحاول بكل قواه ألا يرى الآخرين الذين يتجمعون في الصالة ، ضراة صاحبة ، الفيلق الهائج في انقباضات صغيرة في القلب ، سقط خمسين عاماً من وجود لم يحتمله جيداً . أصبح لغظهم لا يطاق ، كونشرتو رهيب من النهيق والعواء . وفجأة ، في الصمت الذي هبط بغتة ، ضحك صاحب لامرأة شابة .

— إلى الشيطان .

استدار صاحب المقهى ، وقد انتزعته صرخته من الكابوس . لا يوجد هنا بالتأكيد ، لا بولين ولا الآخرون .

يجول بنظرة متعبة على الصالة التي تنتظر بسلام من سيّاتون ، والكراسي حيث سيجلس القتلة وضحاياهم ، والطاولات حيث سيُقدّم لهم العشاء الأخير .

هاهو أنطوان؛إنها بداية جيدة .

— إذا علمت بالنبأ؟

ولا حتى إشارة من الرأس بمنزلة جواب . لا يبدو صاحب المقهى مريحاً هذا الصباح . هيا ، مع ذلك .

— إن رجلاً «يدعى ألبير دوبون قُتل مساء أمس ، هنا ، تماماً» في آخر الشارع!

- دانييل .
- ماذا ، دانييل؟
- دانييل دوبون .
- لا ، أقول لك أليير؛ تماماً هنا . . .
- أولاً ، لا أحد قتل .
- هذا بليغ ! وما أدراك أنت ، مادمت لم تخرج أبداً من مقهاك؟
- لقد اتصلت من هنا . الخادمة العجوز . كان خطهم معطلاً . جرح في الذراع .
- (غبي مسكين يعرف دائماً كل شيء) .
- نعم ، لكنه مات ! انظر إلى الصحيفة: أقول لك مات .
- هل معك صحيفة؟
- يبحث أنطوان في جيوب معطفه ، ثم يتذكر:
- لا ، تركتها لزوجتي .
- إذاً ، حسناً ، لا تلح : إنه يدعى دانييل ، ولم يمت قط .
- لا يبدو أنطوان راضياً . يبقى هنا متسائلاً عما يمكن أن يُقدم عليه من فعل أكثر إقناعاً من ضحك ساخر؛ لكن صاحب المقهى لا يترك له وقتاً لذلك .
- هل تريد أن تشرب شيئاً ، أم أنك ستنسحب؟

من المحتمل أن يتفاقم الصراع ، لكن الباب فُتح من جديد ، ففسح ممراً
لفرد مبتهج ، سمين ، يقوم بإيماءات ، ويرتدي ثياباً بهيئة أسمال .

- صباح الخير يا شباب . اسمعوا: عندي لكم أحجية .

يقول أنطوان: حسن ، نعرفها .

يرد السمع دون أن يتعكر: لا تعرفها ، لا أحد يعرفها . لا أحد ، أسمع؟
كأس نبيذ أبيض ، يا معلم!

لو حكمنا من خلال سحنة الرجل ، لكنت أحجيتة رائعة حقاً؛ ولكي لا
نفقد منها كلمة ، أخذ يفصلها وكأنه ينقل إملأء :

- من هو الحيوان الذي ، صباحاً . . .

ولكن لا أحد يصغي إليه . سبق أن شرب جرعة زائدة . إنه مضحك حتماً ،
لكن الاثنين الآخرين لا رغبة لهما بالمزاح؛ فالأمر بينهما يتعلق بحياة إنسان!

- ٢ -

شارع «آربانتور» شارع طويل مستقيم ، تحده من الطرفين بيوت قديمة
تماماً ، تقع جميعها في طابقين أو ثلاثة ، وتدلل واجهاتها التي تفتقد إلى الصيانة
على المستوى الاجتماعي للسكان الذين تأويهم: عمال ، صغار موظفين ، بحارة
صيادين متواضعين . ليست المحلات التجارية فيها براقه ، والمقاهي ذاتها قليلة
العدد؛ ليس لأن هؤلاء السكان معتدلون على وجه الخصوص ، بل على الأكثر
لأنهم يفضلون أن يذهبوا لاحتساء الشراب في مكان آخر .

يقع «مقهى الحلفاء» (ليزاليه) - (مشرب خمر وغرف مفروشة) - تماماً في
بداية الشارع ، في الرقم ١٠ ، على بعد عدة منازل فقط من الشارع الدائري ،

ومن المدينة ذاتها . لدرجة أننا نرى في نواحيها طابع المباني البروليتاري ، مختلطاً تقريباً بالطابع البرجوازي . في زاوية الشارع ، تنتصب عمارة من حجر ، بهيئة جميلة جداً ، وأمامها في الرقم ٢ من الشارع ، شيء شبيه بفندق صغير جداً بطابق واحد ، يحيط به شريط ضيق من حديقة . ليس الجناح على درجة كبيرة من الأناقة ، لكنه يعطي انطباعاً بالغنى ، وحتى بشيء من الرفاهية . ثمة حاجز مشبك مزدوج بسياج من شجر المضاض المشذب ، بارتفاع رجل ، ينهي انزاله .

نحو الشرق ، يمتد شارع «آربانتور» غير المنتهي ، والأقل فأقل ظرفاً ، حتى نصل إلى الأحياء المتطرفة تماماً ، الفقيرة بوضوح : مربعات من دروب موحلة بين البيوت الخشبية ، والمعدنية الصدئة ، ومن ألواح خشبية قديمة وورق مقطرن .

إلى الغرب ، فيما وراء الشارع الدائري وقناته ، تمتد المدينة ، والشوارع الضيقة قليلاً ، الواقعة بين البيوت الآجرية العالية ، والمباني العامة التي تخلو من تزيينات لا فائدة منها ، والكنائس المسمرة ، والواجهات الزجاجية من دون زخرفة . الكل صلب ، وفاخر أحياناً ، ولكنه متقشف ؛ فالمقاهي تغلق باكراً ، والنوافذ ضيقة ، والناس جديون .

ومع ذلك ، فهذه المدينة الحزينة ليست مملة : ثمة شبكة معقدة من القنوات والبرك تجلب إليها من البحر ، على بعد ستة كيلومترات تقريباً نحو الشمال ، رائحة الفوقس^(١) ، والنوارس ، وحتى بعض السفن ضعيفة الحمولة ، ومساحلات ، وقوارب مسطحة ، ومقطورات سفن صغيرة ؛ تُفتَح لأجلها سلسلة كاملة من الجسور والسدود . هذه المياه ، وهذه الحركة تفتح الأذهان . تصل صافرات الشاحنات من المرفأ ، فوق صفوف المستودعات وأرصعة التحميل والتفريغ ، فتحمل لها وقت المد المساحة ، والإغواء ، ومواساة الممكن .

(١) نبات أخضر خفيف يقذفه البحر - المترجمة .

وبما أن الرأس عنيد ، فالإغواء يكفي: يبقى الممكن ممكناً فقط ، فالصافرات تنادي منذ زمن بعيد دون أمل .

يتم توظيف العاملين في السفن من الخارج؛ إذ يفضل الرجال هنا الاهتمام بالتجارة ، وعلى اليابسة ، لا يتعد أكثرهم مغامرة قط أكثر من ثلاثين ميلاً عن السواحل ، لصيد الرنكة . ويكتفي الآخرون بالإصغاء إلى السفن وتقدير حمولتها بالأطنان . هم لا يذهبون حتى لرؤيتها ، فهي بعيدة جداً . وتتوقف نزهة الأحد عند الشارع الدائري ، حيث يصل المرء عبر شارع كريستيان-شارل ، ويتابعه على طول القناة حتى دكان الألبان الجديد ، أو حتى جسر جوتنبرغ؛ نادراً ما يهبط أكثر من ذلك .

تماماً إلى الجنوب ، لا نقابل ، إذا صح التعبير ، يوم الأحد ، سوى أهل الحي . وأثناء أيام الأسبوع ، لا يشوش الهدوء سوى جيش من الدراجات النارية وهي ذاهبة إلى العمل .

في الساعة السابعة صباحاً ، يكون العمال قد مروا من قبل ، فيصبح الشارع خاوياً تقريباً .

على ضفة القناة ، وقرب الجسر المتحرك الذي يقع في نهاية شارع «آربانتور» ، يوجد رجلان . يُفتح الجسر للتو لمرور قارب صيد ، يستعد بحار واقف قرب الرافعة لإغلاقه .

ينتظر الآخر دون شك نهاية العملية ، لكنه لا يبدو مستعجلاً ، لأن الجسر الضيق الذي يربط بين الطرفين ، على بعد مئة متر تقريباً ، كان يسمح له من قبل بمتابعة طريقه . هو رجل ذو قامة قصيرة ، يرتدي معطفاً طويلاً مائلاً إلى الخضرة ، قديماً إلى حد كبير ، وقبعة من لباد لا رونق فيها . إنه يدير ظهره

للبحار ، ولا ينظر إلى القارب ، وهو مستند على الدرايزين الحديدي الخفيف الذي يُستخدم كمحرّس ، في مدخل الجسر ، وبصره مركز باتجاه القدمين على المياه الزيتية للقناة .

يدعى هذا الرجل «جاريناتي» ، وهو من رأيناه داخلاً إلى مقهى «الحلفاء» يسأل عن فلاس الذي لم يعد موجوداً هناك . إنه هو كذلك قاتل أُمس الأرعن ، الذي لم يستطع سوى أن يجرح دانييل دوبون سطحياً . إن مسكن ضحيته هو هذا المنزل الصغير الذي يشكل سياجه زاوية الشارع ، تماماً خلف ظهره .

الحاجز الحديدي ، سياج المضاض ، ممر الحصى الذي يحيط بالمنزل . . . لا حاجة له لأن يستدير ليراها . إن النافذة الوسطى ، في الطابق الأول ، هي نافذة غرفة المكتب . هو يعرف كل ذلك عن ظهر قلب : لقد درسه كفاية الأسبوع الماضي . من أجل لا شيء ، على كل حال .

كان «بونا» حَسَنَ الاطلاع ، كالعادة؛وقد نفذ هو نفسه الأوامر بدقة . ولأن كل شيء فشل بسبب خطئه ، فسيكون على الأرجح بوسع دوبون ، الذي خدش قليلاً بوجه الاحتمال ، أن يعود خلف شجيراته ، وأن يغطس من جديد في ملفاته وبطاقاته وسط المجلدات الخضراء .

الزر الكهربائي قرب الباب ، زر من خزف بغطاء معدني . كان بونا قد تحدث عن إطفاء النور؛ لكنه لم يفعل ، ففشل كل شيء . أصغر خلل . . . هل هذا أكيد إلى هذا الحد؟ بقي الممر مضاءً ، هذا صحيح؛ ولكن لو كانت غرفة النوم مظلمة ، ربما ما كان على دوبون أن ينتظر أن يُفَتَح الباب على مصراعيه ليدير المبدل الكهربائي . ربما؟ سنرى ! أو ربما قام بذلك فعلاً؟ وكان أقل خلل كافيًا . ربما .

لم يكن جاريناتي قد دخل إلى المنزل أبداً من قبل ، لكن إرشادات بونا كانت دقيقة لدرجة كان بوسعه أن يتوجه فيها مغمض العينين . وصل بهدوء عبر شارع آربانتور في الساعة السابعة إلا خمس دقائق . لا أحد في المنطقة . دفع الباب المشبك للحديقة .

كان بونا قد قال: «لن يعمل جرس الإنذار» وهذا ما حصل حقاً . بقي الجرس صامتاً . ومع ذلك ، في صباح ذلك اليوم ذاته ، عندما مر أمام الجناح («لا جدوى من أن تتسكع طوال الوقت في هذه الجهة») ، كان قد فتح الباب خلصة ، للاطلاع ، فسمع الجرس بوضوح . لا شك أن أحدهم قطع الشريط خلال فترة بعض الظهر .

كان ذلك خطأ في الأصل أن يجرب الباب صباحاً؛فهو عندما دخل في المساء ، شعر بالخوف للحظة ، لكن الصمت هدأه . فهل كان يشك حقاً؟

دفع المشبك ثانية بحذر ، إلى آخر حد؛ولكن من دون أن يعيد إغلاق القفل ، ودار حول المنزل من جهة اليمين ، وهو يسير على العشب لكي يتجنب صرير الحصى . إذ نميز في الليل الممر الأكثر إضاءة ، الواقع بين المسكبتين ، والذروات المقلمة بدقة لشجر المضاض .

إن نافذة غرفة المكتب ، تلك التي تقع وسط الطابق الأول ، من جهة القناة ، مضاعة بشدة . مازال دوبون خلف طاولته . كل شيء كما توقعه بونا تماماً .

ينتظر جاريناتي وظهره مسند إلى جدار المرائب في آخر الحديقة ، وعيناه مثبتتان على النافذة .

وبعد عدة دقائق ، يحل مكان النور المشع ضوء أضعف : لقد أطفأ دوبون المصباح الضخم الموضوع على الطاولة ، تاركاً واحدة فقط من المصابيح السقفية . إنها السابعة ، ينزل ليتناول طعام العشاء .

بهو الطابق الأول، الدرج، الرواق.

توجد غرفة الطعام إلى اليسار، في الطابق الأرضي. نوافذها مغلقة. خلف المنزل، نوافذ المطبخ هي كذلك أيضاً، لكن فتحاتها تترك بعضاً من ضوء مبهم يتسرب منها.

يقترّب جاريناتي من الباب الزجاجي الصغير، وهو حذر ألا يعرض نفسه للنور القادم من الرواق. في اللحظة ذاتها، يغلق باب غرفة الطعام ثانية. هل وصل دويون؟ لقد نزل بسرعة. أو ربما كانت الخادمة العجوز؟ لا، فهذه تخرج الآن من المطبخ. إذاً كان هذا دويون.

تبتعد المرأة العجوز نحو نهاية الرواق، لكنها لا تحمل شيئاً في يديها؛ عليه أن ينتظر أيضاً. تعود في الحال، تاركة باب غرفة الطعام موارباً. تدخل إلى مطبخها، ثم تظهر من جديد بسرعة، حاملة بكلتا يديها صحيفة حساء ضخمة، تخترق من جديد غرفة الطعام، وتغلق الباب هذه المرة خلفها. إنها اللحظة المناسبة.

قال بونا: «لديك ما يقارب الخمس دقائق لكي تصعد. تنتظر العجوز أن ينهي حساء» لاشك أنها ستأخذ أوامره لليوم التالي؛ وبما أنها صماء قليلاً فهذا سيأخذ بعض الوقت.

دون ضجة، ينزلق جاريناتي إلى الداخل. «ستصر المفصلات إذا دفعت صافق الباب بعيداً جداً» ومع ذلك، ثمة رغبة عنيفة تدفعه فجأة إلى المحاولة في فتح الباب أكثر بقليل، بقليل تماماً، فقط ليعرف إلى أي حد يحق للمرء أن يذهب. بضع درجات؛ درجة فقط؛ درجة وحيدة، مكان صغير للخطأ... لكن الذراع تتوقف، إنها عقلانية. سيقوم بذلك عند خروجه، على الأرجح.

هم ليسوا حذرين في هذا المنزل: يمكن لأي كان أن يدخل.

أعاد جاريناتي إغلاق الباب بهدوء. يتقدم بخطى مدروسة على البلاط حيث يحدث نغلاه المطاطيان صوتاً غير مسموع. على الدرج، في الطابق الأول، يوجد سجاد سميك في كل مكان. سيكون ذلك أسهل. الرواق مضاء؛ والبهو أيضاً، من الأعلى. لم تعد هناك من صعوبة. ليصعد، وينتظر أن يعود دوبون، ويقتله.

على طاولة المطبخ توجد ثلاث شرائح رقيقة من لحم الخنزير المقدد، ممدودة في صحن أبيض. لا بأس في عشاء خفيف؛ بشرط ألا يفرغ صحفة الحساء كلها. يجب ألا يأكل كثيراً جداً حتى يتمكن من النوم من دون أحلام.

يتابع المسير المحدد، بخطوات محسوبة.

لا يمكن للآلية المنظمة باتقان أن تسبب أقل مفاجأة. ليس المقصود سوى أن يتبع النص، باستظهاره جملة بعد جملة، فكلام الله سيتحقق، وسيخرج القديس لازار من قبره، مغطى تماماً بالشرائط...

إن من يتقدم هكذا، في السر، لينفذ الأمر، لا يعرف خوفاً ولا ريباً. إذ يتوقف عن الإحساس بوزن جسمه. خطواته صامتة كخطوات كاهن، تنزل على السجاد وعلى البلاط منتظمة، وحيادية، ونهائية مثلها.

الخط المستقيم هو أقصر الطرق من نقطة إلى أخرى.

... خطا خفيفة جداً، لدرجة لا تترك فيها أي تجاعيد على سطح المحيطات. يحتوي درج هذا المنزل على إحدى وعشرين درجة، أقصر الطرق من نقطة إلى أخرى... سطح المحيطات...

بغته، يتعكر الماء الرقراق. في هذا الديكور الذي حدده القانون، من

دون إصبع من أرض إلى اليسار أو اليمين ، دون ثانية خفقان ، من دون هواده ، من دون نظرة إلى الخلف ، يتوقف الممثل فجأة ، وسط جملة . . . إنه يحفظه عن ظهر قلب ، هذا الدور الذي يقوم به كل مساء ؛ لكنه اليوم يرفض أن يتابع . حوله ، تتسم الشخصيات الأخرى ، بذراع مرفوعة ، أو ساق نصف منفرجة . إذ يستمر الإيقاع الذي بدأه الموسيقيون . . . عندها سيتوجب عليه فعل شيء ، أن يلفظ عبارات ما ، أو كلمات لا تنتمي إلى الكتيب . . . ولكن ، ككل مساء ، يكمل الجملة التي بدأها ، في الشكل المكتوب ، فتسقط الذراع ، وتنتهي الساق حركتها . في الأسفل ، مازالت الفرقة الموسيقية تعزف بالاندفاع ذاته .

يتألف الدرج من إحدى وعشرين درجة من الخشب ، أضف إلى ذلك ، في الأسفل ، درجة من حجر أبيض أكبر على نحو ظاهر من الأخريات ؛ ويحمل طرفها الحر المستدير عموداً من النحاس بزخرفات معقدة ، يقع في نهايته ، بمنزلة كرة ، رأس مهرج مكسو بقلنسوة بثلاثة أجراس . إلى الأعلى ، يحمل الدرازين المصمت والمطلبي قضباناً من خشب مصنع ، قليلة الاستدارة في القاعدة . يغطي الدرج شريط من الموكت الفضي ، بخطين قرمزيين على الطرفين ، ويمتد في الرواق إلى باب المدخل .

إن لون هذا السجاد حُذف من وصف بونا ، وكذلك تفصيل الكرة النحاسية .

ثمة أمر آخر ، هنا بالتحديد ، قد يأتي ، متمعناً في وزن كل من خطواته . . .

فوق الدرجة السادسة ، علقت لوحة صغيرة على الجدار ، في مستوى النظر . إنه منظر رومانتكي يمثل ليلة عاصفة: برق يضيء حطام برج ؛ فتميز في أسفله رجلين راكدين ، يغطان في النوم على الرغم من الضوضاء . أو ربما ضربتهم

الصاعقة؟ ربما وقفا من أعلى البرج . الإطار من خشب منحوت ومذهب ، يبدو كل شيء قديم الصنع إلى حد كبير . لم يذكر بونا هذه اللوحة .

قرص البهو . باب إلى اليمين . غرفة المكتب . هو كما وصفه بونا تماماً ، وربما هو أضيق أيضاً ، وأكثر ازدحاماً: كتب ، كتب في كل مكان ، التي تكسو الجدران منها مجلدة كلها تقريباً بجلد أخضر ، وأخرى منسقة ، ومطبقة بعناية على المدفأة ، على منضدة صغيرة ، وحتى على الأرض ، وأخرى أيضاً موضوعة دون ترتيب على طرف الطاولة ، وعلى مقعدين من جلد . تشغل الطاولة الطويلة والضخمة ، من السنديان الغامق ، ببساطة باقي الغرفة . وهي مغطاة كلياً بالملفات والأوراق ، أما المصباح الكبير ذو الكمة ، الموضوع في الوسط ، فهو مطفاً . ثمة مصباح كهربائي واحد يضيء في الكرة ، في السقف .

بدلاً من أن يجتاز جاريناتي مباشرة المساحة الصغيرة الحرة من الموكيت الأخضر ، بين الباب والطاولة (حيث تطفئ الأرض) ، يمر خلف المقعد ، ينسل بين الطاولة الصغيرة وأنضاد من الكتب ، فيصل إلى الطاولة من الطرف الآخر .

«واقفاً خلف الطاولة ، وماسكاً مسند الكرسي أمامك يدين ، ستسجل وضعية الأشياء كلها ، ووضعية الباب . لديك وقت: لن يصعد دوبون قبل الساعة السابعة والنصف . عندما تصبح متأكداً تماماً من كل شيء ، ستذهب لتطفئ المصباح السقفي . يقع الزر في المدخل ، على إطار الباب؛ يجب أن تضغط باتجاه الجدار ، بالاتجاه الآخر فتشعل مصباحين إضافيين . بعد ذلك ، ستعود ، عبر الطريق نفسها على الدوام ، فتقف خلف الكرسي ، في الوضعية السابقة ذاتها بالتحديد؛ ستنتظر ، المسدس ملقم في اليد اليمنى ، والعينان موجهتان نحو موضع الباب . وعندما سيفتح دوبون الباب ، سيظهر بوضوح في فتحة الباب ، فوق الممر المضاء ، ويكون لا مرئياً في الظلمة ، عندها ستصوب بسهولة ، سانداً»

يدك اليسرى على مسند الكرسي . ستطلق النار ثلاث مرات ، إلى القلب ، ثم تنصرف ، دون عجلة بالغة ، لن تكون العجوز قد سمعت شيئاً . فإذا قابلتها في الرواق ، لا تُرها وجهك ، نحّها من دون فظاظة . لن يكون هناك شخص آخر في المنزل»

الطريق الوحيد من نقطة إلى أخرى .

شكل مكعب ، لكنه مشوه نوعاً ما؛ كتلة لامعة من طفح رمادي ، بسطوح مهذبة ، وكأنها بسبب التلف ، بأضلاع محمية ، مضغوطة ، ذات مظهر صلب ، ثقيل كالذهب ، بضخامة قبضة اليد على نحو ملموس . أهي ثقالة ورق؟ إنها الآنية المزخرفة الوحيدة في الغرفة .

عناوين الكتب: «عمل وتنظيم» ، و «ظاهريات الأزمة» (١٩٢٩) ، و «مساهمة في دراسة الدورات الاقتصادية» ، والباقي مثل ذلك؛ ليس مسلياً .

زر كهربائي على إطار الباب ، خزفية ومعدن منكل ، ثلاث وضعيات .

كان منهمكاً في الكتابة ، أربع كلمات في أعلى الصفحة البيضاء: «لا يمكنهم أن يمنعوا» . . .

في هذه اللحظة ، نزل ليتعشى؛ يبدو أنه لم يجد الكلمة التي كان يجب أن تأتي بعد ذلك .

خطوات على قرص الدرج . النور ! فات الألوان الآن للذهاب إليه . الباب الذي يفتح ، والنظرة دوبون الغيبة . . .

أطلق جاريتاني النار ، طلقة واحدة ، كما خمن ، على قطعة من جسد هارب .

أصغر خلل . . . ربما . أنهى البحار للتو عملية الرافعة باليدين ، فأغلق الجسر المتحرك ثانية .

منحنيا «على الدرابزين ، لم يتحرك جاريناتي . ينظر تحت قدميه إلى المياه الزيتية وهي تهدر في زاوية الرصيف . هنا اجتمعت بعض الحطام : قطعة خشب ملوثة بالقطران ، سدادتا زجاجة قديمتان لزجاجة من نوع عادي ، جزء من قشرة برتقالة ، وفئات أكثر دقة ، نصف مفككة ، من الصعب التعرف على ماهيتها .

- ٣ -

لا يموت المرء بهذه السرعة من جرح صغير في الذراع . هيا إذا ! يرفع صاحب المقهى كتفيه الثقيلتين بحركة رفض ممزوجة بالامبالاة: بوسعهم أن يكتبوا يشاؤون ، لكنهم لن يجعلوه يصدق هذا ، بمعلوماتهم المختلقة قصداً لتضليل الناس .

«الثلاثاء ٢٧ أكتوبر- تشرين الأول . تسلل لص جريء أمس ، عند هبوط الليل ، إلى منزل السيد دانييل دوبون ، في الرقم ٢ من شارع أربانتور . فوجئ الجاني بصاحب المنزل وهو يقوم بعمله ، فأطلق عدة طلقات نارية على السيد دوبون ، قبل هربه . . . » .

وصلت العجوز لاهثة . حدث ذلك قبل الساعة الثامنة بقليل ، عندما كان المقهى فارغاً . لا ، كان السكير مازال هنا ، نصف نائم في زاويته ، لم يعد يزعج بأحجياته: كان الآخرون جميعاً قد ذهبوا للعشاء . سألت العجوز ما إذا كان بإمكانها أن تتصل بالهاتف . بالطبع يمكنها ذلك ، فصاحب المقهى يدلها على الجهاز المعلق على الجدار . رجعت إليه لتطلب رقمها وهي تمسك بيدها قطعة مربعة من الورق ، وتتابع الحديث: لم تعد هناك وسيلة للاتصال من منزلها ، فثمة

عطل في الهاتف منذ يوم السبت . كان «منزلها» المنزل الواقع في زاوية الشارع ، المحاط بالسياح . إلى من كانت تتوجه بالحديث بالضبط؟ من الصعب معرفة ذلك . ربما إليه . وبما أن السكرير لم يهتم علناً بالقضية ، فمن المحتمل أنها كانت تريد أن تصل ، فيما وراء ذلك ، إلى مستمعين أكثر عدداً ، كحشد في ساحة عامة ، أو أن تلمس فيه حاسة أعمق من السمع . منذ يوم السبت ، لم يأت أحد بعد لتصليح الهاتف .

- ألو ، الدكتور جيوار ، من فضلك؟

كانت تصرخ بصوت أعلى مما كانت لتفعل لسرد مصائبها .

- يجب أن يحضر الدكتور في الحال . ثمة جريح . في الحال ، أسمع؟
جريح! ألو! أسمع؟ . . .

على كل حال ، يبدو أنها هي لا تسمع جيداً .

وفي النهاية ، مدت السماع الإضافية ، وكان عليه أن ينقل إليها أجوبة العيادة . إنها صماء دون شك . كانت تتابع الكلمات على شفثيه عندما كان يتحدث .

- السيد دانييل دوبون ، شارع آربانتور في الرقم ٢ . الطبيب يعرف العنوان .

كانت تسأله بنظرة .

- لا بأس ، إنه قادم .

تابعت خطابها باستعجال ، وهي تدفع ثمن الاتصال . لم تكن فزعة ، بل مهتاجة قليلاً على الأرجح . عندما ترك السيد دوبون المائدة ، وجد لصاً في

مكتبه الذي غادره قبل ذلك بقليل - حقاً إن هناك أناس يملكون الجرأة! - كان النور قد بقي مضاءً؛ ماذا كان يريد ، هيه؟ أن يسرق كتباً؟ لم يكن لدى رب المنزل سوى بعض الوقت ليقفز إلى الغرفة المجاورة ، حيث كان مسدسه ، إذ مست الرصاصة ذراعه مساً خفيفاً فقط . لكنه عندما خرج ثانية إلى الممر ، كان الآخر قد هرب . أما هي فلم تر شيئاً ، ولم تسمع شيئاً؛ كان هذا الأعظم! من أين دخل؟

هناك أناس يملكون الجرأة . «تسلل لص جريء . . .» لا يعمل الهاتف منذ يوم السبت . وهي التي تجشمت عناء الجري إلى البريد صباحاً ، كي يأتوا لإصلاحه؛ لم يأت أحد بالطبع . حسناً ، كان الأحد يوم عطلة ، ومع ذلك ، كان يجب أن يكون هناك موظفون مناوبون لمثل هذه الحالات . كذلك ، لو كانت الخدمة متقنة ، لكانوا جاءوا مباشرة . كان السيد دوبون قد انتظر حقاً «اتصالاً» هاتفياً هاماً بعد ظهر يوم السبت كله ، ولم يكن يعلم إذا كان بإمكان أحدهم أن يتصل به من الخارج ، بما أنه لم يتلق أي اتصال منذ يوم الجمعة . . .

مشروع إصلاح عام لتنظيم مكاتب البريد ، والبرق ، والهاتف . المادة الأولى: دوام مضمون في الحالات المستعجلة . لا ، مادة وحيدة: سيبقى جهاز هاتف السيد دوبون باستمرار في حالة رائعة للاستخدام . أو ببساطة أكثر ، سيعمل كل شيء على نحو عادي دائماً . وسيبقى صباح يوم السبت هادئاً في مكانه ، مفصلاً عن يوم الاثنين التالي بستين ساعة ، من ستين دقيقة .

كادت السيدة العجوز أن تعود لشهر أيلول-سبتمبر على الأقل ، لو لم يتدخل السكرير ، بعد أن صحا من نومه بسبب صيحاتها . كان يتفحصها بتمعن منذ بعض الوقت ، فأفاد من إحدى تهليلاتها ليقول:

- هل تعلمين ، أيتها الجدة ، ما هو أسوأ شيء بالنسبة إلى موظف بريد؟

استدارت نحوه .

- إذاً ، يا بني ، ليس هناك ما يدعو للفخر .

- لا ، أيتها الجدة ، ليس أنا ، ليس أنا!

- أسألك إذا كنت تعلمين ما هو أسوأ شيء بالنسبة إلى موظف يريد .

كان يعبر بنبرة رسمية ، ولكن بقليل من الصعوبة .

- ماذا يقول؟

ربت صاحب المقهى على جبينه بمنزلة شرح .

- ها! حسناً . ياله من عصر عجيب ، مع ذلك . لم يعد يدهشني أن تسير أموركم على نحو سيء ، في البريد .

في هذه الأثناء ، أشعلت جانيت المدفأة ، فامتلأت الصالة بالدخان . يفتح صاحب المقهى الباب المطل على الشارع . الطقس بارد ، والسماء ملبدة بالغيوم . كأن الثلج سيهطل .

ينزل على الرصيف ، وينظر باتجاه الشارع الكبير . نلاحظ الحاجز الشبكي وسياج المنزل الواقع في الزاوية . على ضفة القناة ، يوجد رجل متكئ ، يدير ظهره ، عند مدخل الجسر .

ماذا ينتظر هناك؟ أن يمر حوت؟ لا نرى منه سوى معطف طويل بلون كالح ، كمعطف رجل هذا الصباح . ربما يكون هو من ينتظر أن يعود الآخر!

ماذا تعني قصة السرقة تلك؟ أكان هناك جرح أبلغ ، والعجوز لا تعلم بذلك؟ أم أنها لم تشأ أن تصرح به؟ لص! هذا لا يعقل . ثم بماذا يعنيه ذلك في نهاية المطاف؟

يأخذ صاحب المقهى صحيفته من جديد:

« . . . الضحية التي جُرحت جرحاً بليغاً » ، نُقلت في حالة إسعاف إلى عيادة في الحي ، فتوفيت دون أن تستعيد وعيها . تقوم الشرطة بالتحريات حول شخصية القاتل الذي لم يعثر له على أثر حتى الوقت الحاضر »

«دانييل دوبون ، وسام صليب الحرب ، وسام الاستحقاق برتبة فارس ، كان يبلغ من العمر اثنين وخمسين عاماً» . أستاذ سابق في مدرسة الحقوق العليا ، أضف إلى ذلك أنه كان كاتباً للعديد من كتب الاقتصاد السياسي ، الغنية بمشاريع أصيلة ، لاسيما حول مشكلة تنظيم الإنتاج »

توفي من دون أن يستعيد وعيه . هو لم يكن حتى فقد وعيه . هزة جديدة للكتف . جرح صغير في الذراع . هيا إذاً! لا يموت المرء بهذه السرعة .

- ٤ -

بعد صمت ، يستدير دوبون نحو الطبيب جيوار ويسأل:

- وأنت ، ما رأيك يا دكتور؟

لكن هذا يقوم بغمغمة غامضة؛ إذ يبدو أن لا رأي له في ذلك .

يستأنف دوبون:

- بوصفك طبيباً ، أنت لا ترى ضرراً من هذا السفر؟ هذا (ويشير إلى ذراعه الأيسر المغطى بضماد) ، هذا لا يضايقني في الحركة ، ثم إنني لست من سيقود السيارة . من ناحية أخرى ، لن تتعرض لأية مضايقة من الشرطة؛ سيتلقون هذا الصباح - أو حتى تلقوا من قبل - الأمر بأن يكفوا عن الاهتمام بي ، وأن

يسجلوا فحسب شهادة الوفاة التي أرسلتها لهم ، وأن يتركوا «جثتي» تُنقل إلى السلطات في العاصمة . ستسلمهم فقط الرصاصة التي استخرجت . يفترض أنها أصابتنني في الصدر؛ ستخترع بنفسك وضعية محددة تجعل الكل معقولاً تقريباً . هم لا يحتاجون إلى شيء آخر حالياً ، بما أنه لن تكون هناك تحريات حقيقية . هل لديك اعتراض؟

يرسم الطبيب القصير إشارة نفى مبهمة ، وهاهي الشخصية الثالثة التي تتحدث عوضاً عنه . كان الرجل جالساً قرب سرير الجريح على كرسي من حديد ، لم يكن يبدو مرتاحاً ، فقد احتفظ بمعطفه .

- أليس هذا . . . قليلاً . . . لا أدري كيف أقول؟ . . . روائياً؟ أليس من العقلاني أن نفعل . . . أن نقول . . . أقصد ، أن نقوم بغموض أقل؟

- على العكس ، هيا ، إننا مضطرون للتصرف هكذا بدافع الحذر .

- أمام الناس ، الجمهور ، أفهم ذلك . الملاحظة للصحافة ، والسر المحفوظ داخل هذه العيادة ، هذا جيد جداً . ومع ذلك ، فإنني أتساءل ما إذا كان السر . . . حقاً . . . فمهما كانت هذه الغرفة معزولة عن التأثيرات الصوتية . . .

يقاطع دوبون :

- بلى . أقول لك إنني لم أر أحداً ماعدا الدكتور وزوجته ، فلا أحد آخر يأتي أبداً إلى هذه الجهة .

يرسم الدكتور إشارة صغيرة بالموافقة .

- بالطبع . . . بالطبع (يتابع المعطف الأسود غير مقتنع جداً) . على كل

حال ، أمام الشرطة ، هل كان هناك ما يستدعي أن . . . أن نحافظ . . . أن نلاحظ ذات . . .

يرفع الجريح جسده قليلاً في سريره :

- نعم ، قلت لك ذلك قبلاً ! ألح روا-دوزيه علينا كي نقوم بذلك . خارج المجموعة لا يمكنه أن يعتمد على شيء حازم في هذه الآونة؛ لا على الشرطة ، ولا على الباقين . كما ليس المقصود سوى إجراء مؤقت: فالرؤساء ، أو بعضاً منهم على الأقل ، سيكونون على اطلاع ، هنا ، كما في كل مكان؛ ولكننا في الوقت الحالي لا نعرف بالضبط بمن نثق في هذه المدينة . من الأفضل أن أكون ميثاً بالنسبة إلى الجميع ، حتى إشعار آخر .

- نعم ، طبعاً . . . والعجوز آنا؟

- قيل لها هذا الصباح إنني توفيت خلال الليل ، والسبب هو أحد تلك الجروح الغريبة التي لا تبدو خطرة في البداية ، لكن المرء لا ينجو منها . ترددت قبل أن أكيل لها ضربة كهذه ، ولكن هذا أفضل . وإلا لكانت ارتبكت في أكاذيبها ، لو سألتها أحدهم .

- لكنك طلبت تبليغ الصحف ما يلي : «مات من دون أن يسترد وعيه»

هذه المرة يتدخل الدكتور :

- لا ، لست أنا من قال لهم ذلك . هي زخرفة ، لا بد أن موظفاً في الشرطة أضافها لهم . فبعض الأوراق لم تذكر ذلك .

- على كل حال ، إنه . . . نعم يبدو لي هذا سيئاً . يوجد شخص ، حتى اثنان ، شخصان يعلمان أنك لم تفقد وعيك: العجوز آنا ، والشخص الذي أطلق عليك النار .

- أنا لا تقرأ الصحف؛ وهي فضلاً عن ذلك ستغادر المدينة اليوم لتذهب عند انتهائها، وستكون في منأى عن الأسئلة المتطفلة. أما بالنسبة إلى قاتلي، فقد رأيته فقط ألجأ إلى غرفتي، ولا يمكنه أن يعلم أين أصابني بالتحديد. سيكون جيداً أن يعلم بموتي.

- طبعاً، طبعاً... لكنك تقول بنفسك أنهم منظمون بإتقان، وأن مكتب المعلومات لديهم...

- ما يُحسب لهم، بخاصة، هو أنهم يؤمنون بقوتهم ونجاحهم. سنساعدهم في ذلك هذه المرة. وبما أن الشرطة بقيت حتى الوقت الحاضر عاجزة تماماً، سنستغني عنها، مؤقتاً، على الأقل.

- طيب، طيب، إذا كنت تعتقد أن...

- اسمع، يا مارشا، أنا تحدثت هاتفياً إلى روا-دوزيه، الليلة الماضية، خلال ما يقارب الساعة. لقد درسنا قرارنا ونتائجها كلها. هذه أفضل فرصة لنا.

- نعم... ربما... وإذا كان أحدهم قد تجسس على مكالماتكم؟

- لقد أخذنا الاحتياطات اللازمة.

- نعم... الاحتياطات... طبعاً.

- لنعد إلى هذه الأوراق: أحتاج بالتأكيد لأن آخذها معي هذا المساء، ولا يمكنني حتماً أن أظهر هناك. طلبتُك لتؤدي لي هذه الخدمة.

- نعم، نعم... طبعاً... ولكن، أترى، هنا أيضاً، كان ذلك على الأرجح دور رجل شرطة...

- على الإطلاق ، هيا ! ثم إن هذا مستحيل الآن . ومن جهة أخرى ، لا أعرف ما تخشاه . سأعطيك المفاتيح ، وتذهب إلى هناك بهدوء بعد ظهر هذا اليوم ، بعد رحيل آنا . لن يتطلب الأمر ملء حقيبتين . ستجلب هذا إلى هنا في الحال . سأرحل مباشرة في حوالي الساعة السابعة ، بالسيارة التي سيرسلها لي روا-دوزيه ، وسأكون عنده قبل منتصف الليل .

ينهض الدكتور القصير ، ويصلح ثنيات ردائه الأبيض .

- لستم بحاجة إلي الآن ، أليس كذلك ؟

سأذهب لأرى إحدى النفاسى . سأمر ثانية في وقت لاحق .

ينهض المعطف الفزع أيضاً ليصافحه :

- إلى اللقاء ، دكتور .

- إلى اللقاء ، يا سيدي .

- هل تثق بهذا الرجل ؟

يلقي الجريح نظرة على ذراعه :

- يبدو أنه قام بذلك بإتقان .

- لا ، أنا أتكلم عن العملية .

يقوم دوبون بحركة كبيرة بيده السليمة :

- ماذا تريد أن أقول لك ؟ إنه صديق قديم ، ومن جهة أخرى ، إنه ،

وكما رأيت ليس ثثاراً! - لا ، هذا لا . . . ليس ثثاراً ، بالطبع .

- ماذا تعتقد؟ هل سيشتي بي؟ لماذا؟ من أجل المال؟ لا أظن أنه أحق لهذه الدرجة حتى يتدخل في هذه القضية أكثر مما هو مضطر سابقاً. هو لا يريد بالتأكيد سوى أن يراني أرحل في أقرب وقت ممكن.

- هل لديه عقل؟... لا يبدو كذلك... لا أدري كيف أقول... يبدو مزيفاً.

- ماذا ستخترع! لديه عقل طيب منهك، هذا كل شيء.

- يقال...

- أجل، يقال! هذا ما يقال عن الأطباء النسائيين كلهم تقريباً في هذا البلد. ثم ما علاقة ذلك؟

- نعم... طبعاً.

صمت.

- مارشا، قل لي، ألا ترغب مطلقاً في الذهاب لـ جلب تلك الأوراق؟

- بلى... بلى... بالطبع، أعتقد أن هذا لا يخلو تماماً من خطر.

- بالنسبة إليك، بلى! أنا أقصد ألا أطلب هذا من شخص آخر من المجموعة. هم لا يريدون لك الأذى، أنت! أنت تعلم أنهم لا يقتلون أياً كان عشوائياً، وفي أي وقت. فقد حصلت بانتظام جريمة يومياً، منذ تسعة أيام؛ وفي كل مرة بين الساعة السابعة والثامنة مساءً، وكأنهم اتخذوا لأنفسهم قاعدة تتمتع بهذه الدقة. أنا ضحية الأمس، وتبدو قضيتي وكأنها نفذت. وقد حددوا لليوم ضحيتهم الجديدة - ليست أنت بالتأكيد - من المحتمل حتماً ألا تكون

من هذه المدينة . في النهاية ، ستذهب إلى منزلي في وضح النهار ، في ساعة لا يخشى فيها أحد شيئاً .

- نعم ، نعم . . . طبعاً .

- هل ستذهب؟

- نعم ، سأذهب . . . لأقدم لك خدمة . . . بما أنك تعتقد أن ذلك ضروري . . . كذلك ، لا أود أن أبدو وكأنني أعمل لحساب مجموعتك . . . ليس الوقت مناسباً لكي أبدو على علاقة جيدة بكم . . . أليس كذلك؟ لا تنس أنني لم أكن أبداً متفقاً معكم من حيث المبدأ . . . لاحظ أنني لا أقول ذلك لكي أدافع عن . . . عن تلك . . . عن هذه . . .

ينصت الطبيب للنفس المنتظم . تنام المرأة الشابة . سيعود بعد ساعة . إنها تقارب الثامنة . لن يغادر دوبون العيادة قبل الساعة السابعة مساءً ، كما قال . لماذا استدعاه هو؟ أي طبيب . . . لسوء الحظ .

في السابعة من هذا المساء . يوم طويل . لماذا يطلبونه دائماً لأشياء من هذا النوع؟ أيرفض؟ لكن لا ، لقد سبق ووافق . سينفذ ما يُطلب منه ، مرة أخرى . ثم ماذا؟ لم يكن لديه خيار مع الآخر ! وكأنه كان حقاً بحاجة إلى هذه القصة الجديدة .

الآخر . لا يفلت المرء منه بهذه السهولة . الانتظار .

حتى الساعة السابعة من هذا المساء .

إن دوبون صالح في توريط أصدقائه في مغامرات ممثلة! يرى مارشاً أن هذا ضرب من التماذي ، بكل بساطة . كذلك ، كان لابد فوق كل هذا أن يبدو وكأنه مسحور ! وزوجته إذاً؟ ليس عليها سوى أن تذهب إلى هناك . لديه الوقت لكي يلقاها؛ هي أو أياً كان ، حتى الساعة السابعة من هذا المساء .

وهو على وشك مغادرة الغرفة الصغيرة البيضاء ، يستدير نحو الجريح :

- وزوجتك ، هل هي على علم بالأمر؟

- أخبرها الدكتور بالرسالة . كان ذلك أنسب . أتعلم أننا لم نلتق منذ وقت طويل جداً . لن تسعى حتى إلى رؤية "جثتي" . من هذه الجهة ، ستسير الأمور وحدها .

إيفلين . ماذا تفعل الآن؟ قد تأتي مع ذلك ، على أية حال؟ ليس الميث أبداً النموذج الذي تحب . من أيضاً يمكنه أن يحاول؟ ولكن لا أحد سيعلم في أية عيادة . لن يكون علينا سوى أن نجيب أنه ليس هنا . حتى الساعة السابعة من هذا المساء .

-5-

بما أنهم كلهم متفقون ، فهذا عظيم . يغلق المفوض لوران الملف ويضعه برضا على النضد الموجود يساراً . أوقف البحث حول القضية ، هو ، شخصياً ، ليست لديه أية رغبة في استلامها . فالتحريات التي سبق أن أمر بالقيام بها لم تؤد إلى أية نتيجة . لقد رُفعت بصمات كثيرة وواضحة ، وهي متروكة بالقدر الذي نشاء ، في كل مكان تقريباً . لاشك أنها تعود للقاتل ، لكنها لا توافق بشيء ما هو مدون في سجل الشرطة الضخم . أما العناصر الأخرى التي جُمعت فلم تعطِ أية إشارة إلى أثر يمكن اقتفاؤه . لم تصل إلينا أيضاً أية معلومة من قبل المرشدين . في هذه الظروف ، أين نبحت؟ من غير المحتمل أن يكون القاتل من تلك الأوساط المريبة في المدينة أو المرفأ: فالسجل متقن الصنع ، وعدد المرشدين أكبر من أن يتمكن شرير من الهرب تماماً من شبكاتهم . يعلم لوران ذلك بخبرته الطويلة . في هذه الساعة ، كان من المفروض أن يكون علم شيئاً مسبقاً .

إذا؟ أهو مبتدئ منفرد؟ أم هاو؟ أم مجنون؟ هذه حالات نادرة جداً؛ ثم إننا نكشف مباشرة أثر هؤلاء الهواة. ثمة تفسير ممكن حتماً، هو أن نكون بصدد التعامل مع فرد أتى من بعيد فقط لينفذ هذه الجريمة، ورحل بعد ذلك مباشرة. ومع ذلك فإن عمله يبدو وكأنه نُفذ بإتقان شديد، من المستبعد ألا يكون تطلب تحضيراً جيداً. . .

أخيراً، بما أن المكاتب المركزية ترغب باستلام القضية كلياً، لدرجة أنها أخذت منه جثة الضحية قبل فحصها، فهذا عظيم. يجب ألا نظن أنه سيتذمر من ذلك. بالنسبة إليه، كأن الجريمة لم تحدث. وحقيقة الأمر أن يكون دوبون قد انتحر فهذا لا يغير في الأمر شيئاً. فالبصمات هي لأي كان، وبما أن لا أحد حي رأى القاتل. . .

هناك أفضل: لم يحدث شيء على الإطلاق! إن أي انتحار يترك رغم كل شيء جثة؛ وهاهي الجثة تذهب من دون تنبيه، وقد طلبت منه السلطات العليا ألا يتدخل. عظيم!

لا أحد رأى شيئاً، أو سمع. لم تعد هناك ضحية. أما بالنسبة إلى القاتل، فقد هبط من السماء، وقد أصبح الآن بالتأكيد بعيداً، في طريقه للعودة.

-1-

الفتات المتفرقة، سدادتا القارورتين، قطعة الخشب الصغيرة المسودة: قد نظنها الآن شكلاً إنسانياً، إذ تشكل القشرة الصغيرة للبرتقالة الفم. وتكمل انعكاسات المازوت وجهاً مضحكاً لمهرج، دمية من لعبة المذبحة.

أو ربما كان ذلك حيواناً خيالياً: الرأس، الرقبة، الصدر، الأرجل الأمامية، جسد أسد بذيله الطويل، وجناحاً نسر. يتقدم الحيوان كأنه شرّة نحو

فريسة لا شكل لها، تمتد في مكان آخر. مازالت السدادتان وقطعة الخشب في المكان نفسه، لكن الوجه الذي كانت تشكله منذ قليل اختفى تماماً. والوحش الضاري أيضاً. لم يعد هناك، على سطح القناة، سوى خريطة مبهمّة لأمریکا، مع أنه، لابد من أن نرغب فعلاً بتخيل ذلك.

«ماذا لو أضاء النور ثانية، قبل أن يفتح الباب على مصراعيه؟». كالعادة، لم يُرد بونا أن يقبل الاعتراض. لا مجال للنقاش. ومع ذلك، كأن دوبون، في واقع الأمر، قد أضاء النور من جديد: ربما كان بوسع جاريناتي أن يطفئه متى أراد، إذا كان الآخر قد أضاءه ثانية عندما وصل، قبل أن يدفع مصراع الباب إلى الآخر، هذا سيان. لن يكون عندها قد أظهر الغرفة مضاءة تماماً سوى مرة واحدة.

ثم ماذا! أخطأ بونا على كل حال: بما أن الذي كان قد أوكل إليه المهمة، لم يطفئ النور.

هل نسي؟ أم أنه تقصّد ذلك؟ لا هذه ولا تلك. كان سيطفئ النور، كان سيقوم بذلك على الفور. صعد دوبون باكراً جداً. كم كانت الساعة تماماً؟ لم يتصرف بسرعة، هذا كل شيء؛ وفي النهاية، إذا لم يكن لديه ما يكفي من الوقت، فهذا أيضاً خطأ في الحساب، خطأ بونا. كيف سيتلافى ذلك الآن؟

تأثر دوبون، كما يبدو. ومع ذلك، لم يجد حرجاً في جريه للاختباء، سمعه جاريناتي بوضوح يدير المفتاح في القفل خلفه. لم يكن بقي عليه سوى أن يذهب. الموكيت الرمادي، الإحدى والعشرون درجة للدرج، الدرايزين اللامع بكرته النحاسية في آخره. مازالت الأشياء تفقد قليلاً من قوامها. أحدثت طلقة المسدس صوتاً غريباً جداً، وخيالياً، ومزيفاً. إنها المرة الأولى التي يستخدم فيها مسدساً «كائماً للصوت»: بم! وكأنه مسدس هواء مضغوط، ليس فيه ما يخيف ذبابة. ثم امتلأ كل شيء بالقطن في الحال.

ربما كان بونا يعرف ذلك مسبقاً. عن طريق الصحف؟ كان الأوان فات بالنسبة إلى صحف الصباح؛ ثم من سيتكبد عناء الحديث عن هذه الجريمة غير الموجودة؟ «محاولة قتل: أطلق أحد الأشخاص مساء أمس رصاصة بمسدس كاتم للصوت على أستاذ مسالم . . .» مازال بونا يعلم .

عندما عاد جاريناتي إلى منزله الليلة السابقة، وجد كلمة صغيرة كتبت بيد رئيسه في العمل: «لماذا لم تأت بعد ذلك، كما اتفقنا؟ لدي عمل لك: لقد أرسلوا إلينا شرطياً خاصاً! إنه شخص يدعى فالاس، سيأخذ غرفة على مسرح الأحداث. كان عليه أن يصل هذا الصباح! كل شيء على ما يرام. أنتظرك غداً»، الثلاثاء، في الساعة العاشرة. ج. ب. «كأنه علم مسبقاً بنجاح العملية. بكل بساطة، هو لا يتصور أنه قد يفشل. عندما يقرر شيئاً، لا يمكنه إلا أن يتحقق.» كان عليه أن يأتي هذا الصباح على العكس! حان الوقت لكي يصل.

لم يجد صعوبة كبيرة في كشفه، هذا الـ «فالاس»، لكنه لم يلتق به، هو أيضاً. سيجده بسهولة من جديد. لماذا؟ لكي يقول له ماذا؟ هذا الصباح، في ساعة مبكرة، عندما كان يبحث عنه بمنهجية في الحي، كان يحتفظ بانطباع أن لديه شيئاً عاجلاً يجب أن ينقله إليه، لم يعد يعلم ما هو. وكأنه كلف بمساعدته في مهمته.

هيا، يجب أن يقرر أولاً كيف سيتلافى عائق الأمس. الموعد في الساعة العاشرة. كان بونا يعلق أهمية كبرى على اليوم والدقيقة اللذين كان دوبرون يجب أن يُقتل فيهما. لا يهم؛ للمرة الأولى سيستسلم. والآخرون الذين لا يعرفهم جاريناتي، من التنظيم كله حول بونا، وحتى إلى الأعلى، هذه الآلة الضخمة، هل ستتوقف بسببه؟ سيشرح أن لا ذنب له، وأنه لم يجد متسعاً من الوقت، وأن هذا لم يحدث كما توقعنا. ولكن، لم يضع شيء: غداً، ربما هذا المساء، سيكون دوبرون ميتاً.

نعم .

سيعود لينتظره خلف سياج المضاض ، في مكتبه الذي يعج بالكتب والأوراق . سيعود إلى هناك عن طواعية ، متيقظاً ، ومنبعثاً من جديد ، ومتنبهاً ، «وهو يحسب كلاً من خطواته» .

على الطاولة تقع الحجرة المكعبة ، بسطحها وزواياها المدورة التي صقلها الاستخدام . . .

البرج المهدم الذي تضيئه العاصفة .

إحدى وعشرون درجة من الخشب ، ودرجة بيضاء .

بلاطات الممر .

ثلاث شرائح من لحم الخنزير المقدد في صحن ، تُرى عبر الباب الموارب .

نوافذ غرفة الطعام مغلقة ، وكذلك نوافذ المطبخ . تسمح فتحاتها بتسرب ضوء مبهم .

يسير فوق العشب ، لتجنب صرير حصي المسلك الذي نميزه -أوضح- بين الشريطتين المستويتين . نافذة المكتب ، تلك في الوسط من الطابق الأول ، مضاءة بشدة . مازال دوبون هنا .

الجرس الذي يصمت ، على مشبك المدخل .

الساعة السابعة إلا خمس دقائق .

شارع الـ «آربانتور» غير المنتهي ، الذي اجتاحه سمك الرنكة وحساء الملفوف ، بدءاً من الضواحي غير المضاءة ، والتخطيطات المربعة الموحلة للدروب بين البيوت الخشبية الفقيرة .

عند هبوط الليل ، تسكع جاريناتي بانتظار حلول الساعة ، وسط هذه

النباتات القذرة لأحواض من دون عقر، وبأسلاك من حديد. ترك في غرفته التعليمات المكتوبة التي وضعها بونا، المحفوظة عن ظهر قلب منذ وقت طويل.

هذه الأوراق - مخطط محدد للحديقة والمنزل، ووصف دقيق للمكان، وتفصيل العمليات التي ستُنَفَّذ - ليست مكتوبة بخط بونا؛ فهو لم يحرر سوى بعض الأوراق الخاصة بجريمة القتل بحد ذاتها. أما الباقي، فيجهل جاريناتي من كاتبها؛ أو بالأحرى، من كتابها، لأن أشخاصاً عدة - لاشك - دخلوا إلى هذا الجناح ليقوموا بالملاحظات الضرورية، ويدونوا وضعية الأشياء، ودراسة العادات المألوفة حتى تصرف كل لوح خشب تحت الخطوات. كما إن أحدهم فصل جرس مشبك المدخل، أثناء فترة ما بعد الظهيرة.

أطلق الباب الزجاجي الصغير تأوهاً عميقاً. إذ فتحه جاريناتي أكثر بقليل مما يجب، في إسراعه للهرب.

بقي أيضاً أن يعلم ما إذا . . .

عليه أن يعود من دون انتظار. فالمرأة الصماء وحدها الآن. أن يصعد إلى الأعلى، ويقوم بالتجربة بنفسه. ولأن الغرفة مظلمة، سيرى في أي لحظة بالتحديد تضیی اليد غير المشبوهة.

آخر، مكانه . . . غير المشبوهة. يده هو.

القاتل يعود دائماً . . .

وإذا علم بونا بذلك؟ لن يتوجب عليه أن يبقى مسمراً هنا أيضاً! بونا.
بونا. بونا. . . انتصب جاريناتي ثانية. اتجه نحو الجسر.

كان السماء ستثلج.

آخر مكانه ، حاسباً « كلاً من خطواته ، قد يأتي ، متيقظاً وحرّاً ، لينفذ عمله ذا العدل المحتم .

مكعب الحجر الرمادي .

جرس الإنذار المفصول .

الشارع الذي تفوح منه رائحة حساء الملفوف .

الدروب الموحلة التي تتوه ، بعيداً « جدا » ، في الحديد الصديء .

فالاس .

« شرطي خاص » . . .

الفصل الأول

١٢٣٤

يستند فالاس إلى الحاجز في مدخل الجسر . وهو رجل ما يزال شاباً ، طويل وهادئ ، بوجه متناسق . إن الملابس التي يرتديها ، ومظهره مثل متسكع على المر ، موضوع مبهم يثير الاستغراب بالنسبة إلى آخر العمال الذين يسرعون نحو المرفأ: إذ لا يبدو عادياً تماماً ألا يكون المرء في لباس العمل ، وألا يركب دراجة ، وألا يكون مسرعاً في هذه اللحظة ، في هذا المكان ، ولا يمكن لأحد أن ينتزه يوم الثلاثاء في الصباح الباكر؛ فضلاً عن ذلك ، لا أحد ينتزه في هذا الحي . ثمة - في هذه الاستقلالية تجاه المكان والزمان - ما يصدم بعض الشيء .

أما فالاس ، فهو يعتقد أن الطقس ليس حاراً ، وأنه ، كي يشعر بالنشاط ، سيكون من الممتع أن يركب دراجة على الإسفلت الأملس ، مدفوعاً بالتيار . لكنه يبقى هناك ، معلقاً على درابزين الحديد . تلتفت الرؤوس ، الواحدة تلو الأخرى ، نحوه . يصلح مندبل رقبته ، يزر ياقة معطفه . تستدير الرؤوس الواحدة فالأخرى ثم تختفي . لم يتمكن من تناول فطوره هذا الصباح: لا قهوة قبل الساعة الثامنة في هذا المقهى حيث وجد غرفة . ينظر آلياً إلى ساعته ويستنتج أنها لم تعاود العمل ، فقد توقفت مساء أمس في الساعة السابعة والنصف ، مما لم يسهل الأمور بالنسبة إلى رحلته وإلى باقي الأمور . قد يحصل أن تتوقف من وقت لآخر ، لا نعلم تماماً لماذا ، بعد صدمة ما في بعض الأحيان - ليس دائماً - ثم تعود فتعمل بعد ذلك وحدها ، من دون سبب . يبدو أن لاشيء فيها كُسر؛ فهي قد تعمل أيضاً خلال عدة أسابيع على التوالي . إنها مزاجية ، وهذا مزعج إلى حد ما ، في البداية فقط ، إذ يكفي أن يعتاد المرء على ذلك .

لعل الساعة الآن السادسة والنصف . هل يفكر رَبُّ العمل أن يأتي ليقرع الباب كما وعد؟ لمزيد من التأكد، أدار فالاس جرس المنبه الصغير الذي كان يحرص- أن يحمله معه ، وفي نهاية المطاف ، نهض قبل الموعد: وبما أنه لم يكن نائماً ، كان من الأفضل أن يبدأ على الفور . إنه وحيد الآن ، وكأنه تائه في الطريق عبر موج ركاب الدراجات . أمامه ، يمتد الشارع الذي وصل للتو عبره إلى الشارع العريض؛ وإلى اليسار ، هناك بناية جميلة من حجر تتألف من خمسة طوابق تشكل الزاوية ، ويقابلها جناح من الآجر محاط بحديقة ضيقة . هنا قُتل دانييل دوبون أمس برصاصة في الصدر . في الوقت الحالي ، لا يعرف فالاس أكثر من ذلك .

لقد وصل متأخراً ، في الليلة الماضية ، إلى هذه المدينة التي لا يعرفها جيداً . إذ سبق أن أتى إليها مرة ، ولكن لساعات عدة فقط ، عندما كان طفلاً ، ولا يحتفظ منها بذكرى محددة تماماً . ثمة صورة بقيت في ذهنه عن قناة مسدودة؛ حيث يرسو قرب أحد الأرصفة قارب قديم غير صالح للاستخدام ، أهو هيكل سفينة شراعية؟ يغلق جسر حجري المدخل في الأسفل . لم يكن الأمر كذلك تماماً دون أدنى شك ، فما كان يمكن للقارب أن يمر تحت هذا الجسر . يستأنف فالاس طريقه داخل المدينة .

بعد أن عبر القناة ، توقف ليفسح المجال لمرور قطار عائد من المرفأ ، وهو يلمع من دهان جديد - أصفر وأحمر وشارة مذهبة - إنه فارغ تماماً؛ فالناس يسرون في الاتجاه المعاكس . عند وصوله أمام فالاس ، الذي كان ينتظر كي يعبر ، يتوقف بدوره ، فيجد فالاس نفسه تماماً أمام الدرجة الحديدية (لصعود القطار) ، يلاحظ عندها إلى جواره القرص المثبت على قنديل غاز ، وقد كُتب عليه:

«توقف إجباري» والرقم ٦ الموافق للخط . عقب ضربة الجرس ، تعاود الحافلة السير ببطء بأنات هيكلها . تبدو كأنها أنهت عملها اليوم . فمساء أمس ،

عند مخرج المحطة ، كانت القطارات الكهربائية مكتظة بشدة لدرجة أنه لم ينجح في دفع ثمن التذكرة قبل نزوله؛ إذ لم يكن الجاني يستطيع التحرك بسبب الحقائق . أما الركاب الآخرون فقد أشاروا له ، ليس من دون صعوبة ، إلى الموقف الأقرب من شارع «آربانتور» ، هذا الذي يجهل أغلبهم وجوده ، كما يبدو؛ حتى أن أحدهم كان يقول إنه ليس في هذا الاتجاه أبداً . كان عليه أن يسير طويلاً إلى حد ما في الشارع العريض سيء الإنارة ، وعندما وجده أخيراً ، لاحظ المقهى الذي مازال مفتوحاً ، حيث أعطوه غرفة ليست مريحة جداً بالتأكيد ، لكنها تكفيه تماماً . كان محظوظاً إجمالاً ، إذ لم يكن من السهل أبداً أن يجد المرء فندقاً في هذا الحي المقفر . كان قد كُتب على الزجاج: «غرف مفروشة» بأحرف من طلاء خزفي ، ومع ذلك فإن صاحب المقهى تردد قبل أن يجيب ، فقد كان منزعجاً أو بمزاج سيء . في الطرف الآخر من الرصيف ، يتجه فالاس إلى شارع مرصوف بالخشب ، يقود إلى مركز المدينة؛ «شارع باربان» ، كما نقرأ على اللائحة الزرقاء . لم يجد فالاس الوقت ليحصل على مخطط المدينة قبل رحيله ، وهو ينوي أن يقوم بذلك هذا الصباح عند فتح المخازن . لكنه سيستفيد من هذه المهلة التي لديه قبل أن يذهب إلى مكاتب الشرطة ، حيث لا تبدأ الخدمة العادية إلا في الساعة الثامنة ، في سعيه إلى التعرف إلى ذاته وحده عبر تداخل الشوارع . يبدو هذا الشارع مهماً على الرغم من ضيقه؛ إذ من المحتمل أن يكون طويلاً ، وهو يتبدد بعيداً في رمادية السماء . إنها سماء شتوية بحق ، كان يظن أن الثلج سيهطل .

على الجانبين تصطف بيوت من القرميد الأحمر البارز ، كلها مبسطة على نحو واحد ، من دون شرفة أو إفريز أو تزيين من أي نوع . لا يوجد هنا سوى الضروري اللازم: جدران من لون واحد مثقبة بفتحات مربعة؛ لا يوحي ذلك بالفقر ، بل بالصنعة والاقتصاد . إنها في أغلبها أبنية تجارية .

واجهات بسيطة ، تركيبات متقنة من الآجر الصغير باللون الأحمر القاتم ،
المتين ، والمكرر ، والصابر ، أرباح رمزية حققتها «شركة الأخشاب الراتنجية» أو
شركة «لويس سكوب لتصدير الأخشاب» أو شركة «مارك ولانجر» ، أو شركة
«بوركس» المغفلة . تصدير أخشاب ، أخشاب راتنجية ، الحي مخصص كله
لهذه التجارة؛ آلاف الهكتارات من غابات صنوبر مكدسة في طبقات ، لتضع في
مأمن دفاتر الحسابات الضخمة . البيوت كلها مبنية في إطار نموذج واحد: خمس
درجات تقود إلى باب مطلي مدعم ، بإطار من الصفائح السوداء تحمل اسم
الشركة بحروف مذهبة؛ نافذتان إلى اليسار ، وواحدة إلى اليمين ، وفوقها أربعة
طوابق من النوافذ المماثلة . ربما هناك شقق وسط المكاتب! هي على أية حال لا
تتميز عنها بأية علامة خارجية . أما الموظفون المستيقظون للتو ، الذين سيحتاجون
الشارع خلال ساعة ، فهل سيجدون مشقة بالغة في التعرف إلى أبوابهم ، على
الرغم من الاعتياد ، أم أنهم سيدخلون عبر أول باب ، لكي يصدّروا بلا تعيين
أخشاب لويس سكوب أو مارك ولانجر؟ أليس المهم أن يقوموا بعملهم بضمير ،
حتى تستمر قطع الآجر الصغيرة في التكديس ، كالأرقام في الكتب الكبيرة ،
مجهّزة بذلك طابقاً جديداً للبناء بمبالغ صغيرة: بضع مئات من الأطنان إضافة إلى
الأرقام والحروف الصحيحة؛ «السيد فلان ، رداً على كتابكم الوارد بتاريخ . . .»
دفع نقداً ، جذع شجرة صنوبر مقابل خمسة ملايين (فرنكاً قديماً) .

لا تتوقف المسيرة إلا عند تقاطع الشوارع المتعامدة ، المتماثلة تماماً ، المكان
الكافي للانزلاق بين أكوام السجلات والآلات الحاسبة .

هاهي الحزة أعمق يحفرها الماء داخل مراحل الصلصال؛ وعلى طول الرصيف
ينتصب خط دفاع جملون (تقال للبناء) ، حيث تعمل الفتحات وهي مسدودة
- غريزياً - والأسوار أكثر سماكة . وسط هذا الشارع المعترض تجري قناة ،
تبدو ساكنة ، هي ممر مستقيم تركه البشر للبحيرة الأم ، وللمراكب المحملة

بالخشب التي تنزل ببطء نحو المرفأ، آخر ملجأ أيضاً، في اختناق هذه الأراضي الجافة، لأجل الليل، ماء النوم، من دون ترسبات، الماء الأخضر المزرق القادم من البحر، الذي أفسدته الوحوش غير المرئية.

فيما وراء مجرات المزاريب ^(١) والحواجز، يطلق المحيط زوبعة تبعث الأوهام، تشكل تلافيها هنا بساطاً بين حاجزين مطمئنين.

ومع ذلك، يتوجب على المرء أن يأخذ حذره، وألا ينحني بشدة، إذا أراد تجنب الانجذاب نحوها. . .

بعد قليل، يتابع صف بيوت القرميد. «شارع جوزيف جانك». وواقع الأمر ذلك هو الشارع ذاته المستمر في الجانب الآخر من القناة: التقشف نفسه، والوضعية ذاتها للنوافذ، الأبواب نفسها، ولوحات الزجاج الأسود عينها المحفورة بالكتابات ذاتها. «سيلرمان وأبناؤه، تصدير أخشاب، برأس مال قدره مليون ومئتا ألف». المستودع العام، رصيف سان-فيكتور في الرقمين ٥ و ٦ على طول حوض الشحن، جذوع مكومة بتعقل لف صف الرافعات، جادة العنابر المعدنية، رائحة المازوت والصمغ. رصيف سان-فيكتور، لا بد أنه يقع في مكان ما، إلى الأعلى، في الشمال الغربي.

بعد مفترق طرق، يتغير المشهد قليلاً؛ جرس طبيب ليلي، بعض المخازن، نمط العمارة مختلف بعض الشيء، مما يخلع على هذه النواحي سمة ما هو صالح للسكن. ثمة شارع ينطلق إلى اليمين مشكلاً زاوية أكثر حدة من السابقات. ربما يتوجب على المرء أن يسلكه؟! من الأفضل السير في هذا الشارع إلى آخره، سيكون هناك متسع من الوقت للانعطاف بعد ذلك.

(١) مجرة المزارب قناة ضيقة تسقط فيها مياه السطح - المترجمة.

طعم دخان يجري بمستوى الأرض . لافتة إسكافي ، كلمة «مأكولات» بحروف صفراء على خلفية بيّنة . ومع أن المشهد يبقى مقفراً ، لكن انطباع الإنسانية يتعزز تدريجياً؛ فعلى نافذة الطابق الأرضي تزدان الستائر برسم رمزي على شكل سلسلة ، كراحة يحملن طفلاً هجرته عائلته ، أو شيء آخر من هذا القبيل .

مخزن ألبان ، وبقالة ، ولحوم باردة ، مخزن آخر للبقالة ، لا نرى حالياً سوى بواباتها الحديدية المقفلة ، وفي الوسط ، يبرز على قطعة من الصفيح الرمادي جزء من الدانتيل على شكل نجوم ، بحجم الصحن ، كالتي يصنعها للأطفال من أوراق مثنية . هذه المخازن صغيرة ، لكنها نظيفة ، فقد غُسلت جيداً ، وُجدد طلاؤها في أحيان كثيرة ، وهي كلها تقريباً مخازن لبيع المواد الغذائية: مخبز ترابي اللون ، ومخزن ألبان أزرق ، وآخر للسّمك بلون أبيض . إن لونها والاسم الذي تحمله في الواجهة فقط هو ما يميز أحدها عن الآخر .

من جديد ، نوافذ مفتوحة ، وقطعة قماش مفرغة ورخيصة ، تلك التي تحمل رسم شجرة وراعيين بلباس قديم ، يساعدان طفلاً صغيراً عارياً في شرب حليب شاة .

وحيداً بين مصراعين مفتوحين ، أسفل جدران من الآجر ، يتابع فالاس طريقه بنفس الخطأ المطاوعة الواثقة . إنه يسير . لم تبدأ الحياة بعد من حوله . ومع ذلك ، فقد صادف منذ قليل ، على الطريق الواسع ، أول موجة عمال متجهة نحو المرفأ ، لكنه منذ ذلك الحين لم يلتقِ بأحد: فالموظفون ، والتجار ، وربات البيوت ، والأطفال الذين يذهبون إلى المدرسة ، مازالوا صامتين داخل منازل مغلقة . والدراجات اختفت ، لأن اليوم الذي كانت قد بدأت عاد إلى الورااء يوضع حر كات ، كنائم مد ذراعه للتو لحنق جرس ساعة المنبه ، ومنح نفسه بضعة دقائق من التأجيل ، قبل أن يفتح عينيه تماماً .

خلال لحظة ستُفتح الجفون ، أما المدينة الخارجة من نعاسها المصطنع ،
فستبلغ فجأة إيقاع المرفأ ، وذلك التنافر العازم في الأصوات؛ إنه من جديد
التوقيت نفسه بالنسبة إلى الجميع .

يتقدم فالاس كمتنزه غريب ، عبر هذه الفسحة الهشة . (وهكذا ، فإن
الذي أطال البقاء إلى وقت متأخر من الليل ، لا يعرف غالباً إلى أي تاريخ يعود
هذا الزمن المريب الذي يمتد فيه وجوده . دون جدوى ، يسعى دماغه المتعب
من العمل والسهرة إلى إعادة تشكيل تعاقب الأيام : عليه أن ينهي في الغد العمل
الذي بدأه مساء أمس ، وبين أمس والغد ، لم يعد هناك مكان للحاضر . منهك
تماماً ، يرمي نفسه أخيراً فوق سريره ويخلد للنوم . في وقت لاحق ، عندما
يستيقظ ، يجد نفسه في حاضره الطبيعي .) يسير فالاس .

- ٢ -

من دون أن يتنحى عن طريقه ، أو يبطئ في مشيته ، يسير فالاس .
أمامه ، تجتاز امرأة الشارع . رجل عجوز يجر نحو باب العربات سلة مهملات
فارغة بقيت على حافة الرصيف . خلف زجاج نافذة تتدرج ثلاثة صفوف من
الأطباق المستطيلة التي تحتوي على كل أنواع سمك الأنشوفة المنقوع ، والرنكة
المدخن ، والرنكة الملفوف والملح والمتبل ، نيئاً أو مطبوخاً ، منقوعاً ، أو مقلياً ،
أو مخللاً ، مقطعاً أو مفروماً . في مكان آخر ، رجل بمعطف واقٍ من المطر أسود
اللون وقبعة يخرج من أحد المنازل ، ويأتي لمقابلته . إنه في سن النضج ، وحالة
مادية مريحة ، وعمليات هضم عسيرة في أغلب الأحيان ، يقوم بوضع خطوات
ثم يدخل مباشرة إلى مقهى ذي مظهر نظيف جداً ، أكثر حفاوة بالتأكيد من
ذلك المقهى الآخر ، حيث أمضى الليل هو نفسه .

يتذكر فالاس أنه جائع ، لكنه يقرر أن يتناول طعام الإفطار في مؤسسة حديثة وكبيرة ، في أحد تلك الأماكن أو الشوارع العريضة التي من المفروض أنها تشكل قلب المدينة ، كما في كل مكان .

إن الطرق المتعامدة التي تظهر بعد ذلك تقطع المدينة في زاوية منفرجة ، وتقوده إذاً بعيداً إلى الخلف ، في الاتجاه الذي جاء منه تقريباً .

يحب فالاس السير . في الهواء البارد لهذا الشتاء القادم ، يحب أن يسير بخطا مستقيمة ، عبر هذه المدينة المجهولة . إنه ينظر ، ويصغي ، ويحسّ؛ فالتماس المتجدد دائماً يمنحه انطباعاً رقيقاً بالاستمرارية: إنه يسير ، فيلف شيئاً فشيئاً الخط المتواصل لمروره ، لم يكن ذلك سلسلة من الصور غير المعقولة ، التي لا رابط بينها ، بل شريطاً موحداً يتوضع كل عنصر فيه فوراً في لحمه ، حتى العناصر العابرة منها ، والتي تبدو في البداية غامضة ، أو مهددة ، أو مغلوطة تاريخياً ، أو مضللة ، تأتي جميعها لتصطف بتعقل الواحد قرب الآخر ، فيمتد النسيج ، من دون ثقب أو تبذير ، بالسرعة المنتظمة لخطواته . ذلك لأنه هو من يتقدم ، وهذه الحركة تخص جسده هو ، ولا تخص الخلفية التي سيحركها عامل الآلات . بوسعه أن يتابع في أعضائه حركة المفاصل ، والانقباض المتتالي للعضلات ، إنه هو من ينظم وتيرة الخطوات وطولها: نصف ثانية للخطوة ، خطوة ونصف في المتر ، ثمانون متراً في الدقيقة . إنه يسير إرادياً نحو مستقبل رائع لا يمكن تجنبه . في السابق ، غالباً ما كان يحدث له أن يقع في حلقات الشك والعجز ، لكنه اليوم يسير ، فقد وجد هنا زمنه من جديد .

على جدار باحة مدرسة ، توجد ثلاثة إعلانات صفراء ، ثلاثة نماذج ملصقة الواحد إلى جانب الآخر ، لخطبة سياسية مطبوعة بحروف صغيرة بعنوان كبير في الأعلى: انتبهوا أيها المواطنون ! انتبهوا أيها المواطنون ! انتبهوا أيها المواطنون ! يعرف فالاس هذا الإعلان المنتشر في أنحاء البلاد ، والذي أصبح قديماً ، إنه بمنزلة تحذير

ما لنقايي من أتباع التروست^(١)، أو للتحزّرين من الحماية الجمركية، هو نوع من الأدب لا يقرأه أحد، إلا من وقت لآخر. يتوقف رجل عجوز، فيضع نظارته ويفك باهتمام حروف النص كاملاً، منقلاً عينيه على طول الأسطر من البداية إلى النهاية، متراجعاً قليلاً ليتأمل النص كله وهو يحرك رأسه، ثم يعيد نظارته إلى علبتها، والعلبة في جيبه، ثم يتابع طريقه بحرية، متسائلاً ما إذا كان قد ترك الأساسي يفلت منه. يبرز مصطلح مشبوه ما وسط الكلمات المعتادة، هنا وهناك كمنازة، فتبدو الجملة التي يوضحها على نحو مريب، وكأنها تخفي للحظة أشياء عدة، أو لاشيء البتة. على بعد ثلاثين متراً، نرى خلفية اللوحة التي تشير للسيارات إلى وجود مدرسة.

تجتاز الشارع بعد ذلك قناة جديدة، أقل ضيقاً من السابقة. وتقترب فوقها سفينة جرّ بتان، جارة على سطح الماء قاربين محمّلين بالفحم الحجري. رجل بستره زرقاء اللون وقبعة رسمية يغلق للتوّ مدخل الجسر على الرصيف المقابل، ويتّجه نحو الطرف الحرّ حيث يمر فالاس. يصير عليه الرجل:

- أسرع بالمرور، يا سيدي، سنفتح.

عندما يتقاطع معه فالاس، يوجه له إشارة صغيرة من رأسه.

- الطقس بارد هذا الصباح!

يجيب الرجل: لقد بدأ.

تلقي سفينة الجر التحية بتأوه مبطن، فيلمح فالاس فوق الدعائم المعدنية القارب البخاري وهو يتعد. يدفع البوابة الصغيرة. ثمة جرس كهربائي يعلن أن الموظف في الطرف الآخر سيبدأ آلية العمل. في اللحظة التي يغلق

(١) تروست: اتحاد احتكاري بين عدد من الشركات للحد من المنافسة - المترجمة.

فيها فالاس البوابة، تنفصل الأرضية خلفه، فيبدأ سطح الجسر بالتراجع بصوت محركٍ ومستنات.

يصل فالاس أخيراً إلى شارع رئيس عريض يشبه كثيراً الطريق الدائري الذي غادره في الصباح الباكر، باستثناء القناة، إذ يعوض عنها رصيف مركزي غُرست فيه شجيرات، وبيوت للإيجار من خمسة أو ستة طوابق، تتناوب مع أبنية أكثر تواضعاً، ذات طابع ريفي تقريباً، ومبانٍ أخرى صناعية، كما هو واضح. يتعجب فالاس من وجود هذا المزيج من بناء الضواحي. وبما أنه اجتاز الشارع، ليسير يميناً في هذا الاتجاه الجديد، فهو يقرأ بدهشة متزايدة: «شارع دائري» على المبنى الواقع في الزاوية. يلتفت إلى الورا تائهاً.

لا يمكن أن يكون قد دار حول نفسه، لأنه سار باستمرار بخط مستقيم، بعيداً نحو الجنوب، بدءاً شارع آربانتور، فقطع من دون شك قسماً من المدينة. سيتوجب عليه أن يسأل عن طريقه.

يسارع قسم من المارين إلى أعمالهم، يفضل فالاس ألا يؤخرهم. يقع خياره على امرأة بصدارة، كانت تغسل الرصيف أمام مخزنها، على الطرف الآخر من الشارع. يقترب فالاس منها، لكنه لا يعرف كيف يطرح سؤاله: فهو حالياً لا هدف محدد له؛ أما بالنسبة إلى مكاتب الشرطة حيث يجب أن يذهب في وقت لاحق، فهو يشمئز من تسميتها، ليس بدافع عدم الثقة المهنية، بل بدافع الرغبة في أن يبقى في حيادية مريحة، بدلاً من أن يساعد باستخفاف على إثارة الحشية، أو الفضول فقط. كذلك الأمر بالنسبة إلى «دار القضاء» الذي يوجد مقابل مكتب المفوض العام، كما قيل له، ولكن صيته الفني لا يكفي ليعث الاهتمام الذي يظهره. تنتصب المرأة عندما تراه قربها، فتوقف حركة مكنتها.

- عفواً سيدتي ، كيف يمكنني الذهاب إلى البريد الرئيس ، من فضلك؟

تجيب بعد لحظة من التفكير :

- تقصد البريد الكبير؟

يبدو أنه لم يكن السؤال المناسب . ربما هناك مجموعة مكاتب بريد كبيرة ،
ولا أحد منها يقع في مركز المدينة . تنظر المرأة إلى مكنتها-الفرشاة ، وتقول:

- يوجد بريد بالقرب من هنا ، في هذا الشارع . (تشير إلى المكان بذقنها) .
يذهب الناس إلى هناك عادة . لكنه مغلق بالتأكيد في هذه الساعة .

إذاً ، كان لسؤاله معنى : لا يوجد سوى بريد واحد يحتوي على مكتب
للبرقيات يمكن استخدامه ليلاً .

- نعم ، بالفعل ، يجب أن يكون هناك مكتب بريد مفتوح للبرقيات .

يبدو أن هذا التصريح أثار للأسف تعاطف السيدة :

- آه ، تود إرسال برقية! تلقي نظرة إلى مكنتها ، بينما يظن فالاس أنه
يتخلص من الموقف بكلمة «نعم» غير المقنعة .

تقول السيدة :

- آمل ألا يكون هناك شيء خطراً لم يُطرح السؤال بطريقة استفهامية
واضحة ، بل مثل أمنية مهذبة مرتابة بعض الشيء ، لكن السيدة لا تضيف شيئاً
آخر بعد ذلك ، ويجد فالاس نفسه مضطراً لأن يجيب . يقول :

- لا ، لا ، أشكرك .

إنها كذبة جديدة ، فثمة رجل مات الليلة السابقة . هل يتوجب عليه أن
يشرح أن الميت ليس فرداً من عائلته؟

تقول المرأة :

- حسناً، إذا لم يكن الأمر عاجلاً، فلديك مكتب بريد، هناك، سيفتح في الساعة الثامنة.

هذا جزء من يخلق القصص. فهو لن يرسل برقية لأحد؟ ولا يعرف ماذا يمكن أن يقول فيها؟ كيف الوسيلة للتراجع؟ عندما ترى السيدة ملامح عدم الرضا تبدو على سحنته، تضيف أخيراً :

- هناك بريد في شارع كريستيان-شارل، لكنني لا أدري إذا كان يفتح قبل المكاتب الأخرى، بدءاً من هذه اللحظة حتى تصل إليه. . .

تفحصه الآن بانتباه، وكأنها تحسب فرصه للوصول إلى الهدف قبل الساعة الثامنة؛ ثم تنحني بصرها وتعود لمراقبة طرف مكنستها-الفرشاة. تكشف إحدى ريشاتها، نصف المنزوعة عن بعض قشاة نجيلية في طرفها. أخيراً، تعلن عن نتيجة تفحصها له :

- أنت لست من هنا، يا سيدي؟

يعترف فالاس على مضض :

- لا، وصلت منذ وقت قصير. دليني على الطريق إلى مركز المدينة، وأنا سأتدبر أمري.

المركز؟ تحاول المرأة أن تحدده في ذهنها؛ تنظر إلى مكنستها، ثم إلى الدلو المليء بالماء. تستدير نحو مدخل شارع جانك، وبحركة من يدها تشير إلى الاتجاه الذي جاء منه فالاس.

- ليس عليك سوى أن تسير في هذا الشارع . وبعد القناة ، تتجه إلى اليسار في شارع برلين ، فتصل إلى ساحة المحافظة ، ثم تتابع الطرق الرئيسية بخط مستقيم .

مبنى الشرطة: هذا ما كان يجب السؤال عنه .

- شكراً ، سيدتي .

- أتعلم ، المكان ليس قريباً جداً . يجدر بك أن تذهب حتى القطار ، وهناك ، يمكنك . . .

- لا ، لا ، سأسير مسرعاً ، هذا سيجعلني أشعر بالدفء ! شكراً ، سيدتي .

- أنا في الخدمة ، سيدي .

تغمس مكنستها في الدلو ، ثم تعاود الفرق .

يتابع فالاس طريقه في الاتجاه المعاكس .

يُستأنف تسلسل الأحداث المطمئن . في الوقت الحاضر ، يرجع موظفو المكاتب إلى منازلهم ، حاملين بيدهم حقيبة من جلد اصطناعي تحتوي على الشطائر الثلاث التقليدية ، لوجبة الغداء السريعة .

يرفعون بصرهم نحو السماء عندما يجتازون عتبة بابهم ، ويغادرون محيطين رقتهم بأوشحة من الصوف البني .

يشعر فالاس بالبرد يلفح وجهه؛ لم يأت بعد موسم الصقيع الحاد الذي يشلّ الوجه فيحوّله إلى قناع مؤلم ، ولكن المرء يشعر بتقلص يبدأ في الأنسجة:

يضيق الجبين ، فيقترب منبت الشعر من الحاجبين ، ويحاول الصدغان أن يلتقيا ، ويسعى الدماغ إلى الانكماش في شكل ركام سطحي لا خطر منه ، بين العينين الاثنتين ، فوق الأنف بقليل . ومع ذلك ، فالحواس هي أبعد من أن تكون مخدرة: يبقى فالاس الشاهد اليقظ جداً على عرض لم يفقد شيئاً من مزاياه في التنظيم والثبات ، ربما على العكس ، يصبح الخط أكثر صرامة ، متخلياً تدريجياً عن زخرفاته وليونته . ولكن ربما لم تكن هذه الدقة في الرسم أيضاً سوى وهمية مبعثها فقط معدة خالية .

ضجة محرك ديزل (مازوت) يقترب من فالاس من الخلف . . .

يملاً الاضطراب -في آخر الأمر- رأسه كلياً ، وبعدها تتجاوزته مركبة ثقيلة لنقل البضائع ، جارة سحابة من الدخان الخانق .

سائق دراجة -وقد ترجل عن مركبته- ، ينتظر أمام الحاجز الأبيض ، عند مدخل الجسر المتحرك الذي ينهي انحداره . يتوقف فالاس قريباً منه ، فيتفحص مثله أسفل سطح الجسر في ابتعاده . عندما يشاهدان سطح الشارع من جديد ، يدفع رجل الدراجة البوابة بمقدمة عجلاته ، ويستدير نحو فالاس ، فيقول :

- الطقس بارد هذا الصباح .

يرد فالاس : نعم ، لقد بدأ! - وكان الثلج سيهطل .

* في هذا الموسم ، يا للعجب! سيكون ذلك طريفاً .

يرد صاحب الدراجة: أما أنا فلن يدهشني ذلك .

يثبت الاثنان الحافة المعدنية لسطح الجسر ، وقد وصلت بهدوء إلى مستوى

الشارع. وفي اللحظة التي تبلغه، يتوقف الضجيج فجأة، فيسمع عندها في الصمت صوت جرس كهربائي يسمح بالمرور. عند اجتيازه للبوابة، يكرر سائق الدراجة :

- لن يدهشني ذلك .

يقول فالاس :

- ربما يحدث ذلك ، أتمنى لك التوفيق .

يجيب سائق الدراجة: نهارك سعيد، يا سيدي .

يقفز إلى مقعد الدراجة، ويتعد .

هل سينهمر الثلج حقاً؟ لم يعد الطقس بارداً إلى حدّ كافٍ ، لاشك أن تغيير الطقس المbaughت وحده هو المدهش .

يتواجه فالاس وسط الجسر مع الموظف ذي الصدارة، وهو عائد لفتح الحاجز .

- هل عدت بهذه السرعة ، يا سيدي! يجب فالاس: أي نعم؛ الوقت الذي حصلت فيه العملية .

- مركز المحافظة من هنا ، أليس كذلك؟

يستدير الآخر نصف دورة . يفكر: «الوقت لفعل ماذا؟»

يقول: نعم ، بالطبع ، من هنا ، سر في شارع برلين ، فهو أقصر .

- شكراً سيدي .

- نزهة جميلة ، يا سيدي .

لماذا لا يتحكمون بهذا الحاجر آلياً ، من الطرف الآخر؟ يدرك فالاس الآن أن شارع جانك ليس مستقيماً: تماماً؛ فهو ينعطف في واقع الأمر نحو الجنوب بوساطة سلسلة من الانعطافات الدقيقة . على قرص إشارة المرور حيث صورة طفلين يمسكان يداً بيد ، ويحمل كل منهما حقيبة متدلية ، نرى بقايا فراشة ، ألصقت بالمقلوب ثم نُزعت . هناك بعد الباب المزدوج ، مدرسة بنات ، ومدرسة بنين .

تحت شجرات الكستناء الهندي ، يحجب جدار باحة الاستراحة.الأوراق والقشور المتكسرة للفواكه عن الرؤيا . التقط الأولاد الصغار بعناية البذور اللامعة ، التي تصلح للعديد من الألعاب والأعمال . يُغَيِّر فالاس الرصيف لينظر إلى أسماء الشوارع المكتوبة إلى اليسار .

عند التقاطع ، يُلاحظ فالاس أمامه الرجل المُصاب بعسر الهضم ، الذي صادفه منذ قليل ، مجتازاً الشارع . لا يبدو بحالة أفضل بعد أن أتم تناول طعامه ، ربما هي الهموم التي تُظهره بهذا الشكل ، وليس ألم المعدة . (إنه يشبه فايوس!) . يرتدي الرجل لباساً باللون الأسود ، يتجه نحو البريد ليرسل برقية تعزية .

— أه ، تريد إرسال برقية . آمل ألا يكون هناك شيء خطر! — وفاة ، سيدتي .

يمر السيد الحزين أمام فالاس ، ويسلك الشارع المتعامد ، «شارع برلين» ، فيقتفي فالاس أثره .

إذاً ، كان عليه أن ينحرف هذا الصباح قبل ذلك بكثير ، فيما إذا أراد الحكم من خلال اتجاه هذا الشارع . يتقدم الظهر الأسود بدقة ، بسرعة فالاس نفسها ، ويبين له الطريق .

يمر الرجل ذو المعطف الواقى من المطر على رصيف الجهة اليسرى ،
ثم ينعطف في شارع صغير ، فيفقد فالاس أثره . هذا مؤسف ، لأنه كان رفيقاً
درب جيد . إذاً ، لم يكن هذا الرجل ذاهباً إلى البريد لإرسال برقية ، إلا إذا
كان يعرف طريقاً مختصرة تقوده مباشرة إلى شارع كريستيان-شارل . لا
يهم ، يفضل فالاس إتباع الطرق الرئيسة الكبرى ، لاسيما أنه لا يملك سبباً يدفعه
للذهاب إلى هذا البريد .

كان من الأسهل عليه - بالتأكيد - أن يقول لتلك المرأة مباشرة إنه يرغب
بالتجوال في الشوارع الرئيسة للمدينة التي يزورها للمرة الأولى . ولكن ألا يمكن
أن يدفعه الحذر عندها للحديث عن رحلته السابقة؟ أي عن الدروب الضيقة
المشمسة حيث رافق أمه ، وعن طرف القناة بين البيوت المنخفضة ، وهيكـل
السفينة المهجور ، وعن تلك القرية (شقيقة أمه ، أو أختها؟) التي كان عليهما أن
يلتقيها؛ كان سيبدو وكأنه يبحث عن ذكريات طفولة . أما أن يدعي أنه سائح ،
فتلك ذريعة غير منطقية في هذه الحقبة من السنة ، في مدينة تفتقد كلياً إلى
الجازبية بالنسبة إلى هاو للفنون ، أضف إلى أن هذا الافتراض سيمثل خطراً أكبر
ستجره إليه عندها أسئلة السيدة ، لاسيما أن البريد كان كافياً تلقائياً لخلق فكرة
البرقية ، بغية تجنب تفسيرات جديدة ، ورغبة منه أيضاً في عدم مخالفتها . إلى أية
مغامرات خيالية ستقوده في النهاية تلك الرغبة في أن يكون ودوداً ومتكثماً؟!

- ألسنت من هنا ، يا سيدي؟

- لا ، أنا شرطي ، وصلت مساء أمس للتحري عن جريمة قتل سياسية .

سيكون هذا بعيد الاحتمال أكثر من الباقي .

لطالما ردد فاييوس: «يتوجب على عنصر التحريات أن يترك أقل أثر ممكن له في أذهان الناس ، لذا فمن المهم أن يحافظ -في كل الظروف- على سلوك لا يخرج عن نطاق المألوف»

أما الصورة الكاريكاتورية، الشهيرة في مكتب التحريات ، وفي الوزارة كلها، فهي تمثل فاييوس متنكراً في هيئة «متنزه لا مبال»؛ بقبعة تغطي العينين ، ونظارة سوداء كبيرة، ولحية مستعارة مبالغ فيها، تمتد إلى الأرض. تزحف الشخصية ملتوية، خفية، في عمق الريف، وسط حيوانات مندهشة.

وواقع الأمر، هذه الصورة التي تفتقد إلى الاحترام تخفي إعجاباً صادقاً يمكنه المساعدون لرئيسهم العجوز. أما أعداؤه فيقترحون عليك بتلاطف: «لقد تراجع كثيراً»؛ لكن من يعملون معه كل يوم يعلمون تماماً أن فاييوس الشهير يبقى جديراً بأسطوره، على الرغم من بعض قصص عناده. ومع ذلك، بالإضافة إلى تمسكه بطرق عمل بالية، فإن المخلصين له هم ذاتهم من يوجه إليه اللوم أحياناً بسبب نوع من التردد والحذر المرضي، اللذين يجعلانه باستمرار يشك بالمعطيات الأكثر تأكيداً. فالحداقة التي كان يكشف بها أقل نقطة حساسة في حالة مشبوهة، والحركة الشغفة التي تحمله إلى موطن اللغز، ثم صبره الذي لا يكل لإعادة تركيب الخيوط المكشوفة، كل ذلك يبدو وكأنه يتحول في لحظة ما إلى رية عقيمة لمهوس. كان يقال سابقاً إنه لا يثق بالحلول البسيطة، والآن يُهمس بأنه كف عن الاعتقاد بوجود حل ما.

ففي القضية الحالية، على سبيل المثال، حيث الهدف واضح (وهو كشف زعماء منظمة فوضوية)، أظهر منذ البداية تردداً لا حد له، فبدأ وكأنه يعمل بها رغماً عنه. لم يجد حرجاً في أن يبدي أمام مساعديه ملاحظات خرقاء تماماً، متصنعاً عدّ المؤامرة تارة سلسلة من التطابقات، أو اختراعاً ما كافيلاً للحكومة

تارة أخرى . في أحد الأيام ، أعلن بيروود أن هؤلاء الناس كانوا من محبي البشر ، ولا يمكنهم أن يبحثوا سوى عن خير الناس .

لا يحب فالاس هذه الدعابات التي من شأنها اتهام مكتب التحريات بالتهاون ، وحتى بتضارب الآراء . ليس بوسعه حتماً أن يكنّ لفاييوس التبجيل الأعمى الذي يبيده بعض زملائه له؛ فهو لم يعرفه خلال سنوات المجد في كفاحه ضد العناصر العدوّة ، أثناء الحرب . هو لا يعمل في مكتب التحريات إلا منذ وقت قصير ، إذ كان عمله في السابق في مكتب آخر في وزارة الداخلية ، وقد شغل هذه الوظيفة بالمصادفة . حتى هذه اللحظة ، كان عمله يقوم بخاصة على مراقبة عدة شركات تيوصوفية ^(١) ، مثل شركة روا-دوزيه . وفجأة استاء الوزير ، فأمضى فالاس أشهراً عدة بالتردد على اجتماعات الخبراء ، ودراسة الملفات الغريبة ، وكسب تعاطف أنصاف المجانين . لقد أنهى للتو مهمته بتقرير ضخم عن نشاط هذه الجمعيات ، المسالمة تماماً .

إن دور مكتب الشرطة هذا -واقع الأمر- على هامش المكتب الأصلي ، سلمى في أغلب الأحيان . وقد أسس في البداية لهدف واحد هو محاربة الجاسوسية ، ثم أصبح بعد الهدنة ، نوعاً من الشرطة الاقتصادية ، وظيفتها الأساسية مراقبة تحركات الكارتل ^(٢) . بعد ذلك ، وفي كل مرة ، كاد تجمع مالي ، أو سياسي ، أو ديني آخر أن يهدد أمن الحكومة؛ فتدخل مكتب التحريات ، ثم تبين في مناسبتين أو ثلاث أنه ذو عون وثيق بالنسبة إلى الحكومة .

أما في هذه المرة فالأمر مختلف : خلال تسعة أيام ، تتابعت تسعة حوادث قتلٍ عنيفة ، ستة منها على الأقل هي جرائم قتل واضحة . هناك بعض نقاط تشابه

(١) أنصار النظرية الإشرافية الدينية التي موضوعها الاتحاد بالرب - المترجمة .

(٢) اتحاد الشركات - المترجمة .

بين هذه الجرائم المختلفة ، مثل شخصية الضحايا ، وكذلك رسائل التهديد التي استلمها أعضاء آخرون لهذه الجمعية التي ربما ينتمي إليها الأموات التسعة ، مما يبين جيداً أنه لا يوجد سوى قضية واحدة: حملة تخويف ضخمة - أو حتى حملة هدم كلية - قام بها (من؟) ضد هؤلاء الرجال الذين لا شك في أن دورهم السياسي مهم جداً ، وإن لم يكن رسمياً ، ولهذا السبب فهم يتمتعون بـ . . .

ساحة مبنى الحكومة ساحة واسعة مربعة الشكل ، محاطة في جهاتها الثلاث ببيوت مقنطرة ، وتشكل الجهة الرابعة مبنى الحكومة ، وهو بناء حجري يحتوي طرازه على رسوم حلزونية وأصداف سان- جاك ، لحسن الحظ ليس طرازه مثقلاً كثيراً ، لكنه على أية حال يتمتع بقبح محدود .

تنتصب وسط الساحة ، فوق قاعدة قليلة الارتفاع محاطة بحاجز مشبك ، مجموعة من البرونز تمثل عربة إغريقية يجرها حصانان ، تحمل شخصيات عدة رمزية على الأكثر ، لا تتوافق وقفتهما المصطنعة مطلقاً مع السرعة المفترضة لجري العربة .

من الجهة الأخرى ، يبدأ شارع «لارين» (الملكة) بشجيرات الدردار الهزيلة التي سبق أن فقدت أوراقها . هناك قليل من الناس خارج بيوتهم في هذا الحي؛ قليل من المارة المدثرون ، والأغصان السوداء للأشجار ، مما يضفي على الشارع مظهراً شتوياً مبكراً .

دار القضاء ليست بعيدة ، لأن المدينة من دون ضواحيها ليست ممتدة كثيراً . تشير ساعة مبنى الحكومة إلى السابعة وعشر دقائق تقريباً . إذاً ، لدى فالاس ثلاثة أرباع الساعة كاملة لاكتشاف المناطق المحيطة .

في نهاية الشارع ، ثمة قناة قديمة رافدة ، يزيد مأوها الرمادي من الهدوء المتجمد للمنظر .

هناك بعد ذلك شارع كريستيان-شارل ، أعرض بقليل من الشارع السابق ، على جانبيه بعض المخازن الجميلة ودور السينما . يمر قطار كهربائي ، مشيراً من وقت لآخر إلى اقترابه الصامت جداً برنتين واضحتين أو ثلاث .

يلمح فالاس لوحة إعلانية تحمل خريطة مصفرة للمدينة ، ومزودة في مركزها بإبرة متحركة . يهمل هذه العلامة ، وكذلك العلبة الصغيرة التي تحتوي على أسماء الشوارع في ملف من الورق ، ويعيد تكوين مساره من دون عناء: المحطة ، الحلقة المنبسطة قليلاً التي يشكلها الشارع الدائري ، شارع آربانتور ، شارع برابان ، شارع جوزيف جانك الذي يلتقي بالشارع الدائري ، شارع برلين ، والبلدية . سيتبع الآن شارع كريستيان-شارل حتى الشارع الدائري ، وبما أن لديه متسع من الوقت ، سينعطف بعدها يساراً ليعود متابعاً قناة لويس الخامس ، ثم القناة الضيقة التي توازي هذا الشارع . . . شارع كوبنهاغن؛ إنه الشارع الذي اجتازه للتو . عندما ينتهي فالاس من هذه الجولة ، سيكون قد اجتاز المدينة مرتين من أولها إلى آخرها حرفياً ، داخل الشارع الدائري . وخارج هذه الحدود ، تمتد النواحي باتساع ، مضغوطة وغير ممتدة نحو الشرق والجنوب ، متفرقة نحو الشمال الغربي ، يباعد بينها العديد من أحواض النباتات الواقعة خلف المرفأ ، والملاعب الرياضية ، وغابة ، وحديقة عامة أيضاً مزودة بحديقة للحيوان في الاتجاه الجنوبي الغربي .

في نهاية شارع جانك ، كان هناك طريق أقصر للوصول إلى هنا ، ولكنه كان الأكثر تعقيداً أيضاً ، وقد أحسنت المرأة ذات مكنسة النجيل عندما جعلته يمر في طريق مبنى الحكومة . انعطف المعطف الأسود ذو السحنة المكدرة هنا ، وضاع في هذا الركام من الشوارع الضيقة والمتعرجة . يتذكر فالاس وهو على وشك الذهاب أن عليه أن يبحث أيضاً عن دار القضاء ، فيجده في الحال خلف مبنى الحكومة ، يصله بها شارع صغير ينطلق من الساحة؛ إنه «شارع شارت» .

بالفعل ، يقع مكتب الشرطة العام أمامه تماماً . يحس فالاس أنه ليس غريباً في هذا المكان بمعامله الواضحة ، حيث يمكنه التنقل بانتباه أقل .

يمر فالاس - أسفل الشارع الطويل - أمام البريد ، فيجده مغلقاً . على باب الواجهة الرئيس لافتة من الورق المقوى الأبيض كُتب عليها: «تفتح الكوات من دون توقف من الساعة الثامنة صباحاً حتى الساعة مساءً» . بعد أن انحرف نحو الشارع الطويل ، لن يطول به الأمر ليصل على القناة ، فيسير بمحاذاتها ، منجذباً نحوها ، مستعيناً بها ، مستغرقاً في تأمل الانعكاسات والظلال .

عندما يصل فالاس للمرة الثانية إلى ساحة مبنى الحكومة ، تشير الساعة إلى الثامنة إلا خمس دقائق . لديه بعض الوقت فقط للدخول إلى مقهى ، عند زاوية شارع شارتر ، كي يأكل شيئاً بسرعة . لا يتفق المكان مطلقاً مع ما كان ينتظر ، إذ تبدو هذه المقاطعة كأنها لا تقدر كثيراً المرأيا ، أو النيكل ، أو إضاءة النيون . خلف واجهته الزجاجية الضئيلة التي يضاف إليها نور خافت لبعض المصاييح الجدارية ، يبدو هذا المقهى الكبير كئيباً على الأغلب ، بديكوره الخشبي القاتم ، ومقاعد الهزيلة ، المكسوة بقطيفة قاتمة اللون . لدى فالاس فقط بعض الوقت كي يقرأ الصحف التي طلبها . يتصفح بسرعة الأعمدة الرئيسية :

«حادث سير خطر على طريق دلف»

«يجتمع المجلس غداً لانتخاب محافظ جديد»

«كانت العرافة تستغل زبائنها»

«تجاوز إنتاج البطاطا إنتاج أفضل السنوات»

«وفاة أحد المواطنين . دخل لص جريء ، ليلة أمس عند هبوط الليل ،

على منزل السيد دانييل دوبون . . . »

من المحتمل أن يستقبله المفوض العام لوران شخصياً عند وصوله ، بفضل رسالة التوصية التي أرسلها له فايوس ، وذلك شريطة ألا يتضايق من هذا التدخل بشؤونه . سيكون من الواجب أن يشرح له الأمور ببراعة ، وإلا حوِّله إلى عدو له ، أو فقد مساعدته التي لا بد منها ، على أية حال . وواقع الأمر إن سلطات الشرطة المحلية أثبتت عجزها المطلق الذي ظهر في الجرائم الثمانية السابقة ، لعدم توصيلها إلى أي تفسير ، إلى حد انتهت إلى حالتين منهما إلى حادثة وفاة غير مقصودة ، ومع ذلك يبدو من الصعب استبعادها كلياً؛ فهي تشكل المصدر الوحيد الممكن للمعلومات المتعلقة «بالمقتلة» المحتملين . ومن ناحية أخرى ، سيكون من غير المناسب أن نجعلهم يظنون أننا نشتبهم بهم .

يلاحظ فالاس أن هناك مخزنَ قرطاسية مفتوحاً ، فيدخل إليه من دون تفكير . تنهض فتاة شابة كانت جالسة خلف الصندوق لتخدمه :

- سيدي؟

لها وجه جميل مقطب قليلاً ، وشعر مصفف إلى الأعلى .

- أريد ممحاة ، ممحاة ناعمة جداً للرسم .

تستدير نحو الأدراج التي تملأ الجدار . إن تسريحتها المرفوعة فوق رقبتها تجعلها تبدو أكبر سناً . تبحث في أحد الأدراج ، ثم تضع أمامه ممحاة صفراء ، متطاولة ، ذات حد مائل ، ممحاة عادية لتلاميذ المدارس . يسأل :

- أليس لديك لوازم خاصة بالرسم؟

- إنها ممحاة رسم يا سيدي .

تشجعه بنصف ابتسامة . يتناول فالاس الممحاة في يده ليتفحصها بانتباه أكبر ، ثم ينظر إلى الشابة ، إلى عينيها وشفتيها المكتنزتين المفتحتين قليلاً . يتسم بدوره .

- كنت أريد . . .

تميل برأسها قليلاً جانباً ، وكأنما لتستوعب أفضل ما سيقول .

- . . . شيئاً أكثر هشاشة .

- ولكن يا سيدي ، أوكد لك أنها ممحاة جيدة جداً لقلم الرصاص . لقد عبّر زبائننا كلهم عن رضاهم عن هذه النوعية .

يقول فالاس : حسناً ، سأجربها . كم ثمنها ؟

يدفع ثم يغادر . ترافقه إلى الباب . لا ، لم تعد طفلة ، فوركها ، ومشيتها البطيئة ، هما تقريباً لامرأة .

عندما يصبح فالاس في الشارع ، يتلمس آلياً الممحاة الصغيرة بأصابعه ، يحس المرء تماماً من ملمسها أنها لا تساوي شيئاً . على كل حال ، سيكون من المدهش أن نجد في مخزن بهذا التواضع . . . كانت لطيفة تلك الفتاة . . . يخرب بإبهامه قليلاً طرف الممحاة . ليس هذا أبداً ما يبحث عنه .

- ٤ -

عند قيامه بتحريك الملفات التي على مكتبه ، يجد لوران القطعة الصغيرة للممحاة ،

يستنتج فالاس : على أية حال ، لم تجد شيئاً مهماً .

يجيب المفوض العام :

- يمكنك القول : لا شيء

- وماذا تنوي أن تفعل في الوقت الحالي؟

- لا شيء أكثر؛ بما أنها لم تعد قضيتي! يشفع المفوض لوران كلامه بابتسامة حزينة على سبيل السخرية. وبما أن محاوره يصمت، يتابع: كنتُ مخطئاً من دون شك، عندما اعتقدت أنني مسؤول عن الأمن العام في هذه المدينة. فهذه الورقة (ويحرك رسالة بين إصبعين) ترجوني بكلمات واضحة أن أترك للعاصمة مسألة الاهتمام بجريمة ليلة أمس. أنا لا أطلب أفضل من ذلك. وها هو الوزير الآن، كما تقول، أو مكتب تابع له مباشرة على أية حال، يرسلك إلى هنا لمتابعة التحريات، ليس «مكاني»، بل «بمساعدتي». ماذا يمكن أن أستنتج من ذلك؟ سوى أن على هذه المساعدة أن تقتصر على إطلاعك على المعلومات التي أملك - وهذا ما فعلت للتو - وبعد ذلك، تأمين الحماية لك من قبل رجالي عند الحاجة. وبابتسامة جديدة، يضيف لوران:

- سيكون عليك إذن أن تقول لي ماذا ستفعل، إذا لم يكن ذلك سراً بالطبع.

كان المفوض منعزلاً خلف الأوراق التي تملأ المكتب، المرفقان مستندان إلى مسندي المقعد، وراح يفرك يديه الواحدة بالأخرى ببطء، وهو يتحدث، كأنما يحذر، ثم يضعها أمامه، على الأوراق المبعثرة، مباعداً بين أصابعه السمينة والقصيرة إلى أبعد حد، وينتظر الجواب من دون أن يكف عن تفحص زائره. إنه رجل قصير بدين، بوجه زهري، ورأس أصلع. تكاد نبرته الودود أن تكون مصطنعة. يبدأ فالاس:

- أنت تقول إن الشهود...

يرفع لوران في الحال يديه لإيقافه. يقول وهو يضع راحته اليمنى على سبابته اليسرى:

- لا يوجد شهود بالتحديد، إذ لا يمكن البتة أن نطلق اسم شاهد على الطبيب الذي لم يتمكن من إنقاذ حياة الجريح، ولا على خادمة المنزل العجوز الصماء التي لم تر شيئاً على الإطلاق.

- إن الطبيب هو من أخبرك؟

- نعم، اتصل الدكتور جيوار بالشرطة مساء أمس، في حوالي الساعة التاسعة، وقد سجل المفتش الذي تلقى المكالمات تصريحاته - لقد أطلعتك للتو على هذه الشهادة - ثم اتصل بي في المنزل. لقد طلبت في الحال تفتيش المكان.

رفع المفتشون في الطابق الأول من المنزل أربع مجموعات من البصمات الحديثة: بصمات مدبرة المنزل، وثلاث مجموعات أخرى يبدو أنها بصمات رجال. إذا كان صحيحاً أن غريباً لم يصعد إلى الطابق الأول منذ عدة أيام، فهذه البصمات الأخيرة قد تكون (ويعد على أصابعه) أولاً: بصمات الطبيب، خفيفة وقليلة العدد، على درابزين الدرج وفي غرفة نوم دوبون؛ ثانياً: بصمات دوبون نفسه، ونجدها في المنزل كله؛ ثالثاً: بصمات القاتل، عديدة وواضحة جيداً على الدرابزين، وعلى مقبض باب المكتب، وعلى البعض من أثاث هذا المكتب - لاسيما عند مسند الكرسي. هناك مدخلان للمنزل، ونجد بصمة الإبهام الأيمن للطبيب على جرس الباب الأمامي، وبصمة القاتل المفترض على مقبض الباب الخلفي. أنت ترى أنني أعطيك التفاصيل كلها. وأخيراً، تؤكد مدبرة المنزل، من جهة، أن الطبيب دخل من الباب الرئيس، وأنها، من جهة أخرى، وجذت الباب الخلفي مفتوحاً، عندما صعدت لتلبي نداء الجريح، بينما كان الباب موصداً قبل دقائق عدة. إذا أردت، يمكنني أن أطلب رفع بصمات الدكتور جيوار، لمزيد من التأكد. . .

- أعتقد أنه يمكنكم أيضاً رفع بصمات الضحية؟

يجيب لوران بنبرة متكلفة اللطف :

- أي أنه يمكنني إذا أردت ، لو كانت الجثة تحت تصرفي .

وبعد أن لاحظ النظرة المستفسرة لفالاس ، يسأل :

- ألسَ على اطلاع؟ أُخِذَت مني الجثة في الوقت نفسه الذي أُخِذَت مني إدارة التحريات . أعتقد أن ذلك حصل لحساب المؤسسة التي أرسلتك .

يبدو فالاس مندهشاً . هل ستهتم مكاتب أخرى بهذه القضية؟ هذا افتراض يستقبله لوران برضا مؤكد . إنه ينتظر ويداه منبسطتان فوق مكتبه . تتلون تعبيراته العطوفة بالشفقة . يستأنف فالاس :

كنت تقول إن دوبون نادى الخادمة العجوز وهو جريح ، من الطابق الأول ، حتى تمكنت من سماعه على الرغم من صممها ، فلا شك أن دوبون صرخ بقوة . ومع ذلك فإن الطبيب تحدث عنه وكأنه خائر القوى بسبب جرحه ، أي كفاقد الوعي تقريباً .

نعم ، أعلم ، يبدو أن هناك تناقضاً ، ولكن ربما كانت لديه القوة الكافية ليذهب بحثاً عن مسدسه ، ويطلب المساعدة ، ثم فقد الكثير من الدم بينما كان ينتظر سيارة الإسعاف؛ إذ كانت هناك بقعة كبيرة نسبياً أعلى السرير . على أية حال ، لم يكن قد فقد الوعي عند وصول الطبيب ، فقد أخبره أنه لم يميز ملامح المعتدي . ثمة خلط في الخبر الذي نُشر في الصحافة: إذ ذكر أن الجريح لم يستعد وعيه بعد العملية قط . بالمناسبة ، يتوجب عليك - بالتأكيد- أن تذهب لرؤية هذا الطبيب . كما عليك أن تطلب بعض التوضيحات من تلك السيدة ، السيدة . . . (يراجع ورقة الملف) السيدة سميت ، فشرحها كان مشوشاً على الأرجح ، فقد سردت بخاصة ، وبالتفصيل الممل ، جهاز هاتف معطل لا علاقة

له بالقضية، أو على الأقل للوهلة الأولى. لم يلح المحققون مفضلين الانتظار حتى تهدأ، لدرجة أنهم لم يقولوا لها حتى أن رب المنزل مات.

يتوقف الرجلان عن الكلام للحظة. والمحقق هو من يستأنف الكلام، مدلّكاً بدقة سلامات إبهامه.

- أتعلم؟ من الوارد أن يكون قد انتحر. أطلق على نفسه رصاصة - أو أكثر - من دون أن ينجح تماماً في قتل نفسه، ثم غيّر رأيه، كما يحدث في الغالب، وطلب المساعدة، ساعياً إلى تمويه محاولته الفاشلة في الانتحار باعتداء. أو ربما - وسيكون ذلك أكثر تناغماً مع ما نعرفه عن طبعه - حضّر لهذه التمثيلية مسبقاً، ونجح بإحداث جرح مميت تركه يعيش عدة دقائق، لكي يتسنى له إيصال قصة القتل إلى الجمهور. ستقول إنه من الصعب حساب نتائج طلقة مسدسه بدقة؛ قد يكون أطلق على نفسه رصاصة ثانية بينما كانت مدبرة المنزل ذاهبة لاستدعاء الطبيب. كان رجلاً غريباً من نواح عدة.

يشير فالاس: لا شك أنه من الممكن التأكد من صحة هذه الفرضيات من خلال وضعية الطلقات.

- نعم، هذا ممكن في بعض الأحيان. سيكون لدينا أيضاً فحص الرصاصات، والمسدس، والضحية المفترضة. أنا لا أملك شخصياً سوى شهادة الوفاة التي أرسلها الطبيب هذا الصباح؛ إنها الوثيقة الأكيدة الوحيدة في الوقت الحالي. قد تكون البصمات المشتبه بها لأي شخص آخر قدم إلى المنزل خلال النهار، دون أن تعرف مدبرة المنزل. أما بالنسبة إلى الباب الخلفي الذي تحدثت عنه للمفتشين، فربما فتّح بفعل الريح.

- أنت تعتقد فعلاً أن دوبون انتحر؟

- أنا لا أعتقد شيئاً. أرى أن ذلك ليس مستحيلاً ، وفق المعطيات التي بحوزتي . فشهادة الوفاة التي كُتبت بالمناسبة أصولاً ، لا تحتوي على أية إشارة إلى نوع الجرح الذي سبب الموت ، والمعلومات حول هذا الموضوع التي زودنا بها الطبيب والخدمة مساء أمس غامضة ، كما ترى . سيتوجب عليك قبل كل شيء أن توضّح هذه التفاصيل . يمكنك حتى عند اللزوم أن تحصل من الطبيب الشرعي في العاصمة على الإيضاحات الإضافية التي قد تهملك .

يقول فالاس : ستسهّل مساعدتك مهمتي من دون شك .

- يمكنك الاعتماد علي ، سيدي العزيز . ما إن تجد أحداً تريد إيقافه حتى أرسل لك رَجُلين قويين أو ثلاثة . أنتظر بفارغ الصبر اتصالك الهاتفي ، اطلب الرقم ٢٤-١٢٤ ، إنه خط مباشر .

يُعزز وجهه النَّصْر ابتسامة . تمتد اليدان الصغيرتان على المكتب ، الراحتان منبسّطتان والأصابع متباعدة . يكتب فالاس : «ك. لوران ٢٤-١٢٤» . خط مباشر يصله بماذا؟

يقدر فالاس من جديد عزلة حالته .

يبتعد سائقو الدراجات في مجموعات متجهين إلى عملهم ، فيتركونه وحيداً ، مستنداً إلى درابزين ضعيف . يترك بدوره هذا المسند ، ويسير في طريقه عبر شوارع مقفرة ، بالاتجاه الذي اختاره . لا أحد يهتم بمشروعه كما يبدو : إذ تبقى الأبواب مغلقة ، لا وجه يطل من النوافذ لينظر إليه وهو يمر . ومع ذلك ، فإن وجوده في هذه الأماكن ضروري ، ولا أحد غيره يهتم بجريمة القتل تلك . إنها قضيته هو ، وقد طُلِب منه المجيء من بعيد لحلها .

ينظر إليه المحقق ، كعمال هذا الصباح ، بتعجب - وربما بعدائية - ثم

يدير رأسه: سبق أن انتهى دوره فهو لا يستطيع الوصول إلى الطرف الآخر من جدران القرميد، المكان الذي تجري فيه أحداث هذه القصة؛ ولا هدف من خطابه سوى أن يشعر فالاس بشبه استحالة الوصول إليه. لكن فالاس يملك الثقة. فعلى الرغم من أن الصعوبات تبدو للوهلة الأولى أكبر منه - لأنه غريب عن المدينة، ولا يعرف أسرارها و خفاياها - لكنه يعلم أنهم لم يأتوا به إلى هنا من أجل لا شيء: ما إن يجد الحل حتى يتقدم من دون تردد نحو الهدف.

يسأل لتبرئة ذمته: ماذا كنت ستفعل لو تابعت التحريات؟

يجيب المفوض: ليست من دائرة اختصاصي، ولهذا السبب بالتحديد أعفيت منها.

- ما هو إذن دور الشرطة، برأيك؟

يتنصل لوران من المسؤولية بسرعة أكبر.

- نحن نحفظ الأشرار في حدود ما، يحددها القانون بوجه التقريب.

- إذن؟

- وهذا فلت من يدنا، فهو لا ينتمي إلى فئة الأشرار العاديين. أنا أعرف أشرار هذه المدينة كلهم، فهم مسجلون عندنا في بطاقات، وأستطيع توقيفهم عندما ينسون الأعراف التي فرضها عليهم المجتمع. إذا كان أحدهم قد قتل دويون ليهرقه، أو حتى ليتلقى راتباً من حزب سياسي ما، هل تعتقد أننا سنظل نتساءل ما إذا كان في الأمر انتحار، بعد اثنتي عشر ساعة من الجريمة؟

هذه المقاطعة ليست كبيرة جداً، والمخبرون فيها كثير. ليس بوسعنا دائماً أن نمنع الجريمة، وفي بعض الأحيان، يمكن للمجرم أن يلوذ بالفرار، ولكن من

دون استثناء ، يمكننا أن نتبع أثره على الأقل ، بينما نحن هذه المرة وسط بصمات من دون اسم ، وتيارات تفتح الأبواب . لم يفد مخبرونا بشيء . إذا كان الأمر يتعلق ، كما أكدت ، بمنظمة إرهابية ، يجب أن نعتقد أنهم حفظوا أنفسهم من العدوى ، أي أن أيديهم نظيفة ، أنظف من أيدي الشرطة التي لها علاقات وثيقة مع من تراقبهم . فبين رجل الشرطة النزيه والمجرم ، نجد عندنا الوسطاء كلهم ، وعليهم تقوم منظومتنا . لسوء الحظ ، إن طلبة المسدس التي قتلت دويون خرجت من عالم آخر!- أنت تعلم مع ذلك أنه لا توجد جريمة كاملة ، علينا أن نبحث في الخطأ الموجود في مكان ما . البحث أين؟ لا تغالط نفسك يا سيدي: إنه عمل المختصين ، من الواضح أنهم لم يتركوا الكثير للمصادفة ، لكن ما يجعل الأدلة الضعيفة التي نملكها غير نافعة ، هو عدم إمكانية ربطها بأي شيء آخر .

يقول فالاس : إنها الحالة التاسعة .

- نعم ، ولكن أنت توافق أن الآراء السياسية للضحايا وحدها ، وساعة موتهم سمحت بهذا التقارب . بالمقابل ، لست مقتنعاً مثلك بأن لهذا علاقة بالواقع . وحتى لو أننا افترضنا هذا الأمر ، فذلك لن يقدمنا في شيء: بماذا يفيدني ، على سبيل المثال ، أن جريمة قتل ثانية مجهولة ارتكبت هذا المساء في هذه المدينة؟ أما بالنسبة إلى مكاتب الاستخبارات الرئيسية ، فلم يحالفهم الحظ أكثر مني في الوصول إلى نتيجة: إذ لديهم الملفات نفسها والطرق نفسها . لقد أخذوا مني الجثة ، وأنا أتركها لهم بكامل إرادتي ، لاسيما أنك تقول إنهم يملكون ثماني جثث أخرى لا يعرفون ما يفعلون بها . قبل زيارتك ، كان لدي انطباع أن هذه القضية ليست من مهام مكتب الشرطة هذا ، ووجودك هنا أدى إلى إقناعي بذلك .

على الرغم من التحيز المؤكد لمحاورة ، فإن فالاس يتشبث برأيه: بوسعنا أن نسأل أهل الضحية وأصدقاءها . لكن لوران لا يأمل أن يجد شيئاً مفيداً في هذا الاتجاه أيضاً .

يقال إن دوبون كان يعيش حياة منعزلة بين الكتب ومع خادمتها العجوز .
لم يكن يخرج أبداً من منزله ولا يستقبل إلا زيارات نادرة . هل كان له أصدقاء؟...
أما عن أهله فلا نعرف عنهم شيئاً ، ما عدا زوجته . . .

يتعجب فالاس :

– هل كان له زوجة؟ أين كانت وقت وقوع الجريمة؟

– أجهل ذلك . كان دوبون متزوجاً لسنوات عدة فقط؛ من دوله شك لم
تتحمل زوجته التي تصغره بكثير طبعه الانعزالي ، فانفصلا بسرعة . لكنهما كما
يبدو كانا يتقابلان من وقت لآخر . اذهب إذا واسألها عما كانت تفعله مساء أمس
في الساعة السابعة والنصف .

– أنت لا تقول هذا جدياً؟

– بلى ، على العكس تماماً . ولمَ لا؟ فهي تعرف جيداً المنزل وعادات
زوجها السابق ، وبذلك لديها تسهيلات أكثر من الآخرين لكي ترتكب هذه
الجريمة سراً . وبما أن لها الحق في أن تنتظر منه إرثاً مهماً ، فهي أحد الأشخاص
النادرين ، كما أعلم ، الذين لهم مصلحة في موته .

– إذا ، لماذا لم تحدثني عنها قبلاً؟

– كنت تقول لي إن هذه الجريمة سياسية! – يمكن أن يكون لزوجته
علاقة بالأمر .

– بالطبع ، ولمَ لا؟

استعداد المفوض لوران نبرته المرحّة . يقول بنصف ابتسامة :

- ربما تكون مدبرة المنزل من قتله ، وتخيلت هي الباقي كله بتواطؤ من الطبيب جيوار ، الذي سمعته ، لنقل ذلك على سبيل الذكر ، ليست جيدة تماماً .
يشير فالاس : يبدو هذا غير معقول .

- غير معقول على الإطلاق ، لكنك تعلم أن ذلك يجب ألا يوقف الشكوك أبداً .

لا يجد فالاس هذه السخرية لائقة . ومن جهة أخرى ، يفهم أنه لن يحصل على شيء مهم من هذا الموظف الغيور على مهامه ، ولكنه مصمم تماماً على ألا يفعل شيئاً . أهو حقاً لا يبحث سوى عن التملص من هذه القضية؟ أم أنه يرغب بتثبيط همة منافسيه ليقوم وحده بتحرياته الخاصة؟ ينهض فالاس للانصراف ، سيذهب أولاً لرؤية هذا الطبيب . يبين له لوران كيف يمكن أن يلتقي به :

- عيادة جيوار ، شارع كورينته في المبنى رقم ١١ . إنها في الطرف الآخر من مبنى إدارة الشرطة ، ليست بعيدة جداً من هنا .

يقول فالاس : كنت أعتقد أنني قرأت في الصحيفة : «عيادة في الحي»؟

يقوم لوران بحركة تقزز :

- أوه ! الصحف ، أنت تعلم ما هي ! وعلى أية حال هي ليست بعيدة حقاً عن شارع آربانتور .

يدون فالاس العنوان في كراسه الصغير . ويضيف المفوض :

- نعم ، ثمة صحيفة خلطت بين الأسماء وأعلنت عن موت ألبير دوبون ، أحد كبار مستوردي الخشب في المدينة . لا بد أنه فوجئ هذا الصباح عندما قرأ نعوته ! ينهض لوران من مقعده ، يغمز بعينه ليختم الحديث :

- الخلاصة ، لم أرَ الجثة ، ربما كانت جثة ألبير دوبون .

يبدو أن هذه الفكرة تسليه كثيراً ، فجسده المكتنز يهتز كله في ضحكة كبيرة . يتسم فالاس بتهذيب . يستعيد المفوض العام توازنه ، ويمد يده إليه بمودة . يقول :

- إذا بلغني ما هو جديد ، سأعلمك به . في أي فندق نزلت؟

- استأجرت غرفة في مقهى ، شارع آربانتور ، على بعد خطوتين من منزل الضحية .

- حقاً ! من ذلك على هذا المكان؟

- لا أحد ، اكتشفته بالمصادفة . إنه في المبنى رقم ١٠ من الشارع .

- أوجد هاتف؟

- نعم ، أعتقد ذلك .

- حسناً ، سأجده في الدليل ، إذا كان لدي ما أقوله لك .

يشرع لوران بتصفح الدليل بسرعة ، ومن دون انتظار ، وقد بلل سبابته بلعابه .

- آربانتور ، هاهو . رقم ١٠ : مقهى الحلفاء؟

- نعم ، إنه هو .

- هاتف ٢٠٢٠٣ . ولكنه ليس فندقاً .

يقول فالاس : لا ، هم يؤجرون بضع غرف فقط .

يذهب لوران لاختيار سجل على رف ، وبعد دقيقة من البحث العقيم ، يسأل :

- هذا غريب ، إنه غير مرخص ، هل هناك العديد من الغرف؟

يجيب فالاس: لا ، لا أعتقد ذلك . أنت ترى أن رجال الشرطة عندك ليسوا بهذا الكمال! تضيء وجه المفوض العام ابتسامة عريضة . ويقول:

- على العكس ، عليك أن تنظر بإعجاب إلى مصادره: فأول شخص ينام في هذا المقهى يأتي بنفسه ليعلن عن ذلك ، دون أن يترك فرصة لصاحب المقهى!

- لماذا «أول شخص»؟ لنفترض أن القاتل أقام فيه ، ماذا كنت ستعرف عن ذلك؟

- لكان صاحب المقهى أدلى بشهادته ، كما سيفعل لك حقاً . لديه فرصة حتى ظهر هذا اليوم .

يقول فالاس: وإذا لم يقم بذلك .

- حسناً ، في هذه الحال ، يمكننا أن نحیی فطنتك لاكتشافك بهذه السرعة المقهى المفروش السري الوحيد في هذه المدينة . قد يكون هذا سيئاً بالنسبة إليك ، في النتيجة ، لأنك ستكون في النهاية أول مشتبّه به جدي أقابله: فقد وصلت حديثاً ، وتقيم على بعد عشرين متراً من منزل الجريمة ، وكل ذلك من دون علم من الشرطة!

يعترض فالاس: لكنني لم أصل إلى هنا سوى مساء أمس ، في الساعة الحادية عشرة .

- بما أنك لم تُعلم عن وصولك ، أين الدليل؟

- كنتُ لحظة وقوع الجريمة على بعد مئة كيلومتر من هنا ، يمكن التحقق من ذلك .

- هذا مؤكد ! فالقتلة الماهرون يشنون دائماً وجودهم في مكان آخر بعيداً عن الجريمة .

يعود لوران للجلوس خلف مكتبه ويتأمل فالاس بوجه مبتهج ، ثم يسأل فجأة :

- هل لديك مسدس ؟

يجيب فالاس : نعم ، بشكل استثنائي ، أخذت واحداً ، عاملاً بنصيحة رئيسي في العمل .

- ولماذا ؟

- لا يعلم المرء متى يحتاجه .

- صحيح ، لا يعلم المرء . هل أستطيع أن أراه من فضلك ؟

يعطيه فالاس السلاح ، وهو مسدس آلي من عيار ٦٥ ، ٧ مم ، نموذج واسع الانتشار ، أجنبي الصنع . يتفحصه لوران بعناية كبيرة ، بعد أن ينزع عنه مخزن الطلقات .

يقول أخيراً : (من دون النظر إلى فالاس ، وكأنه تعليق بدهي) :

- تنقصه طلقة .

يعيد السلاح إلى صاحبه . وبعدها ، بسرعة كبيرة ، يصلب يديه ، ويعد الراحتين ، تاركاً الأصابع متشابكة ، ثم يقرب من جديد المعصمين ، ويفرك الإبهامين الواحد بالآخر . تفرق اليدان وتنسبط ، وتنثني كل واحدة منهما بفرقة خفيفة ، وتمتد مرة أخرى ، ثم تأتي في النهاية لتتوضع على طاولة المكتب ، منبسطة ، والأصابع متباعدة بانتظام .

يجيب فالاس : نعم ، أعلم .

يعثر المفوض الملفات التي تملأ المكتب ، في بحثه عن مكان للتنقيب عن سجلاته ، فتظهر من جديد قطعة من ممحاة بلون يميل إلى الرمادي ، ممحاة حبر بوجه الاحتمال ، تلمع قليلاً في بعض الأماكن بسبب التلف ، مما يبين نوعيتها السيئة .

-5-

ما إن أغلق الباب حتى عاد المفوض إلى مقعده بخطا وثيدة . يفرك يديه راضياً . إنه إذا «روادوزيه» من أمر برفع الجثة ! إن قصة تأمر كهذه جديرة حقاً بالمخيلة العجيبة لهذا العجوز المسكين .

هاهو ذا منهمك بإطلاق طغمته من رجال الاستخبارات والتحري في أرجاء البلاد ، مثل فايوس العظيم وشركائه .

هل هي جريمة سياسية؟ سيكون ذلك بالتأكيد تفسيراً مناسباً للفشل الذريع لتحرياته . يرى لوران أنه عذر مقنع على أية حال ، لكنه لا يثق كثيراً بنزوع الوزير إلى الكذب ، ويسعده أن يرى آخرين يسلكون هذه الدرب الشائكة . يتخيل من دون مشقة الورطة التي سيقعون فيها: إذ يبدو أولاً أن الرجل الثقة الذي أرسل إلى المكان لم يعلم بالنقل المستعجل للجثة إلى العاصمة ، فكانت دهشته حقيقية . يبدو أنه مفعم بالإرادة القوية ، هذا الرجل فالاس . ولكن ماذا بوسعه أن يفعل بها؟ من جهة أخرى ، ما هي مهمته بالضبط؟ لم يكن ثرثاراً أبداً؛ ماذا يعرف بالتحديد عن هؤلاء «الإرهابيين»؟ لا شيء بوجه الاحتمال ، وله أسبابه ! أم أنه تلقى الأمر بالصمت؟ قد يكون فايوس ، أمهر تحرٍ في أوروبا ، فقد أثبت أن لوران هو من يعمل لحساب العصابة . فيجب أن نتوقع أي شيء من جانب هؤلاء العباقرة .

هم يعملون ، وكان همهم السياسي أولاً أن توقف الشرطة بحثها (كان هذا الأمر الأكثر استعجالاً ، حتى أنهم طلبوا منه أن يغادر المنزل من دون قيد أو شرط ، من دون ختمه بالشمع الأحمر ، أو وضع حارس عليها ، بينما لا تبدو الخادمة العجوز -التي بقيت وحدها هناك- لا تبدو بكامل قواها العقلية) ثم سيتصنعون بعد ذلك أنهم قادمون لطلب رأيه . إذًا ، يتوجب عليهم أن يستمروا في الاستغناء عنه .

يقوم المفوض بتنظيم مكتبه قليلاً ، قبل أن يجلس ، إذ يرتب الحوليات ، ويعيد الأوراق المنفصلة إلى الملف . يعود الملف الذي كُتب عليه «دوبون» إلى النضد اليساري ، أي نضد القضايا المنتهية والمصنفة . يفرك لوران يديه من جديد ، ويتمتم في نفسه : «هذا عظيم !»

ولكن ، بعد ذلك بقليل ، بينما كان ينهي قراءة بريده ، أعلن له الآذن عن زيارة الطبيب جيوار . ماذا يريد هذا أيضاً؟! ألا يمكن أن يتركوه آمناً مع هذه القصة التي من المفترض أنه لا يعنى بها؟

عندما أذن لوران للطبيب بالدخول ، فوجئ بسحنته المتعبة . بدأ الطبيب بالقول بصوت منخفض :

- جئت بخصوص موت المسكين دوبون . أنا الطبيب جيوار .

- ولكن يا دكتور ، قد عملنا معاً مرة من قبل ، إذا لم تخنني ذاكرتي .

- آه ، «عملنا»! يردف الطبيب القصير بنبرة متواضعة . كانت مشاركتي ضعيفة جداً . لم أكن أظن أنك ستذكر ذلك .

يقول المفوض : بذلنا ما بوسعنا من جهد ، يا دكتور .

وبعد صمت قصير ، يستأنف الطبيب ، وكأنما رغماً عنه :

- أرسلت لك شهادة وفاة ، ولكنني فكرت أنك ربما تريد أن تراني . . .

توقف عن الكلام . ونظر لوران إليه بهدوء ، بعد أن وضع يديه على الطاولة ، وبدأ ينقرها بإصبع شاردأ . ونطق أخيراً :

- لكنك أحسنت صنيعاً ، يا دكتور .

- إنه تشجيع صرف . يبدأ الدكتور جيوار بالشعور بالندم لتسرع بدلاً من أن ينتظر بتعقل استدعاء الشرطة له . يسمح نظارته ليكسب بعض الوقت ، ثم يتابع بزفرة :

- ومع ذلك ، لا أدري ما بوسعي أن أقول لك عن هذه الجريمة الغريبة .

إذا لم يكن لديه ما يقول ، فلماذا جاء؟ أراد أن يذهب من نفسه ، بدلاً من أن يبدو وكأنه يخشى الاستجواب . كان يعتقد أنهم سيطرحون عليه أسئلة محددة ، فهيأ نفسه لها ، وهاهم يتركونه يتدبر الأمر وحده ، وكأنه مخطئ .

يسأل المفوض : لماذا «غريبة»؟

لم يجد ذلك غريباً . إن ما يجده الطبيب غريباً هو بقاءه هنا ، وهو يراوغ بجمل جوفاء ، بدلاً من أن يقول ببساطة ما يعرف ، ما يعرف حول أي موضوع . إذ لم يُستدع للشهادة .

يشعر بالخوف ، لاسيما إذا ذهبت الشرطة لتفتيش عيادته ، ولهذا السبب هو هنا .

- أردت أن أقول : جريمة غير عادية؛ إذ لا تحدث جرائم غالباً في مدينتنا .

ومن النادر جداً أن يخترق لص هذه الفيلا المسكونة ، وأن يرتبك لرؤية صاحبها ،
لدرجة يرى نفسه فيها مضطراً لقتله .

ما منع الطبيب من أن يبقى في منزله ، هو أيضاً حاجته لأن يعرف ، أن
يعرف بدقة ما يعرفه الآخرون وما لا يعرفون .

يتعجب لوران: تقول لصاً؟ هل سرق شيئاً؟

- لا ، في حدود معرفتي .

- إذا لم يسرق شيئاً ، فهو ليس لصاً .

يلح الدكتور القصير :

- أنت تلعب بالكلمات ، يا سيدي المفوض ، لا شك أنه كانت لديه النية
في ذلك .

- ها ، «النية» ! ذهبت بعيداً في هذه القضية .

يقرر المفوض لحسن الحظ أن يخرج من صمته ، فيسأل:

- إنها مدبرة المنزل من أخبرك بالأمر ، أليس كذلك؟

- نعم ، إنها السيدة سميت العجوز .

- أليس من الغريب أن تتوجه إلى طبيب نسائي لعلاج رجل جريح؟

- يا إلهي ! سيدي المفوض ، أنا جراح ، وقد قمت بالعديد من هذا النوع
من العمليات أثناء الحرب . دويون يعلم ذلك ، فقد بقينا أصدقاء منذ المدرسة
الإعدادية .

- ها ، كان دانييل دوبون صديقك؟ اعذرني يا دكتور .

يقوم جيوار بإملاء تدل على شيء من الاعتراض :

- دعنا لا نبالغ ، نحن على معرفة منذ زمن بعيد ، هذا كل شيء .

يستأنف لوران :

هل ذهبت وحدك لاستلام الضحية؟

- نعم ، لتجنب إزعاج المريض: فلدي القليل من المستخدمين . لم يكن المسكين دوبون يبدو كأنه مهدد بالموت ، اكتفينا بسنده أنا والسيدة سميت لنزول الدرج . . .

- هل كان بوسعه المشي؟ ألم تقل مساء أمس إنه كان فاقد الوعي؟

- لا يا سيدي المحقق ، لم أقل ذلك بالتأكيد . عندما وصلت ، كان الجريح ينتظرنني في سريره ، وتحدث إلي ، ومع إلحاحه اضطرت إلى نقله من دون نقالة ، كي أضيع أقل وقت ممكن . لكنه أثناء الطريق أصابه الوهن فجأة . كان يؤكد لي حتى تلك اللحظة أنه لا يعاني من شيء خطر ، لكنني علمت عندها أن القلب كان مصاباً . أجريت له عملية جراحية على الفور: كانت الرصاصة مقيمة في جدار البطن ، وكان يمكن أن ينجو ، لكن القلب توقف فجأة بينما كنت أقوم باستخراج الرصاصة ، وذهبت جهودي في إنعاشه كلها سدى .

يتنهد الطبيب بإعياء كبير .

يقول المفوض: ربما السبب في ضعف القلب؟

لكن الطبيب يهز رأسه :

- هذا ليس مؤكداً، إذ يمكن لفرد طبيعي، كغيره، أن يقضي بسبب جرح كهذا. مسألة حظ على الأرجح.

يسأل لوران بعد لحظة من التفكير :

- قل لي يا دكتور، هل يمكنك أن تقول لي ما هي المسافة التي أطلّقت منها الرصاصة تقريباً؟

يرد جيوار بنبرة غامضة :

- خمسة أمتار . . . عشرة أمتار؟ من الصعب إعطاء رقم دقيق.

- على أية حال، يستنتج المفوض، بالنسبة إلى رصاصة أطلقها رجل فارّ، كانت مصوّبة ببراعة.

يقول الطبيب: إن المصادفة . . .

- لم يكن هناك جرح آخر، أليس كذلك؟

- لا، جرح واحد فقط.

يجيب الدكتور جيوار على بضع أسئلة إضافية.

إذا لم يكن قد اتصل بالشرطة على الفور، فذلك لأن هاتف المنزل كان معطلاً، وعندما وصل إلى العيادة، لم تترك له حالة المريض فرصة لذلك. إذ اتصلت به السيدة سميت من المقهى المجاور للمنزل. لا، إنه لا يعرف اسم هذا المقهى. كما يؤكد أيضاً أن الجثة نُقلت في شاحنة للشرطة، وفي النهاية يقدم للمفوض دليل الإثبات الوحيد الذي في حوزته: كرة صغيرة من ورق الحرير . . .

يقول: لقد أحضرت لك الرصاصة .

يشكره لوران . لا شك أن قاضي التحقيق سيحتاج إلى شهادة الطبيب .

يفترق الاثنان بعد تبادل بعض عبارات المجاملة .

يتأمل لوران المخروط المعدني الأسود الصغير ، رصاصة من عيار ٧,٧٥ التي يمكن أن تكون أُطلقت من مسدس فالاس أو من أي سلاح من هذا النموذج .
لو أننا فقط وجدنا فارغ الطلقة .

إن لهذا الدكتور جيوار بالفعل هيئة مريبة .

عندما تعامل لوران معه للمرة الأولى لم يستطع أن يدافع عن نفسه ضد هذا الانطباع: فالجمل المرتبكة للطبيب ، وشروحه المشبوهة ، وتحفظاته أدت إلى افتراض تمثيلية ما بخصوصه . لكنه يرى الآن أن ذلك هو تصرفه الطبيعي .

هل هي نظارته ما يعطيه هذا الشكل المزيف؟ أم هو تهذيبه البالغ وتواضعه؟
تعبيره: «يا سيدي المفوض»؟ لو رآه فايوس لصنّفه من دون تردد من بين المتواطئين ! ألم يحاول لوران ذاته ، غريزياً ، بأسئلته المربكة أن يشوشه أكثر؟ المسكين لم يكن ينقصه ذلك: فالعبارات الأكثر بساطة تأخذ في فمه مظهراً مبهماً .

« كانت مساعدتي ضعيفة جداً . . . »

كيف يُدهش المرء مما يروي الناس عن نشاطه الحرفي؟ ربما هو اليوم متأثر
ب وفاة أحد أصدقائه تحت مبضعه . مات بسبب مرض في القلب ! ولمَ لا؟

« المصادفة . . . »

للمرة الثانية ، تضع المصادفة هذا الطبيب البسيط في وضع محرج . لن

يهدأ لوران تماماً إلا عندما سيستلم تقرير الطبيب الشرعي من العاصمة . فإذا كان دوبون قد انتحر ، يمكن لأخصائي أن يتبين أن الرصاصة أُطلقت عن قرب: لقد لاحظ جوار ذلك ، وهو يسعى ، على سبيل المجاملة ، إلى جعلهم يتبنون فرضية القتل . لقد جاء إلى هنا ليرى التأثير الناتج عن تصريحاته ، إذ يخشى أن تُفضَح الجثة الحقيقية حتى بعد العملية . يبدو أنه يجهل أن الشاحنة الجنائزية نقلته إلى وجهة أخرى .

إنه صديق وفيّ حقاً . ألم يطلب مساء أمس من الصحافة ألا تُحدث ضجة كبيرة حول هذا «الحدث» احتراماً للميت !

وهو ، فضلاً عن ذلك ، لم يكن لديه ما يخشاه: فصحف الصباح لم تتمكن من التقاط سوى ملاحظة قضية عاجلة . أما بالنسبة إلى صحف المساء ، فسيكون لديهم الوقت لتلقي أوامر الجماعة . على الرغم من أن دانييل دوبون كان أستاذاً جامعياً ، ويعيش حيادياً ، إلا أنه كان ينتمي إلى تلك البرجوازية الصناعية والتجارية الكبرى التي لا تحب مطلقاً أن ترى قصة حياتها أو موتها تُناقش في الساحة العامة . ولهذا ، لا توجد أية صحيفة في البلد كله يمكن أن تفخر باستقلالها الكلي عن هذه الطبقة؛ لا سيما في هذه المدينة التابعة للأقاليم التي لا تصدّع في كتلتها القوية . صنّاع سفن ، وورق ، تجار خشب ، وخيوط ، الكل يسير متضامناً للحفاظ على المصالح المشتركة . صحيح أن دوبون كان يدين في كتبه أخطاء نظامهم ، لكنها كانت نصائح أكثر منها هجوماً ، حتى الذين لم يصغوا إليها كانوا يحترمون الأستاذ .

أهي جريمة سياسية؟ هل كان هذا الرجل المنزوي يمارس التأثير الروحي الذي كان ينسبه بعضهم إليه؟ حتى في هذه الحال ، يجب أن يكون المرء من عائلة روا-دوزيه حتى يبنّي مثل هذه السخافات: جريمة قتل كل يوم في الموعد

نفسه . . . لحسن الحظ ، هذه المرة ، لم يصرّح عن هلوساته لرجال الشرطة النظامية . يحتفظ لوران بذكرى سيئة عن آخر نزوة للوزير: لقد ادعى أن كميات كبيرة من الأسئلة والمعدات كانت تُشحن يومياً في المرفأ لحساب منظمة ثورية ، كان يجب إنهاء هذا التهريب من دون تأخير ، وتوقيف المذنبين ! خلال ما يقارب الثلاثة أسابيع ، كانت الشرطة مرهقة في العمل: فالمستودعات تُفتش بدقة ، والسفن تُقلب رأساً على عقب ، والصناديق تُفتح الواحد تلو الآخر ، وكرات القطن تُحل لأن وزنها تجاوز الطبيعي . وقد وجدوا مؤخراً مسدسين غير مرخصين ، وبندقية صيد كان يخفيها مسافر في حقيبة ، حتى لا يدفع الرسوم الجمركية . لم يكن أحد يأخذ المسألة على محمل الجد ، وبعد أيام عدة ، أصبحت الشرطة أضحوكة المدينة .

ليس المفوّض العام مستعداً للخوض من جديد في مغامرة من هذا النوع .

-1-

عند مغادرته لمكاتب الشرطة ، سيطر على فالاس -من جديد- ذلك الإحساس -الفراغ في الذهن الذي عزاه للبرد في بداية الأمر . فكر في هذه اللحظة أن سيره الطويل صباحاً من دون طعام قد يكون له دور في ذلك أيضاً ، لأن وجبة الفطور الخفيفة بعد ذلك لم تكن كافية . فوجد أنه من المفيد أن يتناول وجبة أكبر كي يكون أهلاً للتفكير في عبارات المفوض ، على نحو مثمر ، ولتنظيم أفكاره الخاصة . عندها ، دخل إلى مقهى ، سبق أن شاهده قبل ساعة ، حيث تناول بشهية بيضتين مع قديد الخنزير والحبز الأسمر . وفي الوقت نفسه ، طلب من النادلة أن تشرح له الطريق الأسهل للوصول إلى شارع كورينته . عندما مر أمام التمثال الذي يزين ساحة مبنى الشرطة ، اقترب ليقراً الكتابة المحفورة في الحجر على الوجه الغربي لقاعدة العمود: «دابة الدولة - ف دوليس ، نحات» .

لقد وجد العيادة بسهولة ، لكن الطبيب جيوار كان قد غادر للتو . سألته الممرضة التي استقبلته عن سبب معيئه ، فأجاب إنه يرغب بالحديث إلى الطبيب شخصياً ، فعرضت عليه حينها لقاء السيدة جيوار ، فهي طبيبة أيضاً - كما قالت الممرضة - وهي ما عدا ذلك تدير العيادة . انسحب فالاس بعد أن أعلن أنه لم يأت لغرض طبي . هذا الشرح جعل الممرضة تبسم - من دون سبب ظاهر - لكنها لم تسأله عن شيء آخر . لم تكن تعلم متى سيعود الطبيب ، وأن عليه أن يعود في وقت لاحق ، أو يتصل هاتفياً . وبينما كانت تغلق الباب ، همست عالياً لدرجة يمكن فيها لفالاس أن يسمعها: « كلهم سواء ! » .

عاد إلى الساحة ، ودار حول مبنى الشرطة يمينا ، عازماً الوصول إلى الشارع الدائري الكبير من جهة شارع آربانتور ، لكنه ضل في متاهة الشوارع الصغيرة ، حيث أرغمته الانعطافات المفاجئة والمنحنيات على قطع طريق أطول من الضروري .

بعد أن اجتاز القناة ، وصل أخيراً إلى حي معروف: شارع برابان وبيوت الآجر البارز لتجار الخشب . كان يهيمن على انتباهه أثناء هذا المسير كله حرصه على المحافظة على الاتجاه الصحيح ؛ وعندما اجتاز الشارع الطويل ، وجد نفسه أمام المنزل الصغير المحاط بشجر المضاض ، فبدا له فجأة كئيباً ، بينما فوجئ ، على العكس ، صباحاً بمظهره المتأنق . حاول أن يطرد هذه الأفكار غير المعقولة ، التي عزاها للتعب ، وقرر منذ ذلك الوقت استخدام القطار لتنقلاته .

لاحظ في تلك اللحظة أن ذهنه كان منذ ما يقارب نصف الساعة مشغولاً بسحنة الممرضة وخبرتها: مهذبة ، لكنها مليئة بالمعاني المسترة . كانت تبدو تقريباً وكأنها تفترض أن فالاس كان يبحث عن طبيب متسامح - يعلم الله لأية مسألة .

يسير فالاس على طول السياج ، خلف الباب الحديدي المشبك ، ويتوقف

أمام الباب ، حيث يراقب لدقيقة واجهة المنزل . ثمة نافذتان في الطابق الأرضي ، وثلاث في الطابق الأول ، إحداها (النافذة اليسارية) نصف مفتوحة .

على العكس مما كان يرتقب ، لا جرس إنذار يرن عند اختراقه الحديقة . يغلق الباب المشبك ، يجتاز مستديرة من حصي ، ويصعد درجات السلم الأربع . يضغط على زر الجرس ، يجيبه جرس بعيد . وسط الباب المصنوع من خشب السنديان المطلي ، توجد فتحة مستطيلة مزودة بزجاج يحمي زخارف حديدية: شيء يشبه بتلات الورود المتشابكة ، بأوراق طويلة ورقيقة . . . يمكن لهذه الأشكال أن تمثل دخاناً أيضاً .

وبعد عدة لحظات ، يرن فالاس الجرس من جديد ، وبما أن لا أحد يفتح له ، يسترق النظر عبر منظار الباب ، لكنه لا يتمكن من تمييز شيء من الداخل . حينها يرفع رأسه نحو نوافذ الطابق الأول . عند نافذة اليسار امرأة عجوز تقف منحنية لدرجة تسمح لها برؤيته .

تصرخ عندما ترى أنها كُشِفَتْ :

- من تريد؟ لا أحد هنا . الأفضل لك أن ترحل يا ولدي .

كانت نبرتها جافة ومتشككة ، لكنه ، على الرغم من كل شيء ، شعر بإمكانية ملاطفتها . يتخذ فالاس هيئته الودودة :

- السيدة سميت ، أليس كذلك؟

- ماذا تقول؟

- أليس السيدة سميت؟

تجيب هذه المرة وكأنها فهمت منذ مدة طويلة :

- أجل ، نعم ! وماذا تريد من السيدة سميت؟

تضيف بصوت حاد ومن دون انتظار:

- إذا كان ذلك من أجل الهاتف ، أفضّل أن أقول لك إنك وصلت متأخراً ،
يا ولدي ، لم يعد هناك أحد! - لا يا سيدتي ، لا علاقة للهاتف بالأمر . أود أن
أحدثك . . .

- لا وقت لدي للحديث ، فانا أحضّر حقائبي .

وكان فالاس أصيب بالعدوى ، فأخذ يصرخ بقوة مثلها .

يلح: اسمعي يا سيدة سميت ، لن أطلب منك سوى بعض المعلومات
الصغيرة .

تبدو المرأة العجوز وكأنها لم تقرر بعد استقباله . يتراجع عند عتبة الباب ،
كي يسمح لها بأن تتفحصه كما تشاء: يعمل مظهره المناسب لصالحه بالتأكيد .
بالفعل ، تعلن مدبرة المنزل في النهاية ، قبل أن تختفي في غرفتها:

- لا أفهم شيئاً مما تقول ، يا ولدي . سأنزل .

لكن لحظة طويلة تمر ولا شيء يُذكر يحدث . يكاد فالاس أن ينادي ،
خشية أن تكون العجوز قد نسيت ، بينما يُفتَح فجأة زجاج منظار الباب من دون
أن يُسمع أدنى صوت في الممر ، ويظهر وجه المرأة العجوز ملتصقاً بالشبك .

- إذاً ، الأمر متعلق بالهاتف ، أليس كذلك؟ تصرخ بإصرار (من دون أن
تخفض من صوتها ، مع أنها الآن على بعد خمسين سنتيمتراً من مُحاورها) .
نحن ننتظرك منذ أسبوع ، يا بني ! أنت لست قادماً من مصح ، على الأقل ، مثل
الآخر الذي أتى مساء أمس؟

يشعر فالاس ببعض الحيرة . يستأنف معتقداً أنها تلمح للعيادة: مررت بها، ولكن . . .

قاطعته المرأة في الحال ، ساخطة:

- ماذا؟ ألا يوجد في هذا البريد سوى المجانين ! لا شك أنك تسكعت في المقاهي كلها، قبل أن تأتي؟

يحافظ فالاس على هدوئه . لقد فهم من لوران أن المرأة تقول أحياناً أشياء غريبة ، لكنه لم يكن يعتقد أنها مخبولة إلى هذا الحد . يجب أن يشرح لها القضية بهدوء ، متلفظاً بالكلمات بوضوح حتى تتمكن من استيعابها :

- اسمعي يا سيدتي ، أنت مخطئة . . .

لكن فالاس يتذكر فجأةً المقهيين اللذين دخلهما هذا الصباح ، بالإضافة إلى المقهى الذي نام فيه؛ إنها أحداث لا يمكنه نكرانها، مع أنه لا يفهم لماذا يلومونه على ذلك . أما ما يخص البريد، فهو يشعر بثقة أكبر - فقد سأل عن موقع البريد الرئيس ، لكنه لم يدخل إليه - على كل حال ، إذ لم يكن بوسعه ذلك ، لأنه وجد الباب مغلقاً . . .

ثم ، سيشعر بالارتباك لهذه الاتهامات السخيفة؟ يستأنف :

- إنه سوء فهم ، لست قادماً من البريد . (بوسعه أن يؤكد هذا على الأقل ، من دون اعتبارات أخرى)

- إذن ، ماذا تشرح ، يا بني؟ (يجيب الوجه المتشكك .)

لن يكون الاستجواب سهلاً، في هذه الظروف ! من المحتمل أن مقتل رب المنزل أُخِل بعقل الخادمة .

- أوكد لك أنني لم آت من أجل الهاتف . (يكرر فالاس وهو يقسر نفسه على الصبر .)

تعلن السيدة: أتعلم ، لست بحاجة لأن تصرخ هكذا بقوة ، لست صماء ! (من الملاحظ أنها تقرأ الشفاه)

- وإذا لم يكن الأمر متعلق بالهاتف ، فلا داعي للحديث عنه .

يفضل فالاس ألا يعود إلى الموضوع ، فيشرح باختصار الهدف من زيارته . ولد هشته يوضح لها من دون مشقة ، فتقبل السيدة إدخاله إلى المنزل . ولكن بدلاً من أن تفتح له الباب ، تبقى خلف الشبك الذي يغطي نصف وجهها ، وهي تراقبه . عبر الفتحة الصغيرة للزجاج الذي همت في إغلاقه ، تقول أخيراً ، بنبرة لوم (ألم يكن عليه أن يعلم ذلك منذ زمن طويل ؟) :

- لا يمكننا أن ندخل من هذا الباب ، يا ولدي ، فهو صعب الاستخدام . بوسعك أن تدور حول المنزل وتدخل من الباب الخلفي .

ثم يُقفل منظار الباب بحركة مفاجئة . يحس فالاس بالنظر يتبعه في عتمة الرواق ، وهو ينزل الدرجات متجهاً نحو ممر الحصى .

ومع ذلك ، فإن العجوز آنا تسارع بخطا حثيثة نحو المطبخ . يبدو هذا الرجل أحسن تهديداً من الاثنين اللذين قدما ليلة أمس ، بوجهيهما المحمرّين وحذاءيهما الضخمين .

لقد دخلا إلى كل مكان ليقوما بالأعيهما ، حتى إنهما لم يصفيا لما كان

يُقال لهما . لا بد أنها فحصتهما عن قرب ، خوفاً من أن يسرقا شيئاً ، فسحتتاها لا توحيان بالثقة . ربما هما متواطئان جاءا يبحثان عن ما لم يتمكن اللص من سرقة ، وهو في ذروة عمله . لكن هذا يبدو أقل حنكة ، فهو يضيع في الكثير من المحسوبات التي لا جدوى منها ، قبل أن يصل إلى وقائع الأمور؛ لكنه أكثر تهدياً ، بالتأكيد . كان السيد دويون يفضل دائماً أن يدخل الناس من الباب الأمامي ، مع أن مزلاجه شديد التعقيد . وما عليهم اليوم سوى القيام بدورة حول المنزل ، بعد أن مات .

يصل فالاس إلى ذلك الباب الزجاجي الصغير الذي حدثه عنه المفوض . ينقر على المربعات الزجاجية بسبابته المثنية . بعد اختفاء المدبرة العجوز من جديد ، يحاول أن يدير قبضة الباب ، لأن الباب لم يكن مقفلاً . يدفع المصراع الذي يصر عند محوره ، كما في منزل مهجور - أو ربما مسكون بالأشباح - حيث تسبب كل حركة طيراً بومة أو خفاش . ولكن ، ما من رفرة أجنحة تعكر الصمت ، بعد أن أغلق المصراع ثانية . يقوم فالاس بوضع خطوات مترددة ، ينزلق بصره الذي اعتاد على الضوء الضعيف على ديكورات الجدران الخشبية ، والزخرفات المعقدة ، وعمود النحاس الذي يتصدر عتبة الدرج ، والسجاد ، أي كل ما من شأنه أن يميز زينة البيت البرجوازي في بداية القرن العشرين .

ينتفض فالاس عند سماعه فجأة صوت السيدة سميت تناديه من نهاية الممر . يستدير فيلمح القمة التي أخذت تنزع عن زجاج الباب الصغير . لوهلة ، ينتابه شعور بأنه وقع في فخ .

تُدخله السيدة إلى المطبخ ، وهو مطبخ لا حياة فيه ، إذ يشبه نموذجاً مجسماً: فرن نظيف تماماً ، طلاء جدران رائع ، سلسلة من قدور النحاس الأحمر مصطفة على الجدار ، معلقة لدرجة لا يجروء المرء على استخدامها . ما من إشارة تدل

على تحضير يومي لوجبات . فالأدوات النادرة غير الآمنة في الخزائن ، تبدو كأنها مثبتة على الرفوف إلى الأبد .

تبدو السيدة العجوز بلباسها الأسود ، أنيقة تقريباً ، على الرغم من خفيها المصنوعين من الفلين ؛ إنها التفصيلة الوحيدة التي تُبين حكماً أنها في بيتها ، لا في زيارة لمنزل شاغر . تطلب من فالاس الجلوس أمامها ، وتبدأ مباشرة :

- يا لها من قصة!

لكن صوتها المرتفع ، بدلاً من أن يبدو متأثراً ، أخذ يرن مثل هتاف أخرق على منصة مسرح . نكاد نقسم الآن أن صف القدور مرسوم مثل حيلة على الجدار . لم يعد موت دانييل دوبون سوى حدث غامض تتحدث عنه تماثيل عرض .

تصرخ مدبرة المنزل بشدة لدرجة يرجع فيها فالاس بكرسيه عدة سنتيمترات:

- لقد مات ، أليس كذلك؟

يحاول مسبقاً تحضير جملة تعزية ، لكنها ، ومن دون أن تترك له الوقت ليخرجها ، تتابع منحنية قليلاً نحوه :

- إذاً ، سأقول لك ، يا ولدي ، أنا سأقول لك مَنْ قتله! - أنت تعلمين من قتل دوبون ، (يدهش فالاس .)

إنه الدكتور جيوار ! ذلك الطبيب ذو الوجه الماكر الذي خرجتُ أنا بنفسني للاتصال به ، لأن - صحيح نسيت أن أقول لك - خط الهاتف كان مقطوعاً هنا .

- نعم ! منذ أول أمس . . . لا ، قبل ذلك أيضاً ، لم أعد أتقن العد الآن .
اليوم هو . . . الاثنين . . .

يصحح لها فالاس باستحياء: الثلاثاء .

– ماذا قلت؟

يكرر فالاس: اليوم هو الثلاثاء .

تحرك شفتيها وهي تنظر إليه يتحدث ، ثم تحملق بعينين مرتابتين . لكنها تتجاوز ذلك ، إذ لا بد من تقديم تنازلات صغيرة لأطفال عنيدين .

– حسناً ، لنقل الثلاثاء . إذاً ، كنت أقول لك إن الهاتف لا يعمل منذ . . .
يوم الأحد ، السبت ، الجمعة . . .

يقاطع فالاس: تقولين يا سيدتي إن الدكتور جيوار هو من قتل دانييل
دوبون؟

– بالطبع قلت ذلك ، يا بني ! أضف إلى ذلك أن الكل يعلم أنه قاتل ،
ليس عليك سوى أن تسأل أيّاً كان في الشارع . آه ، اشعر بالندم الآن لأنني
لم أقنع السيد دوبون ، إذ كان يريد بكل قواه أن يكون هذا طبيبه . أتعلم؟
كانت لديه أفكاره ، ولم يكن يهتم أبداً لرأيي فيها . على كل حال ، يجب
أن نقبل الناس كما هم؛ لن أبدأ الآن بالحديث عن السيد دوبون بالسوء . . .
كنت هنا أنظف الأطباق بعد العشاء ، عندما سمعته يناديني من الطابق الأول ،
فرايت عند مروري أن الباب قد فُتح ، ذلك الذي دخلت منه للتو . كان السيد
دوبون على قرص الدرج ، أتعلم كيف؟ حياً ! كانت ذراعه اليسرى فقط
معطوفة على صدره ، وكان هناك بعض الدم على يده . وفي اليد الأخرى كان
يحمل مسدساً . وجدت صعوبة بالغة في نزع بقع الدم الصغيرة التي تركها على
السجادة ، وأنفقت ساعتين على الأقل في تنظيف غطاء السرير حيث وجدته
ممدداً عندما عدت – عندما عدت بعد اتصالي بالهاتف – أتعلم؟ إن بقعاً مثل هذه

لا تذهب بسهولة ، لحسن الحظ أنه لم ينزف كثيراً . قال لي : «إنه جرح بسيط في الذراع ، لا تقلقي ، لا شيء خطير» . كنت أود أن أعالجه بنفسي ، لكنه تركني فهو عنيد ، كما قلت لك ، وكان علي أن أذهب لأستدعي هذا الطبيب المتعس ، الذي نقله بالسيارة . لم يكن يرغب حتى في أن يسنده أحد لينزل الدرج ! لكنني عندما وصلت إلى العيادة ، في ذلك الصباح الباكر ، كي أحمل له بعض الملابس ، فهمت في الحال أنه مات .

«سكتة قلبية» ، كما قال لي هذا المجهض ! ولم يكن عندها ، يا ولدي ، فخوراً جداً . لم ألح ، ومع ذلك أريد أن أعلم من هو القاتل إذا لم يكن هو ! كان على السيد دوبون ، ولو لمرة واحدة ، أن يصغي إلي . . .

إنها تقريباً نبرة النصر تعلو في صوت المرأة العجوز . من المحتمل أن رب المنزل كان يمنعها من الحديث ، لئلا تصم أذنيه بهذا الصوت المرعب ، واليوم هي تسعى لتعويض ذلك .

يحاول فالاس أن ينظم هذا التدفق من العبارات . يبدو أن السيدة سميت قلقت لبقع الدم التي كان عليها أن تنظفها أكثر من جرح رب المنزل . لم تتحقق ما إذا كانت الذراع هي حقاً المصابة: على كل حال لم يدعها دوبون تنظر إليه عن قرب ، والدم الذي على يده لا يثبت شيئاً مهماً . كان مصاباً في صدره ولم يشأ أن يخيف خادمته بتصريح ذلك . حتى إنه كي يخدعها ، نجح في أن يقف على قدميه ويسير حتى سيارة الإسعاف ، ربما كان هذا الجهد الذي قتله . على أية حال ، لم يكن على الطبيب أن يسمح له بذلك . إنه من يجب أن حتماً يُستجوب .

«عيادة جيوار . طبيب نسائي . توليد»

المرضة التي فتحت له الباب ، لم تدعه يدخل ، بقيت عند فتحة الباب ،

متأهبة لإغلاقه من جديد: وكأنها حارس يخشى أن يقتحم المدخل غريب ،
لكنها كانت في الوقت نفسه تلح عليه بالبقاء :

- ما الأمر يا سيدي؟

- كنت أرغب بالتحدث إلى الطبيب

- السيدة جيوار في المكتب ، إنها من يستقبل الزبائن دائماً .

- ولكنني لست زبوناً . يجب أن أقابل الطبيب شخصياً

- السيدة جيوار طيبة أيضاً ، يا سيدي ، إنها مديرة العيادة ، وهي
بالضرورة على اطلاع على كل . . .

وعندما قال لها ، لإنهاء الحديث ، إنه لم يكن بحاجة إلى خدمات العيادة ،
صمتت وكأنها حصلت على مبتغاه ، ونظرت إليه بابتسامة فوقية غامضة ، لمن
كان يعرف تماماً ، ومنذ البداية ، ما كان يبحث عنه . اتخذ تهذيها شكلاً من
الوقاحة :

- لا يا سيدي ، لم يقل متى سيعود . . . ألا تريد أن تترك اسمك؟

- لا داعي لذلك ، فاسمي لن يعني له شيئاً .

كان قد سمع بوضوح: « كلهم متشابهون ! »

- . . . ما قاله ، هذا المجهض . . . ؟

على موكيت الممر ، في الطابق الأول ، تراه السيدة العجوز الآثار التي
تكاد لا ترى ، لخمسة أو ست بقع من شيء ما . يسأل فالاس فيما إذا كان
المفتشون الذين جاؤوا في الليلة الفائتة مساءً ، حملوا معهم مسدس الضحية .

بالطبع لا ! تصيح السيدة سميت . أنت لا تعتقد أنني تركت هذين الرجلين
يفرغان المنزل؟ وضعت المسدس في الدرج . فقد يكون ما زال بحاجة إليه .

عبر فالاس عن رغبته برؤية المسدس ، فقادته السيدة إلى غرفة النوم: إنها
حجرة كبيرة إلى حد ما ، ذات الرفاهية البعيدة عن الموضة نفسها التي يتمتع بها
باقي المنزل ، منجّدة كلها بالبسط ، والستائر ، والسجاد . صمت مطبق يخيم
على هذا الجناح ، حيث هبئ كل شيء لخلق أقل ضجيج .

هل كان ذوبون أيضاً يرتدي خفين من الفلين؟ كيف كان يتصرف
ليحدث إلى تلك الخادمة الصماء دون أن يرفع صوته؟ إنها العادة دون شك .
يستنتج فالاس أن غطاء السرير تم تغييره ، أيمن أن يكون نُظف تماماً إلى هذا
الحد؛ فكل شيء نظيف ومرتب تماماً وكأن شيئاً لم يحدث .

تفتح السيدة سميت درج الطاولة الصغيرة قرب السرير في غرفة النوم ،
وتقدم لفالاس مسدساً عرفه من النظرة الأولى: إنه من النموذج الذي يحمله ،
وهو ليس لعبة طفل ، بل سلاح قوي للدفاع عن النفس . ينزع عنه مخزن الطلقات
فيلاحظ أن طلقة واحدة خرجت منه .

– هل أطلق السيد ذوبون النار على الهارب؟

يتساءل فالاس مع أنه يعرف الجواب مسبقاً ، فعندما عاد السيد ذوبون مع
مسدسه ، كان القاتل قد اختفى .

يود فالاس أن يعرض المسدس على المفوض لوران ، لكن مديرة المنزل
تردد في إعطائه له ، ثم توافق ، مع هزة من الكتفين:

– خذه يا ولدي . فمن سيستخدمه الآن؟

- إنه ليس هدية ، بل دليل إثبات ، أفهمين؟

- خذه ، أقول لك ، بما أنك مصرّ على ذلك .

- ألا تعلمين ما إذا كان رب المنزل استخدمه من قبل ، لشيء آخر؟

- ولماذا تريد أن يكون استخدمه ، يا ولدي؟ لم يكن السيد دوبون من النوع الذي يطلق العيارات النارية في المنزل ليتسلى . لا ، لحسن الحظ ! كانت للسيد دوبون عيوبه ، لكنه . . .

يضع فالاس المسدس في جيب معطفه .

ترك الخادمة زائرها ، إذ لم يعد لديها ما تخبره: طبع رب المنزل الصعب ، صعوبة غسل بقع الدم ، الطيب المجرم ، الإهمال الذي يخيم في شركة الهواتف . . . لقد كررت ذلك كله مرات عدة ، ويتوجب عليها الآن أن تنتهي من حزم حقائبها لتلا تفوت قطار الساعة الثانية بعد الظهر ، الذي سيقودها إلى ابنتها . ليس الطقس جميلاً للذهاب إلى الريف ، ومع ذلك عليها أن تسرع . ينظر فالاس إلى ساعة يده: ما زالت متوقفة عند الساعة والنصف . في غرفة دوبون ، على المدفأة ، كانت ساعة الحائط البرونزية بين الشمعدانين الخاليين من الشموع ، متوقفة أيضاً .

تدعن السيدة سميت لإلحاح الشرطي ، فتقر بأن عليها أن تترك مفاتيح المنزل للشرطة ، تعطيه مفتاح الباب الزجاجي الصغير من دون طيب خاطر . يغلق فالاس الباب بنفسه وهو خارج . أما الخادمة فتخرج من الباب الأمامي الذي تملك مفاتيحه أيضاً . أما بالنسبة إلى الحاجز الشبكي للحديقة ، فقفله معطل منذ مدة طويلة .

يبقى فالاس وحيداً في المكتب . كان دوبون يعيش في هذه الغرفة الصغيرة ،

لم يكن يخرج منها إلا للنوم ولتناول الطعام ، ظهراً وفي الساعة مساء . يقترب فالاس من طاولة المكتب ، يبدو أن المفتشين لم يحركوا شيئاً: على المكتب تمتد الورقة البيضاء التي لم يكتب عليها دويون سوى أربع كلمات: «لا يمكنهم أن يمتنعوا . . .» « . . . الموت» بالتأكيد . إنها الكلمة التي كان يبحث عنها ، عندما نزل لتناول العشاء .

الفصل الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

- ١ -

إنه حقاً صوت خطوات ، خطوات على السلم تقترب: أحدهم يصعد السلم . أحدهم يصعد ببطء ، لا: بهدوء ، ربما بحذر؟

مستنداً إلى الدرايزين ، كما يبدو ، شخص يلتقط أنفاسه في الصعود الشاق ، أو هو متعب لأنه جاء من مكان بعيد . إنها خطوة رجل ، لكنها خطوة حذرة ، يختنق أغلبها في السجاد ، مما يعطيها أحياناً نفحة سرية ، أو وجلة .

لن يستمر هذا الانطباع ، مع ذلك . نتعرف عن قرب إلى خطوات محددة ، ربما من دون تمويه: خطوة رجل يعرف ما يريد ، يصعد بهدوء .

أما الدرجات الثلاث الأخيرة فتجتاز بكثير من البأس ، بسرعة من دون شك لبلوغ قرص الدرج . الرجل الآن أمام الباب؛ يتوقف لحظة ليستعيد أنفاسه . . .

(. . . قرع ، ثلاث ضربات سريعة . . .)

لكنه لا ينتظر أكثر من عدة ثواني ، ويبدأ بصعود الطابق التالي . تبعد الخطوات إلى أعلى المبنى .

لم يكن غاريناتي .

إنها العاشرة ليلاً مع ذلك: كان على جاريناتاتي أن يصل . كان عليه أن يكون هنا منذ حوالي دقيقة؛ وهذا كثير جداً . هذه الخطوات على السلالم ، كان من المفروض أن تكون له .

إنه يصعد بهذه الطريقة تقريباً ، لكنه يحدث ضجة أقل ، مع أنه يضع قدمه بثبات أكبر ، درجة بعد درجة ، دون أي افتراض آخر .

لا ! من المستحيل أن نخلط طويلاً بين جاريناتي وهذا التخيل: منذ هذا المساء يجب أن يحل آخر مكانه للقيام بهذه المهمة . يجب أن يوضع على الحياد ، وأن يُراقب لبضعة أيام ، على الأقل ؛ ربما يمكننا بعد ذلك أن نكلفه بمهمة جديدة ، من دون مخاطرة تُذكر .

كان يبدو متعباً منذ عدة أيام؛ إذ شكّا من آلام في الرأس ، ومرة أو مرتين فلتت منه أقوال غريبة .

بدا صعباً للغاية ، خلال اللقاء الأخير؛ قلقاً ، نزقاً ، مستفسراً باستمرار عن تفاصيل لم يعد لها أهمية منذ زمن بعيد ، وقد قدّم ، فوق كل ذلك ، في مناسبات عدة ، اعتراضات غير معقولة تماماً ، وغضب لرفضها بسرعة .

لقد تأثر عمله بذلك: لم يمت دانييل دوبون على الفور - إذ تؤكد التقارير كلها هذا الأمر - لا أهمية لذلك بما أنه مات على أية حال - كذلك «من دون أن يستعيد وعيه» . ولكن ثمة شيء شاذ بالنسبة إلى الخطة: لم يمت دوبون حقاً في الساعة المحددة . مما لا شك فيه أن عصبية جاريناتي المبالغة هي السبب . كما أنه لم يأت في الموعد المرتقب . كان متأخراً في الصباح ، على الرغم من الاستدعاء المكتوب . ليس هو الرجل ذاته حتماً .

جان بونافانتور - المدعو «بونا» - جالس على كرسي حديقة ، وسط حجرة فارغة . توجد بالقرب منه حقيبة أوراق ممددة على أرضية الغرفة . إنها أرضية من خشب الصنوبر ، لا تُميّز فيها أية علامة فارقة ، ما عدا الإهمال الواضح في النظافة . أما الجدران فهي مكسوة بقماش في حالة جيدة ، إذا لم يكن جديداً؛ إذ

تزهـر طاقـات صغـيرة مـتعددة الألوان موزعة (بالتساوي) على الورق الرمادي .
السقف نفسه مطلي بالدهان حديثاً ، وفي الوسط ، مصباح كهربائي يتدلى في
طرف خيطه .

تضيء نافذة مربعة المكان من دون ستائر ، تضيء المكان . ثمة بابان ،
كلاهما مفتوح على مصراعيه ، يطل الأول على غرفة مظلمة ، والثاني على ممر
صغير يقود إلى باب مدخل المنزل . لا يوجد أي أثاث في هذه الغرفة ، إذا استثنينا
الكرسيين المطويين حديثاً ، المطليين بالأخضر الغامق ، كما هي العادة . بونا جالس
على أحدهما ، والآخر الواقع أمامه ، على بعد مترين تقريباً ، مازال شاغراً .

يرتدي بونا لباس المنزل . حتى أن معطفه الواقى من المطر مزرر كلياً حتى
الياقة ، ويدها مكسوتان بقفازين ، وقد بقيت القبعة على رأسه .

إنه ينتظر ، جامداً ، مستقيماً ، على هذا الكرسي غير المريح ، اليدان
المتشابكتان على الركبتين ، والقدمان المسمرتان على الأرض لا تدل على نفاذ
صبر . ينظر أمامه ، إلى البقع الصغيرة التي تركها المطر على غبار النافذة ، ووراء
ذلك ، فوق الواجهة الزجاجية الضخمة المزركة للمشاعل التي تقع على الطرف
الثاني من الشارع ، المباني غير النظامية للضواحي ، ملبدة ، تميل نحو أفق فضي
محمّل بمداخن المدفآت وأبراج الكهرباء .

يبدو هذا المشهد في الأوقات العادية قليل العمق ، وخالٍ من الجاذبية غالباً ؛
لكن الشمس بلونها الرمادي المصفر في الثلج تمنحه هذا الصباح ، تمنحه أبعاداً
غير عادية . تظهر بعض الحدود ، وأخرى تختفي ؛ فضاءات تتعمق هنا وهناك ،
وتنبثق كتل غير متوقعة ، ينتظم الكل في سلسلة من السطوح المقطعة ، حيث
يبدو الناتئ وقد تعرض فجأة للضوء ، وكأنه يفقد عفويته ، وربما واقعيته . وكأن
هذا الوضع الكبير لا يمكن أن يتحقق إلا في الرسم .

تأثرت المسافات إلى حد كبير حتى أصبح من الصعب التعرف إليها، لكنه من الصعب علينا أن نقول بدقة إلى أي اتجاه تحولت: امتدت، أو ربما تقلصت - أم الاثنين معاً - إلا إذا كانت قد اكتسبت صفة جديدة لا تمت بصلة إلى الهندسة . . . هكذا يحدث أحياناً للمدن الضائعة التي أثقلتها الكوارث قروناً عديدة - أو ربما فقط لبضع ثوانٍ قبل الانهيار، رفة عين، مثل تردد بين الحياة وبين ما يحمل سابقاً اسماً آخر: بعد، أو قبل، الأبدية.

ينظر بونا. بعين هادئة. يتأمل عمله. ينتظر.

لقد أوقع لتوه المدينة في ذهول. مات دانييل دوبون، ليلة أمس مقتولاً. هذا المساء، في الساعة نفسها، جريمة مماثلة ستكون صدى لهذه الفضيحة، مُخرجةً في النهاية الشرطة من روتينها، والصحافة من صمتها.

زرعت المنظمة القلق في جهات البلاد كلها، خلال أسبوع، لكن السلطات ما زالت تدعي أنها أعمال لا رابط بينها، وحوادث لا أهمية لها. لا بد أن يحدث هذا التطابق غير الممكن الذي يتهياً لإثارة الرعب.

يصغي بونا. تتوقف الخطأ أمام بابه.

ضمت. لا أحد.

تُسمع الإشارة المتفق عليها خفة، لكن بوضوح، . . . دقة متميزة، ثلاث دقات سريعة، تكاد لا تُدرَك، دقة واضحة . . .

- لتتوقف عن الحديث عن ذلك، بما أن كل شيء تعدل. لكن جاريناتي لا يفهم جيداً معنى هذه العبارات، يلح: يعاود الكرة، وهذه المرة سيبلغ هدفه. أخيراً يفلت منه الاعتراف: سيطفئ النور، إذا كان هذا الاحتياط ضرورياً، مع أنه، من ناحية أخرى . . .

يسأل بونا: - ألم تُطفئِ النور؟

- لم أتمكن من ذلك . فقد صعد دوبون باكراً جداً . كدت لا أجد الوقت للتعرف إلى الأشياء من حولي .

- ومع ذلك فقد رأيته ينزل ، ثم صعدت على الفور؟

- كان لا بد أن أنتظر أيضاً أن تغادر الخادمة العجوز المطبخ .

لا يقول بونا شيئاً . جاريناتي مذنب أكثر مما كان يعتقد . إنه الخوف الذي أربك تصرفاته ، كما يربك حالياً جملة :

- صعدت فوراً . لم يكن جائعاً من دون شك . لم أستطع كذلك أن أرى في الظلمة . لكنني عاودت الكرّة ، وهذه المرة . . .

يتوقف ، مترقباً إشارة تشجيع على الوجه رئيسه العابس . لماذا تخلى هذا فجأة عن المخاطبة من دون تكليف التي كان يستخدمها منذ عدة أيام؟ إن التفصيـلة الغبية المتعلقة بالقاطع الكهربائي ليست سوى ذريعة . . .

يقول بونا: - كان عليك أن تُطفئِ النور

- سأعود وأطفئِ النور . سأذهب هذا المساء .

- هذا المساء ، لم يعد الأمر يخصك! - بل هي قضيتي . يتوجب عليّ أن أنهي العمل الذي بدأت .

- أنت تهذي ، جاريناتي . ماذا تقول؟

- سأعود إلى المنزل . أو ربما أبحث عنه في مكان آخر إذا كان مختبئاً . سأجده وأقتله .

يتوقف بونا عن ترقب الأفق ، ليتفحص محدثه :

- أنت تقول حقاً أنك ستذهب الآن لقتل دانييل دوبون .

- أقسم بذلك! - لا تقسم ، جاريناتي: فات الأوان .

- لم يفت . . .

- لم يفت الأوان . فالحدث الذي لم يتم يعود بنفسه على نقطة البداية إلى

فرصة ثانية . . .

ويكرر المحكوم عليه حركته المسرحية ، خلال دورة ساعة كاملة ، مشيراً
من جديد إلى صدره: «سددوا إلى القلب ، أيها الجنود!» ومن جديد . . .

يسأل بونا: - ألا تقرأ الصحف؟

ينحني للبحث عن شيء داخل محفظته . يتناول جاريناتي الورقة المطوية
الممدودة إليه ، ويقرأ مقطعاً من دون تعيين :

«سارق جريء تسلل أمس عند هبوط الليل . . .»

يقرأ ببطء ، بانتباه ، وعندما يصل إلى النهاية ، يعود إلى البداية ليتأكد من
أنه لم ينس شيئاً: «سارق جريء . . .»

يرفع بصره نحو بونا الذي كان ينظر إلى مكان آخر ، عالياً من دون
ابتسامة .

يقرأ جاريناتي المقال مرة أخرى . يقول بصوت منخفض :

- مات ، بالتأكيد . كنت قد أطفأت النور .

- دعك ، هذا الرجل مجنون .

يقول جاريناتي : - إنه خطأ من دون شك ؛ فأنا سببت له جرحاً فقط .

- مات بسببه . أنت محظوظ .

- ربما هذه الصحيفة مخطئة؟

- اطمئن : لدي مخبرون خصوصيون .

مات دانييل دوبون ، متأخراً قليلاً ، على أية حال .

يضيف بونا بجفاء أقل ، بعد صمت قصير :

- ومع ذلك فأنت من قتله .

يقولها ، وكأنما يرمي بعظمة إلى كلب .

يحاول جاريناتي أن يحصل على بعض الشرح؛ فهو لم يقتنع ، يريد أن يعرض مخاوفه . لكن رئيسه يمل بسرعة من «دون شك» و«ربما» التي يستخدمها هذا الرجل الضعيف :

- هذا يكفي ، إذا سمحت

- لتتوقف عن الحديث في ذلك ، بما أن كل شيء تعدل .

- هل وجدت المدعو فالاس؟

- أعلم أين أمضى الليل .

- ماذا يفعل هذا الصباح؟

- هذا الصباح ، كان يتوجب . . .

- هل تركته يهرب . ولم تجد له أثراً؟

- كان عليّ أن آتي إلى هنا و . . .

- وصلت متأخراً . على كل حال كان أمامك ساعات عدة . والآن أين تتوقع أن تجده؟ ومتى؟

لا يعرف جاريناتي بم يجيب .

يتفحصه بونا بشدة:

- كان يتوجب عليك أن تأتي كي تطلعي على الأمر منذ مساء أمس .
لماذا لم أرك؟

كان يود أن يشرح سبب إخفاقه ، النور ، والوقت الذي لم يكن كافياً . . .
لكن بونا لا يترك له الفرصة ، إذ يقاطعه بقسوة .

- لماذا لم تأت؟

إنه ما كان جاريناتي ينوي الحديث عنه تماماً ، ولكن كيف يمكن أن نشرح الأشياء لشخص لا يريد أن يصغي؟ ولكن يجب البدء بذلك النور الذي كان سبب كل شيء: أضواء دوبون النور مبكراً جداً واكتشفه قبل أن يطلق النار ، حتى إنه لم . . .

- وهذا الرجل فالاس الذي أرسلوه إلينا ، ماذا فعل منذ وصوله؟

يعرض جاريناتي ما يعرف: غرفة مقهى «الحلفاء» ، شارع آربانتور ،
المغادرة صباحاً باكراً . . .

- تركته يهرب . ولم تعثر له على أثر؟

هذا ليس عدلاً ، بالطبع : لا شيء يجعل المرء يتربص بمغادرة مبكرة كهذه ، وليس من السهل على الإطلاق أن نعثر على شخص لم نره أبداً في مدينة بهذا الاتساع .

وما الفائدة أيضاً من مراقبة هذا الشرطي الذي لا يمكنه أن يفعل شيئاً أكثر من الآخرين؟ أليس من الأفضل أن نهتم بعمل هذا المساء؟ لكن بونا يبدو متحفظاً ، ويفتعل تجاهل الأمر . ويتابع جاريناتي مع ذلك حديثه: يريد أن يصلح خطاه ، فيعود إلى منزل دانييل دوبون ويقتله .

يبدو بونا مندهشاً . يتوقف عن التحديق في الأفق ، ليتفحص وجه محدثه ، ثم ينحني نحو محفظته ، يفتحها ويسحب منها ورقة مطوية :

- ألا تقرأ الصحف؟

يمد جاريناتي يده من دون أن يفهم .

خطواته نفسها تغيرت: إنها متعبة ، ضعيفة تقريباً؛ إذ فقدت محتواها . يضعف صوتها شيئاً فشيئاً على السلم .

ثمة رجلان ، بعيداً جداً ، ربما من منظفي المداخل ، أو من بنائي السقوف ، يهيطان القدوم المبكر للشتاء ، يرتديان لباساً رمادياً يميل إلى الزرقة من لون المداخل والسقوف نفسه ، يختلطان بها ، على الرغم من تحركات خفيفة يصعب فهم معناها بسبب المسافة .

نسمع ، في الطابق الأرضي ، باب البناية يُغلق .

يُصَفَّق مزلاج الباب عائداً إلى مكانه ، ويضرب أحد مصراعيه في الوقت نفسه بثقل الإطار ، فتتهتز الكتلة الخشبية محدثة ضوضاء ، مخلقة صدى غير متوقع في الدعامات ، وفي الإطارات الجانبية . ولكن ، ما إن يبدأ هذا الصخب حتى يهدأ فجأة ، وفي هدوء الشارع نميز حينها صغيراً خفيفاً - كرشق من البخار ، رقيق ومستمر - قادم من دون شك من الورشات المقابلة ، لكنه يذوب تماماً في الهواء لدرجة لا يمكن معها بكل دقة لأي مصدر محدد أن يُنسب إليه ، إلى حد نتساءل معه - في نهاية المطاف - ما إذا كان الأمر ليس سوى طنين بسيط في الأذن غالباً .

يبقى جاريناتي متردداً ، أمام الباب الذي أغلقه للتو . لا يدري أي اتجاه سيسلك في هذا الشارع الذي يوجد وسطه ، والذي ، أوله مثل آخره . . . كيف يستطيع بونا أن يكون متأكداً تماماً من موت دانييل دوبون؟ إذ لم يكن الموضوع قابلاً للنقاش أصلاً . ومع ذلك ، فالخطأ - أو الكذب - في صحف هذا الصباح يمكن أن يُشرَح بسهولة ، وبطرق عدة .

فلا أحد يكتفي بهذا النوع من المعلومات ، في قضية بهذه الجدية . ومن البدهي أن بونا قد حصل على المعلومات بنفسه أو بوساطة رجال ذوي ثقة . و يعلم جاريناتي ، من ناحية أخرى ، أن ضحيته لم تبدُ مصابة بجرح قاتل ، وأنها على أية حال لم تفقد الوعي على الفور ، والاحتمال ضعيف أن تكون فقدته قبل وصول الإسعاف : إذاً ، هل أخطأ الرجال ذوو الثقة؟ ربما ثقة بونا ليست دائماً كافية . . .

يضع جاريناتي يده على أذنه اليمنى ، ليسد مجراها ويحرره بالتناوب ، عدة مرات ، ثم يعاود الكرة مع الأذن الأخرى . . .

لكن تيقن رئيسه لا يمكن ألا يربكه ، كما أنه ليس من المؤكد على الإطلاق
عدم إصابة الأستاذ في ذراعه ، فقد أصيب هذا في مقتل ، ومشى خطوات عدة
ليترجع بعدها ، تقوده غريزة البقاء ، ثم تهاوى في مكان مجاور . . .

يغلق جاريتاتي من جديد الأذنين ليطرد هذا الضجيج المزعج .

يقوم بذلك هذه المرة بكلتا يديه ، إذ يقيهما دقيقة تلتصقان على نحو عازل
على طرفي الرأس .

كان الصغير قد اختفى ، عندما رفعهما . يبدأ بالمشي بحذر ، وكأنه يخشى
أن يبعثه من جديد بحركات نشيطة جداً . ربما يقدم له فالاس حل اللغز . ألا
ينبغي عليه - على أية حال - أن يعثر عليه؟ لقد تلقى الأمر بذلك . وهذا ما عليه
القيام به .

ولكن أين يبحث عنه؟ وكيف يتعرف إليه؟ فهو لا يملك أي وصف له ،
والمدينة كبيرة .

يقرر على الأقل أن يتوجه نحو مركز المدينة ، مما يضطره لأن يعود
أدراجه .

وبعد خطوات عدة ، يجد نفسه من جديد أمام المبنى الذي خرج منه للتو .
يرفع يده نحو أذنه بانزعاج : إذاً ، لن تتوقف هذه الآلة الجهنمية أبداً؟

- ٣ -

يسمع فالاس ، بعد أن استدار قليلاً ، مزلاج الباب يعود إلى مكانه ، يترك
قبضة الباب ويرفع بصره نحو البيت المقابل . يتعرف مباشرة من خلال نافذة من

الطابق الثاني ، على الستارة نفسها المطرزة التي لاحظها مرات عدة خلال نزهته الصباحية . لا يعقل أن يكون صحيحاً جداً أن نجعل وليداً يرضع هكذا من أثناء الحملان : فهذا يخالف تماماً قواعد الصحة . يلاحظ فالاس حركة ، خلف الغرزات المرخية للشبكة ، ويتبين قامة ، أحدهم يراقبه ، ولما علم أنه كُشف ، انتقل بهدوء إلى الغرفة المعتمة ليكون في مأمن من النظرات . وبعد ثوان عدة ، لم يعد في إطار النافذة سوى راعين ينحنيان بعناية على جسم وليد .

يتقدم فالاس على طول سياج الحديقة باتجاه الجسر ، متسائلاً ما إذا كان علينا أن نتوقع وجود مستأجر واحد على الأقل ينظر إلى الشارع ، في بناء ضخم مثل هذا الذي يسكنه البرجوازيون . خمسة طوابق ، شقتان في كل واحد منها على الواجهة الجنوبية ، إضافة إلى الطابق الأرضي . . . ولكي يقدر العدد المحتمل للمستأجرين ، يلقي نظرة إلى الخلف ، فيرى أن الستارة المطرزة تُغلق ، لقد أُسدلت كي تفسح المجال للمراقبة بارتياح . لو بقي هذا الشخص مراقباً خلال ليلة الأمس ، لكان شاهداً ثميناً . ولكن ما الذي يثير فضولاً يدفع إلى المراقبة ، بعد هبوط الليل ، ذهاب وجيئة أحد المارين المثير للجدل؟ يجب أن يكون لديه سبب وجيه - أن يكون ثمة صرخة ، أو صوت غريب شذ انبناه . . . أو أي شيء آخر .

يفتش فاييوس ما حول الحديقة ، بعد أن أغلق بابها؛ لكنه لا يترك أي أثر: إنه عنصر شركة تأمين هادئ، يخرج من بيت زبون ، فينظر إلى السماء ذات اليمين وذات اليسار ، ليعرف من أين تأتي الريح . . . مباشرة ، يلاحظ شخصاً مريباً يراقبه خلف الستائر ، عند تقاطع الطابق الثاني .

يدير بصره في الحال كي يتجنب لفت الانتباه ، ويتجه بخطا حيادية نحو الشارع العريض . ولكنه ، ما إن يجتاز الجسر حتى يياشر إلى اليمين سيراً متعرجاً

يقوده إلى الشارع الدائري ، بعد حوالي ساعة؛ من دون إضاعة للوقت ، يعبر القناة بفضل جسر ضيق يجده أمامه في ذلك المكان . ثم يسير بحذر على طول المنازل ، ليعود إلى نقطة الانطلاق أمام المبنى الواقع على زاوية شارع «آربانتور» .

يدخله بثقة عبر الباب المطل على القناة ، ثم يطرق الباب على مسكن البوابة . إنه منزل يتألف من ستائر معدنية ومظلات واقية من الشمس . يريد أن يرى قائمة أسماء المستأجرين الذين تطل نوافذهم على الجنوب ، مما يعرضهم كثيراً لاجتياح الشمس: ورق الجدران مصفر ، صور مستهلكة ، ستائر قضي عليها ، وهناك ما هو أسوأ أيضاً: يعرف كل واحد منهم لوحات المشاهير تلك التي تشظي فجأة بصوت مشووم ، وصور القدامى التي تصاب بالحوادث ، مولدة داخل العائلة انطباعات بالاضطراب ، نتائج الحتمية عدم الرضا ، وسوء المزاج ، والنزاعات ، والمرض ، والموت . . .

تشير البوابة بوضوح إلى أن الشتاء قادم الآن .

لا بأس ، ففابيوس يعلم ذلك تماماً ، لكنه يجهز حملته للربيع ، كما أن شمس الشتاء التي لا نحذرنا عادة ، هي التي يجب أن نخشاها أكثر! يتسم فالاس لهذه الفكرة . يجتاز الشارع ويصل إلى الطريق . أمام المدخل الرئيس للبناء رجل ضخيم بصدارة زرقاء ووجه ساكن وبشوش ، ينظف القبضة النحاسية للباب ، إنه البواب من دون شك . يدير الرجل رأسه نحو فالاس الذي يرد عليه بإشارة مجاملة . يقول الرجل وهو يغمز بعين خبيثة :

- إذا كنت تشعر بالبرد ، ما زال هناك الجرس الذي يحتاج للتلميع .

يضحك فالاس بود .

- سأتركه لك ليوم الغد ، ستحتاجه: إذ يبدو أن الأيام الجميلة ولت .

- إن الشتاء قادم الآن ، يجيب البواب كالصدي ، ثم يعاود التلميع بشدة .

لكن فالاس يريد أن يستفيد من الوضع المبتهج لهذا الرجل ليفتح حديثاً معه :
- قل لي ، أنت تسكن أيضاً في الجناح الآخر من المبنى ، أليس كذلك ؟
- نعم بالتأكيد ! أعتقد أنني لست ضخماً بما فيه الكفاية لأعتني بجرسين ؟

- لا ، ليس الأمر كذلك ، لكنني أظن أنني تعرفت إلى وجه صديقة قديمة
لأمي ، خلف أحد الشبايك . أود أن أذهب لألقي عليها التحية إذا تأكدت أنني
لست مخطئاً . إنه الطابق الثاني ، الشقة الأخيرة . . .
- السيدة باكس ، يسأل البواب .

- نعم : السيدة باكس ! إنها هي إذن .
- طريف كيف تحصل الأمور . في الأمس كنا نتحدث عنها ونحن على
المائدة ، كنا نتساءل ماذا حل بها .
لكن السيدة باكس ليست مسنة . . .

- لا ، لا ! ليست مسنة على الإطلاق . عندما قلت «صديقة قديمة» لم
أكن أتحدث عن عمرها . أعتقد أنني سأصعد ، لا أظن أنها مشغولة كثيراً ؟
- السيدة باكس ؟ إنها دائماً مسررة إلى النافذة تنظر إلى الخارج ! على
العكس ، ستسرها رؤيتك .

يفتح الرجل الباب على مصراعيه ، من دون انتظار ، ثم يختفي بحركة
احتفالية لطيفة :

- يمكنك المرور من هنا، أيها الأمير، فالأمر سواء، السلّمان يلتقيان .
الباب رقم ٢٤ في الطابق الثاني .

يشكره فالاس ويدخل . ويتبعه البواب ، ويغلق الباب داخلاً إلى مسكنه .
لقد أنهى عمله . سيلّمع الجرس في يوم آخر .

تستقبل فالاس سيدة ذات عمر غير محدد - ربما ما زالت شابة بالفعل
- والتي لا تبدي أي اندهاش من هذه الزيارة ، على العكس مما كنا نخشى .

يحدثها فقط ، وهو يريها بطاقته الخاصة بالشرطة ، عن الضرورة التي تقتضيها
قضية صعبة مما يضطره إلى استجواب ، من دون تعيين سكان الحي كلهم الذين
يمكن أن يزودونا بأقل دليل . تُدخله السيدة إلى صالة مكتظة بالأثاث ، مفروشة
وفق الموضة القديمة ، من دون أن تطرح أي سؤال ، وتشير له إلى مقعد قماشي .
تجلس أمامه ، على بعد ما ، تنتظر ، ويدها متشابكتان ، محدقة به بجدية .

يتحدث فالاس: جريمة ارتكبت مساء أمس في المنزل الخاص ، تماماً في
الجهة المقابلة . . .

وبوجه ملائم ، تُظهر السيدة باكس اهتماماً مفاجئاً قليلاً - وقلقاً .

- ألا تقرئين الصحف؟ يسأل فالاس .

- لا ، نادراً .

تقول ذلك وهي توجه له ، ابتسامة صغيرة حزينة تقريباً ، وكأنها عامة لا
تستطيع الحصول على صحيفة ، أو ليس لديها الوقت لقراءتها . صوتها يتناسب
وصورة وجهها ، ناعم وذابل . فالاس علاقة قديمة جاء يزورها في يوم ، بعد
غياب طويل ، يعلن لها موت صديق مشترك ، تحزن لفقدانه بلا مبالاة ذات نبرة
حسنة . إنها الخامسة بعد الظهر . بعد ذلك ستقدم له فنجاناً من الشاي .

تقول: - إنها قصة مثيرة للشفقة حقاً .

ولأن فالاس ليس هنا لتقبّل التعازي ، يسألها بالتحديد ما إذا كانت
وضعية نافذتها سمحت لها برؤية شيء أو سماع شيء .

تجيب: - لا ، لم ألاحظ شيئاً .

هي تأسف لذلك كثيراً .

ألم تفاجئي على الأقل أحد المتسكعين ، أو أشخاص بهيئة مربيةٍ يمكنها
أن تعطي مواصفاتهم: مارّ ، على سبيل المثال ، كان ينظر بانتباه غير عادي إلى
الجنّاح؟

- ها ! يا سيدي ، لا أحد يمر أبداً في هذا الشارع . على الشارع العريض ،
نعم ، يمر العديد من الناس ، في أوقات معينة ، يسرون بسرعة ثم يختفون
مباشرة . لا أحد يأتي إلى هنا .

يقول فالاس: - ومع ذلك ، لا بد أن أحداً جاء إلى هنا مساء أمس .

- أمس . . . نشعر أنها تبحث في ذكرياتها . كان يوم الاثنين؟

- أول أمس أيضاً ، أو حتى الأسبوع الماضي؛ لأنه يبدو أن العملية جهزت
مسبقاً . الهاتف ، على وجه الخصوص ، كان خارج الخدمة: قد يكون ذلك
مُفتَعلاً .

- لا ، تقول بعد لحظة من التفكير ، لم ألاحظ شيئاً .

رجل بمعطف واقٍ من المطر ، مساء أمس ، خرّب شيئاً في سياج المدخل .
كان من الصعب رؤيته جيداً بسبب هبوط الليل . توقف عند حدود شجيرات

المضاض ، أخرج من جيبه شيئاً صغيراً قد يكون ملقظاً ، أو مبرداً ، ثم مد ذراعه سريعاً عبر القضيبين الأخيرين ليصل إلى أعلى الباب ، في الداخل . . . لم يستغرق الأمر نصف دقيقة: سحب يده ، ثم تابع على الفور طريقه ، بالخطا غير المبالية نفسها .

وبما أن تلك المرأة تؤكد أنها لم ترَ شيئاً ، يهيمُ فالاس نفسه ليستأذن بالانصراف . قد يكون بالفعل من الغريب أن توجد المرأة خلف نافذتها في اللحظة المناسبة . على أية حال ، عند التفكير ، هذه اللحظة المناسبة ، هل وُجدت فعلاً؟ من غير المحتمل أن يكون القتل جأؤوا إلى هنا ، في وضح النهار ، ليقوموا باستعداداتهم للهجوم؛ تحضيراً للمكان ، أو صنعَ مفتاح بديل ، أو إحداث أخايد في الحديقة لقطع خط الهاتف .

ما يتوجب فعله ، قبل كل شيء ، هو سماع شهادة الدكتور جيوار . وبعد ذلك ، إذا لم نجد أي درب في هذا الاتجاه حصراً ، وإذا لم يطلع المفوض على شيء جديد ، يمكننا أن نستجوب مستأجرين آخرين في المبنى . يجب ألا نهمل أية فرصة صغيرة . بانتظار ذلك ، سنطلب من السيدة باكس ألا تذكر أمام البواب القصة الخيالية التي استُخدمت ذريعةً للقائها .

يطرح فالاس سؤالين أو ثلاثة لتمديد هذه الهدنة بعض الشيء ، قبل معاودة التجول؛ يعرض فيها على السيدة أصوات مختلفة قد تكون ترددت على سمعها ، يذكر لها: طليقة مسدس ، خطوات سريعة على الحصى ، باب يُصفق ، محرك سيارة . . . لكنها تهز رأسها وتقول بابتسامتها الطريفة:

- لا تكثر من ذكر التفاصيل ، لأنك ستدفعني إلى اعتقاد أنني حضرت الدراما كلها .

رجل بمعطف واقٍ من المطر - مساء أمس - فعل شيئاً ما على الباب ، ومنذ هذا الصباح ، لم نعد نسمع عند فتحه صرير الجرس الآلي . أمس ، رجل . . . من دون شك ستقوم أخيراً بالإفصاح عن سرها . كما أنها لا تعلم تماماً ما الذي يمنعها من ذلك .

يحاول فالاس منذ بداية الحديث أن يسألها بتهذيب ما إذا كانت بقيت طويلاً على نافذتها في الأيام الأخيرة . ينهض أخيراً . «أتسمحين؟» يقترب من النافذة ، ففي هذه الغرفة بالذات رأى الستارة تتحرك . يعيد الآن تشكيل الصورة التي لم تعد تبدو ذاتها وهي في مكانها ، وبهذا القرب . يرفع القماش ليرى على نحو أفضل .

يبدو له الجناح من هذه الزاوية الجديدة ، وسط حديقته الدقيقة ، كأنه معزول بوساطة عدسة أداة بصرية . يفرق بصره في المداخل العالية ، في السقف الأردوازي - الذي يدل في هذه المنطقة على نوع من الحذقة - إلى واجهة الآجر المحاطة في الزوايا بقضبان من الحجر المنحوت ، التي تذكر بها الأجزاء العلوية البارزة للنوافذ ، وقنطرة الباب والدرجات الأربع للمدخل . إلى الأسفل ، لا يمكننا أن نقدر حق تقدير انسجام النسب ، والصرامة ، وضرورة هذا الكل الذي لا يعكر بساطته شيء - كما يقال - أو يظهرها على العكس ، بوساطة الحدادة المعقدة للشرفات . يحاول فالاس أن ينظم رسماً ما لهذه الانحناءات المتداخلة ، فيسمع خلفه صوتاً ملولاً برقة يعلن شيئاً كأنه من دون معنى ولا علاقة له بالموضوع :

مساء أمس ، رجل بمعطف واقٍ . . .

في البداية ، ، لم يصدق فالاس جدية تذكّر متأخّر مثل هذا . يتوجه مرتبكاً إلى محدّثه : ما زالت تحمل الوجه نفسه الهادئ جداً ، وهيئتها المتسمة بالوهن المذهب . تستمر المحادثة بنبرة المجاملة ذاتها .

كان يتعجب خفية؛ لأن السيدة الشابة أكدت في مناسبات عدة أنها لم تلاحظ شيئاً، كما تجيب أن المرء يتردد دائماً قبل أن يسلم رجلاً ما للشرطة، ولكن بما أنه قاتل، تسكن مخاوفها.

يبقى الشرح الأكثر احتمالاً: تخفي السيدة باكس خلف مظهرها الهادئ الكثير من التخيل. لكنها يبدو أنها حذرت هذه الفكرة؛ وكى تعطي وزناً لشهادتها، تشير إلى أن شخصاً آخر على الأقل رأى القاتل، قبل أن يبلغ هذا الأخير الشارع الكبير، رجل من الواضح أنه ثمل، خرج من المقهى الصغير - على بعد عشرين متراً يساراً- ومشى بالاتجاه نفسه وهو يترنح قليلاً؛ كان يغني، أو يحدث نفسه بصوت عال. استدار قليلاً، فصرخ الثمل في وجهه، محاولاً المشي أسرع للإمساك به، لكن الآخر تابع طريقه نحو الجسر، من دون الانتباه إليه.

كانت السيدة باكس لسوء الحظ عاجزة عن تزويده بوصف أكثر تفصيلاً للشخص: رجل بمعطف واق، وقبعة طرية بلون فاتح. أما عن رفيق دربه المرتجل، فهي تعتقد أنها قابلته تكراراً في الحي، وهي ترى أنه لا بدّ معروف في أماكن الشرب كلها في المناطق المحيطة.

يعبر فالاس بعد أن يخرج من العمارة من الباب الثاني، الواقع في شارع «آربانتور»، الرصيف ليتفحص باب السياج ويتأكد من أن جهاز الإنذار نزع على نحو يمنع التماس أثناء الفتح. نُفذ هذا العمل بالذراع، مما يدل على قوة عضلية لا مثيل لها.

لاحظ مرة أخرى، عندما رفع رأسه، خلف حلقات الستارة المطرزة قامة السيدة باكس.

- صباح الخير

يقولها فالاس وهو يغلق الباب .

لا يجيب رئيسه في العمل .

إنه ساكن في مركز عمله . يستند جذعه الثقيل على ذراعيه الممدودتين ، المتباعدتين كلياً ، ويده معلقتان بطرف المكتب ، كمن يريد أن يمنع الجسم من الوثب إلى الأمام ، ومن الوقوع . كانت الرقبة القصيرة أصلاً تختفي تماماً بين الكتفين المرفوعتين ، ينحني الرأس ، مهدداً تقريباً ، والفم ملتو قليلاً ، والنظرة جامدة .

يقول فالاس ، فقط ليقول شيئاً :

- الطقس بارد هذا الصباح

يقترّب من المدفأة الحديدية ، ذات الهيئة الأقل تجهماً من كلب الحراسة هذا ، المحبوس توتخياً للحذر خلف مشربه . يمد يديه نحو المعدن المشتعل . من الأفضل له من دون شك أن يتوجه إلى مكان آخر ليحصل على المعلومة التي يبحث عنها . عندها يتحدث من الخلف ، بصوت ثمل ، ولكن مليء بالنوايا الحسنة .

لم تكن الحجرة مضاءة جيداً ، ومدفأة الخشب التي لا تعمل جيداً عند هطول الثلج ، تثقل الهواء بضباب مزرق . لم يلاحظ فالاس الرجل وهو يدخل . إنه مسرّع إلى الطاولة في عمق الغرفة ، زبون وحيد ، سعيد لأنه وجد أخيراً من يحدثه . يتوجب عليه أن يعرف ، هو نفسه ، ذلك الثمل الآخر الذي ذكرته السيدة باكس بوصفه ضمناً . لكنه ينظر الآن إلى فالاس ، وهو يفتح فمه ، ليلفظ بشيء من الحقد الثقيل :

- لماذا لم تكن تريد الحديث أمس؟

- أنا؟ يسأل فالاس متفاجئاً.

- ها، تظن إذا أنني لم أعرفك؟

يتساءل الرجل متعجباً، يتحرك وجهه بتكشيرة مضحكة، يستدير نحو المكتب، ويكرر :

- يظن أنني لا أعرفه! لم يتحرك صاحب المقهى ، وعيناه جامدتان .

يسأل فالاس: - هل تعرفني؟

- أنت يا صاح ! ختى أنني أجذك مهذباً جداً . . .

يحصي أصابعه باهتمام . . كان ذلك بالأمس .

يقول فالاس: ها ، لا بد أن في ذلك خطأ .

يصرخ السكير متوجهاً إلى صاحب المقهى :

- يقول إن في ذلك خطأ . أنا ، خطأ! ثم ينفجر في ضحك صاحبه .

ما إن هدأ قليلاً حتى استفسر فالاس كي يدخل في اللعبة :

- أين كان ذلك؟ وكم كانت الساعة؟

- ماذا؟ الساعة ، لا تسألني عن ذلك!- أنا لا أعرف كم الساعة

أبداً . . . لم يكن الليل قد هبط . وكان ذلك هناك ، عندما خرجت ، هناك . . . هناك . . .

ترتفع نبرة صوته مع كل لفظة «هناك»، وفي الوقت نفسه ينفذ الرجل بذراعه اليمنى حركات كبيرة غير محددة باتجاه الباب. ثم يهدأ فجأة فيضيف بصوت منخفض تقريباً، وكأنما يحدث نفسه:

— أين تريد أن يكون؟

يأس فالاس من الحصول على معلومات منه؛ ومع ذلك فإن الطقس اللطيف للقاءة مازال يمنعه من المغادرة. لذا يجلس إلى طاولة مجاورة.

— أمس، في تلك الساعة، كنت على بعد أكثر من مئة كيلومتر من هنا...

ويعاود المفوض فرك راحتي يديه ببطء؛ الواحدة بالأخرى:

— بالتأكيد! ألا يثبت القتلة الكبار دائماً أماكن وجودهم وقت الجريمة؟

تأتي اليدان المكتنزان — بابتسامة راضية — لتلتصقان بالطاولة، والأصابع منفرجة...

يسأل السكير: — في أي ساعة كان ذلك؟

— في الساعة التي ذكرت

يصرخ السكير بصوت ظافر:

— إيه! تماماً، أنا لم أذكر الساعة!

— ادفع طلبات هذه الجولة.

يفكر فالاس: يا لها من لعبة. لكنه لا يتردد.

يلقي صاحب المقهى الآن عليه نظرة متشككة.

يختم السكير بعد برهة من الوقت يمضيها في التفكير الدؤوب :

- هذا كله خطأ .

يراقب فالاس ، ثم يضيف باحتقار :

- أنت لا تملك حتى سيارة .

يقول فالاس : - جئت بالقطار .

يقول السكير : _ ها ! يفارقه مرحة ، فيبدو متعباً بسبب الحديث .

ومع ذلك فهو يفسر لصاحب المقهى ، ولكن بنبرة كثيبة تماماً :

- يقول إنه جاء بالقطار .

لا يجيب صاحب المقهى ، فقد غير وضعيته ، فأصبح رأسه مرفوعاً ،
ويداه متدليتان ، يرى أنه يستعد للقيام بعمل ما . بالفعل ، يمسك خرقة ويمررها
ثلاث مرات على أعلى المنضدة .

يعاود السكير بصعوبة :

- ما هو الفرق . . . ما هو الفرق بين السكك الحديدية . . . السكك
الحديدية وزجاجة النبيذ الأبيض ؟

إنه يحدث كأسه . وعلى نحو آلي ، يحاول فالاس أن يجد الفرق .

- إذاً؟ يطلقها فجأة جاره متشجعاً بنصر قادم .

يقول فالاس : - لا أدري .

- إذاً ، بالنسبة إليك ، لا فرق؟ أسمع يا معلمي ، هو يرى أنه لا يوجد أي فرق!

- أنا لم أقل ذلك .

يصرخ السكير: بلى ! المعلم هنا ليشهد بذلك .

أنت قلتها . ادفع طلبات هذه الجولة! يقر فالاس : - سأدفع هذه الجولة .
يا معلم أعطنا كأسين من النبيذ الأبيض .

- كأسان من النبيذ الأبيض! يكرر رفيقه الذي استعاد مزاجه الحسن تماماً .

يجيب صاحب المقهى: - لا تتعب نفسك ، لست أصماً .

أفرغ السكير كأسه بجرعة واحدة . يبدأ فالاس بشرب كأسه . إنه يتعجب لشعوره بالراحة في هذا المقهى القذر . فهل السبب طقسه المعتدل فقط؟ إذ يخترق جسده شعور بالارتياح المخدر ، بعد الهواء البارد للشارع . يشعر فالاس بنفسه مليئاً بالرفق لهذا المتسول الثمل ، ولصاحب المقهى نفسه مع أنه لا يشجع على التعاطف؛ فصاحب المقهى في واقع الأمر لا يرفع بصره عن زبونه ، وهو يدي رية فيه لدرجة تدفع فالاس إلى الارتباك . ويستدير على الرغم من كل شيء نحو هاوي الأحاجي ، لكن النبيذ الذي امتصه هذا الأخير لتوه أغرقه من جديد في تأملات كثيفة . يسأل فالاس ، أملأ منه في فك تجاعيد تجهمه :

- إذاً ، ماذا كان الفرق؟

- الفرق؟

يدو السكير متجهماً تماماً هذه المرة . الفرق بين ماذا؟

- بين السكك الحديدية والزجاجة!

- ها ، نعم . . . الزجاجة . . .

يقولها الآخر بميوعة، وكأنه استرد وعيه.

- «الفرق . . . إذاً، إنه، أي الفرق شاسع . . . السكك الحديدية !

ليست كالزجاجة . . . »

كان من الأفضل بالتأكيد سؤاله قبل أن يشرب من جديد. الرجل الآن ينظر في الفراغ، فمه مفتوح، ومرفقه على الطاولة وقد أسند رأسه المخبول. يتمتم بعبارات غير واضحة، ثم ينجح بجهد مؤكد للتوضيح، ينجح بلفظ ما يلي، مع توقعات عدة ومتابعات :

- أنت تضحكني بسككك الحديدية . . . إذا كنت تظن أنني لم أعرفك . . . لم أعرفك . . . عندما خرجت من هنا تماماً . . . سرنا الطريق كله معاً . . . الطريق كله . . . وإلا كان ذلك سهلاً جداً ! يكفي أن يغير المرء معطفه . . . بعد ذلك يصبح الحديث مع النفس (المونولوج) أكثر غموضاً. ثم عبارة تشبه: «طفل لقيط» تُكرّر عدة مرات، من دون سبب وجيه.

بدا نصف نائم على الطاولة، يلتقط جملة غير المفهومة، التي تقطعها نداءات وحركات لا يكاد يرسمها حتى تهبط ثقيلة، أو تتبدد في ضباب الذكريات . . .

أمامه نموذج لرجل طويل يرتدي معطفاً واقياً يسير على طول السياج.

- هيه ! ألا تنتظرني؟ هيه ! يا رفيق!

- إن هذا الرجل أصمّ.

- هيه، هناك، هيه!

- حسناً، سمع هذه المرة.

- انتظر قليلاً ! هيه ! عندي أحجية لك !

- ما هذا؟ ليس هذا الرفيق مهذباً . غريب كم يكره الناس الأحاجي .

- هيه ! انتظرني ! سترى ، ليست صعبة !

- ليست صعبة ! لكنهم لا يحزرون أبداً .

- إيه ! يا رفيق !

- . . .

- هكذا ، جعلتني أركض ! ويتخلص الرجل من قبضته بحركة مفاجئة .

- حسناً ، لا بأس ! إذا أردت أن تعطيني ذراعك . . .

- إيه ، لا تسرع ! دعني أستعيد أنفاسي ، وأن أذكر سؤالي . . .

لكن الثاني يقوم بالتفاتة مهددة ، فيبتعد السكير عنه خطوة واحدة .

- ما هو الحيوان . . .

تختنق الكلمة في حلقه عندما يلاحظ التكشيرة المقلقة للرجل الذي يبدو أنه يتهيأ لسحقه . عندها يجد أنه من الأفضل أن يعود أدراجه ، وهو يتأنيب بضع كلمات للتهديئة ، ولكن ، ما إن يرى أن الآخر اكتفى بهذا التصرف وتابع سيره ، حتى يعود إلى ملاحظته ، ساحباً قدميه ، متأوهاً .

- هيه ! أنت ، لست مستعجلاً إلى هذا الحد ! . . . هيه . . .

- لا تسرع هكذا ! . . . هيه ! . . .

يتوقف بعض المارة على طريقهما، يستديرون، ثم يتفرقون مفسحين المجال لهذا الزوج المدهش: رجل ضخم وقوي، حبيس داخل معطف واقٍ ضيق، يضع على رأسه قبعة من اللباد فاتحة اللون، تغطي أطرافها المبسوطة أعلى وجهه. يتقدم هذا الرجل بخطا وثيقة، مطرق الرأس، ويداه في جيبه، يسير من دون استعجال بالغ، ولا يبدو أنه يعير أقل انتباه للشخص المثير للفضول الذي يرافقه، إلى اليمين حيناً، وإلى اليسار حيناً آخر، وفي أغلب الأحيان خلفه، حيث يقوم بسلسلة من الأقواس غير المتوقعة، بهدف البقاء إلى جانبه، كما يبدو. ولذا ينجح بأفعاله ما أمكن، ولكن مستخدماً العديد من الحركات الرياضية، قاطعاً المسيرة مزدوجة، أو أطول ثلاث مرات من المطلوب بقفزات سريعة، وتوقفات مفاجئة، لدرجة يخشى فيها في كل لحظة أن نراه يتداعى. وعلى الرغم من هذه الصغوبات المستمرة التي يصارعها، ما زال ينجح في الحديث، المتقطع من دون شك، ولكن تبقى بعض العناصر غير مفهومة :

«هيه ! انتظرنى . . . سأطرح أحجية . . . وشيء يشبه طفل لقيط». من المؤكد أنه شرب كثيراً. إنه قصير و «متكّرّش»، مغلف بثياب غير واضحة، أغلبها أسمال.

ولكن الرجل الذي يسير في المقدمة، يستدير من وقت لآخر من دون سابق إنذار، فيتملك السكير الذعر، ويتراجع خطوة كي يكون بعيداً عن متناول يده، ثم ما إن يبدو الخطر أصغر حتى يعاود جريه بعناد، محاولاً من جديد الوصول إلى رفيق دربه، وحتى في بعض الأحيان التشبث به لمنعه من السير - أو تجاوزه بخطوة - ليجد نفسه بعد ثانية يتدرج من جديد بعيداً إلى الخلف، وكأنما يبحث عن الزمن الضائع.

لقد هبط الليل تماماً الآن. لا تنجح الأنوار التي تنشرها مصابيح الغاز

القليلة ، وبعض المخازن النادرة إلا في خلق إنارة خفيفة وجزئية ، تقطعها ثقوب فيها مناطق عبور يتردد الذهن في المغامرة فيها .

ويصرُّ الرجل القصير المهتز - على الرغم من ذلك - على الملاحقة بعناد ، مع أنه قد يكون فعل ذلك بالمصادفة ، ولم يوضح أبداً السبب بدقة .

أخذ الظهر العريض - الذي لا يمكن بلوغه - أبعاداً مرعبة أمامه ، بالتدريج . وكبر الشق الصغير الذي يميز الكتف الأيمن للمعطف ، بشكل زاوية قائمة ، على نحو نجد فيه جانباً من لباسه ممزقاً يسبح في أثره ، كراية ، وهو يرفرف باصطفافات وهبوب عاصفة . أما القبعة التي كانت تغطي أصلاً معظم وجهه ، فقد شكلت الآن جرساً كبيراً يتدلى منه لفيف من الأشرطة المتداخلة الشبيهة بمجسمات مدوّس هلامي عملاق ، والتي تقلصت إليها بقية ملابسه في النهاية .

يتمكن الرجل القصير بعد جهد جهيد من الإمساك بإحدى هذين الذراعين ، يتعلق بها بكل قواه ، وقد قرر ألا يفلته . عبثاً يحاول فالاس أن يهزه ، فلا يتمكن من التخلص منه . يتشبث السكير به بحيوية من الصعب الاعتقاد أنه قادر عليها؛ لكن رأسه يفلت من قبضته ، بعد أن اصطدم بالأرض في انتفاض . تفتح اليدان ، ويتدحرج الجسم على الأرض مرتخياً ، لا حياة فيه . . .

لا يبدو صاحب المقهى متأثراً جداً بهذا المشهد .

لا بد أن السكير لا يمر بأزمته الأولى . قبضة قوية ترفعه وتضعه على كرسيه ، بينما تعيد له خرقّة مبللة وعيّه في لحظة . كأنما يشفى الرجل المسكين بفعل السحر . يمسح وجهه بيده ، ينظر حوله مبتسماً ويعلم لصاحب المقهى الذي وصل قبل ذلك إلى طاولة المشرب :

- أراد أن يقتلني أنا أيضاً!

بما أنه لا يبدو على الأقل حاقداً عليه لمحاولته قتله ، فإن فالاس الذي بدأ يهتم بهذا الشخص ، ينتهز الفرصة ليطلب منه بعض الإيضاحات . إن أفكار السكير لحسن الحظ أصبحت أوضح مما كانت عليه قبل وقعته ، يصغي بانتباه ويجيب على الأسئلة برحابة صدر: نعم ، لقد التقى فالاس ، مساء أمس عند هبوط الليل ، وهو خارج من المقهى ، تبعه ، أمسك به ، ورافقه ، على الرغم من أن فالاس لم يكن لطيفاً معه . كان يضع قبعة لباد فاتحة اللون أكبر من رأسه ، ومعطف واقٍ ضيق تميزه مزق صغيرة على الكتف الأيمن تأخذ شكل زاوية قائمة .

«مساءً أمس ، رجل بمعطف واقٍ . . .»

إذاً كان هذا المتسول السكير الذي لمحتة السيدة باكس من نافذتها ، والقاتل نفسه ليس سوى . . .

لا يستطيع فالاس أن يمنع نفسه من الابتسام أمام عبث النتيجة التي توصل إليها ، هل يمكن التأكيد أن ذلك الشخص يشبهه فحسب؟ من الصعب الوثوق بحكم شاهد كهذا .

لكن السكير ، على أية حال ، يؤكد بعناد أنه لا يميز بينهما ، على الرغم من اعتراضات فالاس الجديدة . فهذا الآخر سار إلى جانبه مدة طويلة - كما يقول - لدرجة يمكنه فيها التعرف إليه في الغد . يبدو أنهما قطعاً شارع «برابان» ، من خلال الإشارات الغامضة التي يعطيها عن مسارهما ، ثم شارع «جوزيف جانك» ، حتى الشارع العريض حيث دخل شبيه فالاس المفترض إلى مكتب البريد .

عاد السكير بعد ذلك ليشرب في مقهى «الحلفاء» .

أما صاحب المقهى ، فهو يرى أن القصة موضع ريبة:

- لماذا لا يريد هذا الشخص الإقرار بأن أحداً لمحه ليلة أمس؟ لا بد أن

لديه ما يخيفه . . . مساء أمس؟ إنه من ارتكب الجريمة ! كان خارجاً من المنزل عندما فاجأه العجوز؛ فذهب ليضيقه في الطرف الآخر من المدينة . وبعد ذلك ، عاد بهدوء لينام هنا . والآن ، يريد أن يعرف ماذا علق بذهن الآخر من هذه المغامرة . لا بد أنه يرى أنه يتمتع بذاكرة جيدة ، بما أنه حاول للتو أن يقتله: ضرب رأسه . . .

- إنه استنتاج متسرع . إنه بالتأكيد من ارتكب الجريمة .

الساعات ليست مطابقة لسوء الحظ: عندما سارعت الخادمة العجوز لاستدعاء سيارة الإسعاف ، كانت الساعة . . . مع ذلك ، من الأفضل أن يتوخى الحذر ، وأن يُبلغ الشرطة على الفور عن هذا الزبون الغريب ، فصاحب الفندق المهمل ، قد يدفع غرامة ، إذا حدث أمر ما ، ولم يبلغ بعد تجاوز الساعة الثانية عشرة .

يأخذ صاحب المقهى دليل الهاتف ، ويراجعه طويلاً ، ملقياً من فوق طاولته نظرات شك نحو الطاولات .

يدق رقماً أخيراً .

- ألو ! هل هذا مكتب خدمة الأجانب؟

يقولها وهو يرمق فالاس بنظرة اتهام .

- هنا مقهى «الحلفاء» ، شارع «آربانتور» رقم ١٠ . . . أعلن عن وصول مسافر .

صمت طويل . يفتح السكير فماً واسعاً . نسمع خلف طاولة صاحب المقهى ، صنبور ماء يرشح بانتظام في حوضه .

- نعم ، غرفة ليوم واحد .

...

- قد يحصل ذلك

...

- سأرسل البطاقة ، ولكن نفضل أن يكون الأمر نظامياً في أسرع وقت ممكن . . . لاسيما عندما تتعامل مع بعض الأشخاص . . .

إن في الطريقة غير اللبقة التي يتحدث بها هذا الرجل أمامه عن فالاس ، ما يصدمه لدرجة يكاد فيها أن يعترض ، عندما يسمع من جديد ، الصوت الساخر للمدعي العام :

- إذا كنت رجل شرطة متخفي ، ما هو الدليل على ذلك ؟

إذا كان صاحب المقهى يبحث عن إدانته عموماً ، فهو مخطئ : فإذا أغفل ذكر وجوده ، سمح للوران أن يتابع على العكس مزاحه السخيف ، ومع هذا الرجل الغريب لا نعلم أبداً أين سيصل هذا المزاح

- وأين يبدأ أيضاً ، ومع أن فالاس يرى أنه ليس من المعقول الاهتمام بهذه الترهات ، إلا أنه شعر بنوع من الرضا لتسويغ موقفه حول هذه النقطة .

يدعى فالاس : فاء ، ألف ، لام ، ألف ، وسين ، فالاس . أو على الأقل هذا ما يدعيه .

كانت هذه الجملة خارجة عن قصد ، وحتى شائنة . والطريقة التي كان ينظر فيها صاحب المقهى إلى زبونه ، بما فيها من ازدراء ، وهو يلفظ الجملة ، تجبره

على التدخل في نهاية المطاف . يُخرج محفظته ليأخذ منها بطاقته الشخصية ، وفي نيته أن يضعها أمام عيني صاحب المقهى . لكنه ما إن يهتم بالحركة حتى يتذكر الصورة الموضوعية على البطاقة الرسمية؛ إنها صورة فرد أكبر منه سناً ، يحمل شارباً بنياً كبيراً كالذي يظهر على وجه تركي في مسرحية غنائية .

لا تتوافق بالطبع هذه العلاقة الفارقة الواضحة جداً مع نظريات فايوس حول المظهر الخارجي لعناصر الاستخبارات . لا بد أن فالاس قد حلق شاربه فتغير وجهه ، وأصبح أكثر شباباً ، فمن الصعب أن يتعرف عليه غريب ؛ لم يجد بعد متسعاً من الوقت لتغيير أوراقه القديمة . أما بالنسبة للبطاقة الزهرية ، أي إجازة المرور التي تمنحها الوزارة ، فمن الأفضل بالتأكيد أن يتجنب استخدامها .

بعد أن تظاهر فالاس بأنه تحقق من شيء ما على بطاقة أخذها من دون تعيين من محفظته - ربما قسيمة بطاقة العودة بالقطار - يعيد الكل إلى جيبه ، بحركة طبيعية . لا يُفترض به على أية حال أن يسمع ما يدور على الهاتف .

هكذا ، يجد صاحب المقهى تلميحاته تنقلب ضده ، والأسئلة التي توجه إليه على الطرف الآخر من الهاتف تجعله يفقد صبره :

- لأنني أقول لك أنه وصل مساء أمس!

- . . .

- نعم ، هذه الليلة فقط ! أما عن الليلة التي سبقتها ، ما عليك إلا أن توجه السؤال له

- . . .

- على أية حال ، أنا بلغتكم والسلام! يود السكير أن يضيف شيئاً ، ينهض نصف نهضة عن كرسیه :

- ثم إنه أراد قتلي ! هيه ! يجب أن تقول لهم أنه أراد قتلي ! لكن صاحب المقهى لا يتنازل بالرد عليه . يغلق السماعه ويعود خلف مشربه ، لينبش في درج مليء بالأوراق . إنه يبحث عن بطاقات الشرطة ، لكنه لا يستخدمها منذ وقت طويل ، ويجد صعوبة في إيجادها . وتقع يده في النهاية على نموذج قديم أصفر اللون ، وملوث ، يتوجب على فالاس أن يملأه ، وأن يظهر بطاقته الشخصية ، ويشرح تحوله . يمكنه بعدها الرحيل - ليسأل في مكتب البريد ما إذا رأى أحدهم رجلاً بمعطف واق . . .

يستسلم السكير من جديد للنوم على كرسيه ، ويقوم صاحب المقهى بضربة ممسحة على الطااولات ، ويذهب ليغسل الكؤوس في المغسلة . سيفلق هذه المرة الصنبور بعناية أكبر ، فتوقف القطرات الصغيرة التي كانت تطرق على سطح الماء بإيقاع موقتة موسيقية .
ينتهي المشهد هنا .

يستمر صاحب المقهى في التحديق في الفراغ ، جذعه الضخم مستند إلى ذراعيه الممدودتين ، المنفرجتين ، ويداه ملتصقتان بطرف طاولة البار ، رأسه إلى الأمام ، وفمه ملتوي قليلاً .

-٥-

تمر خيالات عابرة في الماء العكر لحوض السمك ، ثمة تموج ليس لوجوده حدود يتبدد من نفسه . . . ويتتابنا الشك بعد ذلك حول صحة ما رأينا . يعود السديم للظهور بعد ذلك ، فيرسم حلقتين أو ثلاثاً ، في الضوء المبهر ، ويزوب ، خلف ستار الطحالب ، في أعماق المواد الحية . حركة أخيرة تهز كل شيء للحظة ، ثم تسكن بسرعة . كل شيء هادئ من جديد . . . إلى أن

ينشق فجأة شكل جديد يأتي ليلصق على الزجاج وجهاً من حلم . . . بولين ،
الرقيقة بولين . . . التي ما إن تُلحظ حتى تغيب بدورها لتفسح المجال لأشباح
وهواجس أخرى . يُولف السكر أحجية أخرى . ثمة رجل ذو شفتين رقيقتين ،
ومعطف واق مزرر حتى الياقة ، ينتظر على كرسيه وسط حجرة فارغة . وجهه
الساكن ، ويداه المكسوتان بقفازين ، المصْلَبَتان على ركبتيه ، لا توحيان بأي
نفاد صبر . لديه متسع من الوقت . لا شيء يمكنه أن يمنع مخططه من التنفيذ .
يتهيأ لتلقي زيارة- ليست زيارة كائن قلق ، هارب ، ضعيف الشخصية- بل
هي على العكس زيارة شخص يمكن الاعتماد عليه : إنه من سيُكلّف بتنفيذ المهمة
الثانية هذا المساء . في الأولى ، كنا تركناه في الخلفية ، لكن عمله تحقق من دون
خطأ ، بينما جاريناتي ، الذي رُتّب له كل شيء بدقة ، لم يكن حتى قادراً على
إطفاء النور . وها هو يترك زبونه يهرب هذا الصباح :

- في أية ساعة من هذا الصباح؟

يجيب صاحب المقهى:

- لا أدري .

- ألم تره خارجاً؟

- بلى رأيته خارجاً ، سأقول لك الساعة!

يتساءل صاحب المقهى - وهو يستند إلى طاولة البار- ما إذا كان عليه أن
يُطلع فالاس على هذه الزيارة؛ لأن ما عليهم إلا أن يتدبروا أمرهم فيما بينهم ، إذ
لم يكلفه أحد بأية مهمة .

على أية حال ، كان فالاس قد غادر المقهى الصغير ليدخل إلى مسرح
الأحداث . . .

يسير فالاس باتجاه السير من جديد . أمامه ، يمتد شارع بارابان والواجهات البسيطة لمنازله تحت سماء ثلجية . الموظفون كلهم في عملهم الآن أمام دفاتر الحسابات والآلات الحاسبة: تصطف الأرقام في أعمدة ، وجذوع أشجار الصنوبر تتكسد على الأرصفة؛ أذرع آلية تحرك طلبات الرافعات ، أزرار عاملات الجمع لا تضيق لحظة ، من دون توقف ، من دون خطأ ، فتجارة الأخشاب في أشد نشاطها .

الشارع مقفر وساكن كما في الساعات الأولى . بعض السيارات وحدها واقفة أمام الأبواب ، تحت اللوحات السوداء التي كُتِبَ عليها بحروف من ذهب ، تشهد على النشاط الذي يخيم حالياً خلف جدران الآجر . أما التحولات الأخرى - إن وُجدت - فمن الصعب ملاحظتها: لا شيء تغير في أبواب الخشب المطلي ، المنصوبة في تجويف أعلى درجاتها الخمس ، ولا في النوافذ الخالية من الستائر - اثنتان يساراً ، وواحدة إلى اليمين ، فوق أربع طوابق ذات فتحات مستطيلة كلها متشابهة .

ليس هناك نور كافٍ للعمل في هذه المكاتب حيث لم تُشعل المصابيح الكهربائية - بدافع توفير - والوجوه حسيرة البصر تنحني بنظاراتها نحو السجلات الضخمة .

يشعر فالاس بكل كبير يجتاحه .

ولكنه يتوقف ، بعد أن يجتاز القناة التي تقسم الطريق الدائري إلى قسمين ، ليفسح المجال لمرور قطار يحمل في مقدمته اللوحة المشيرة للاتجاه الرقم (٦) بالأصفر على قرص قرمزي اللون . والعربة اللامعة من الطلاء الجديد تشبه

تماماً تلك التي ظهرت هذا الصباح في المكان نفسه . تتوقف العربّة أمام فالاس ، كهذا الصباح .

ولما كان فالاس يخشى الطريق الطويل الممل الذي يمر بشارع بارابان وشارع جانك ، يصعد إلى عربّة الترام ، ويجلس في الداخل : لا يمكن لهذا الترام سوى أن يقربه من هدفه . عند ضربة الجرس ، تتزعزع العربّة ، مع أنين هيكلها المعدني . ينظر فالاس إلى تتابع البيوت التي تصطف على أطراف القناة .

ومع ذلك ، منذ اقتراب المفتش ، يستنتج فالاس خطأه : فالقطار رقم (٦) لا يتابع سيره على طول الشارع العريض ، كما ظن ، بل يغادره منذ الموقف الأول ليتوغل في الجنوب ، عبر الضواحي . وبما أنه لا يوجد أي قطار يتجه نحو هذا الجزء المقفر من الطرق الذي يقود إلى الطرف الآخر من شارع جانك ، حيث يوجد مكتب البريد الذي أشار إليه السكير ، يقع فالاس في حيرة من أمره .

يخرجه المفتش من حيرته فيريه مخططاً لشبكة المواصلات التي تجوب المدينة : فبدلاً من الذهاب مباشرة إلى البريد ، سيعود فالاس أولاً للمرور إلى عيادة الطبيب جيوار ، وهذا أفضل في كل الأحوال . القطار رقم (٤) الذي يقاطعه رقم (٦) في المحطة القادمة ، سيقوده إلى تلك الجهة .

يشكر فالاس المفتش ، ويدفع ثمن البطاقة ، ثم ينزل .

حوله ، ما زال الديكور ذاته : الشارع العريض ، والقناة ، والأبنية غير المنتظمة . . .

— إذاً ، قالت له ، بما أن الأمر كذلك ، ما عليه إلا أن يرحل! —

وهل رحل؟

— لا ، تماماً . كان يود أن يعرف ما إذا كان ذلك كله صحيحاً ، ما قصّته عليه .

في البداية ، كان يقول إن هذا غباء ، وإنه لا يصدقها ، وإنه سيري؛ ولكن ، عندما علم أن الجميع عائدون ، خشي أن يسوء الأمر ، وتذكر أن عليه شراء بعض الحاجيات . حاجيات ! حاجياته معروفة . أنت لا تعرف إذا بماذا أجابته؟ لا تسرع كثيراً ، وإلا سيفسد الوضع ! »

- آه . . . وماذا يعني ذلك؟

- يعني ذلك أنه يمكن أن يقابله من جديد ، أتفهم؟ الوضع الفاسد يعني السيارة والأشياء الأخرى!

- آه ، هكذا إذن! يجلس فالاس باتجاه السير ، قرب النافذة ، إلى يمينه مكان شاغر . أما الصوتان - صوتا امرأتين ، بلهجة شعبية - فهما قادمان من المقعد الواقع خلفه تماماً .

- حظاً موفقاً . صاحبت له وهو مغادر .

- وهل قابله؟

- لا نعلم بعد ذلك شيئاً . على كل حال ، إذا كان قابله ، لا بد أن ذلك سبب شجاراً!

- ها! هكذا إذن .

- على كل حال ، سنرى ذلك غداً ، آمل ذلك .

من الواضح أن كلتا السيدتين لا تبديان اهتماماً خاصاً بخاتمة تلك المسألة . فالشخصيات المعنية ليست من الأقارب أو من الأصدقاء . حتى أننا نشعر أن هاتين السيدتين واقعتان في منأى عن هذا النوع من الدراما ، ولكن أغلبية الناس

يحبون هذا النوع من التعليق على الأحداث المظفّرة لكبار المجرمين والملوك . إلا إذا كان الأمر يتعلق فحسب بقصة مسلسلته نشرت في مجلة ما .

بعد أن يجتاز القطار الكهربائي طريقاً متعرجاً أسفل أبنية متواضعة ، يصل إلى الأحياء المركزية التي سبق أن لاحظ فيها فالاس زخرقة نسبية . يتعرف خلال مروره إلى شارع «برلين» الذي يقود إلى إدارة الشرطة . يلتفت نحو المحصل الذي سيشير إليه عندما تحين لحظة النزول .

إن أول شيء يلاحظه فالاس عند نزوله لوحة بلون أحمر فاقع ، تحت سهم ضخم ، كتب عليها ما يأتي :

للرسم

للمدرسة

مكتبة فيكتور هوجو

شارع فيكتور هوجو رقم ٢

(١٠٠ متر يساراً)

بضاعة تتميز بالجودة

يعبده هذا الانعطاف عن العيادة؛ وبما أنه ليس على بعد خطوات منها ، يسلك الاتجاه المشار إليه . بعد أن انعطف وفق إيعاز لوحة إعلان ثانية ، يكتشف مخزناً يوحي مظهره الحديث جداً واهتمامه بالدعاية أنه افتتح حديثاً . فالبدخ الظاهر ، وأبعاده الضخمة تفاجئ في هذا الشارع الصغير ، المقفر تقريباً ، على الرغم من أنه واقع عند مفترق طرق حيوية . واجهة المخزن المصنوعة من البلاستيك والألمنيوم

جديدة؛ وإذا كانت الواجهة الزجاجية اليسرى ليست سوى عرض بسيط لأقلام حبر، وورق رسائل، ودفاتر مدرسية، فإن الواجهة اليمنى، على العكس، مجهزة للفت انتباه المتسكعين: فهي تمثل فناً يقوم برسم حي. إنه تمثال يرتدي سروال عمل مبقع بالألوان، ويختفي وجهه وراء لحية كثة «على الطريقة البوهيمية»؛ وهو منهمك في عمله أمام حمالته، متراجع قليلاً ليمتد بصره إلى لوحته والنموذج الذي يرسمه معاً. إنه يضع اللمسات الأخيرة على مشهد يرسمه بخط قلم رصاص دقيق - لا بد أنه نسخة للوحة رسام شهير. إنها هضبة ترتفع عليها، وسط أشجار السرو، أطلال معبد إغريقي؛ في البعد الأول أجزاء من أعمدة ترقد هنا وهناك، وبعيداً، في الوادي، تظهر مدينة كاملة تزدان بأقواس النصر والقصور، وقد عولجت - على الرغم من البعد وتراكم الأبنية - بدقة نادرة في التفاصيل. ولكن، تنتصب أمام الرسام، بدلاً من الريف الهلنستي، تنتصب صورة ضوئية لمفترق طرق في مدينة من القرن العشرين، بمنزلة ديكور. تضيف جودة هذه الصورة وموقعها الذكي على المنظر الشامل واقعية مفاجئة لدرجة تنفي فيها الرسم الذي يُفترض به أن يقدمه. وفجأة، يتعرف فالاس إلى المكان: هذا المنزل المحاط بالأبنية الكبيرة، وهذا السياج الحديدي، وحاجز المضاض، إنه الجناح الخاص الذي يقع على زاوية شارع آربانتور. بالتأكيد.

يدخل فالاس.

يهتف: - يا لها من واجهة غريبة!

- أليس هذا مسلياً؟

تستقبله السيدة الشابة بضحكة صغيرة من الحلق، مفتونة.

يوافق فالاس: - حقاً، إن ذلك على درجة كبيرة من الغرابة.

- هل عرفت المكان؟ إنها أطلال طيبة .

- الصورة الضوئية مذهشة بخاصة ، أليس كذلك؟

- بلى ، إنها صورة جيدة جداً .

تقول ذلك ، ووجهها يدل بالأحرى أنها لا تجد فيها شيئاً ملفتاً . لكن فالاس يريد أن يعرف أكثر ، يقول:

- بلى ، بلى ، نتبين فيها عمل متخصص .

- نعم ، بالطبع . طلبت تكبير الصورة في مخبر مجهز لهذا الغرض .

- لا بد أيضاً أن مسودة الصورة كانت شديدة الوضوح .

- نعم ، هذا محتمل .

تسأله البائعة مباشرة ، بنظرة حرفية محببة :

- ماذا يريد السيد؟

يقول فالاس: - أريد ممحاة

- نعم ، أي نوع من المماحي؟

هنا بالضبط تكمن القصة ، يحاول فالاس مرة أخرى أن يصف ما يبحث عنه ، ممحاة ناعمة ، خفيفة ، هشة ، تكسرها لا يشوهها ، بل يحولها إلى رماد ، ممحاة تتجزأ بسهولة ، ويكون انقسامها لابعاً وأملس ، كصدفة بلمعان اللؤلؤ . لقد رأى واحدة منها منذ عدة أشهر ، عند صديق لم يعرف أن يدلّه على مصدرها ، ومنذ ذلك الحين وهو يبحث من دون جدوى . إنها تبدو على شكل

مكعب مصفر اللون ، بارتفاع سنتيمترين إلى ثلاث سنتيمترات ، بزوايا مدورة نسبياً- ربما بسبب الاستخدام . كان اسم المصنع مطبوعاً على أحد الوجوه ، لكنه محو إلى حد لم يعد من الممكن قراءته: نميز فقط الحرفين وسط الكلمة «دي» ، لا بد أن هناك حرفان قبلهما ، وحرفان بعدهما .

تحاول السيدة الشابة إكمال الاسم ، فلا تفجح .

وبعد استنفاد جميع الوسائل ، تريه جميع مماحي المخزن- إذ تملك بالفعل منها مجموعة كبيرة- وتتغنى بحرارة بمزايا كل واحدة منها . لكن هذه المماحي كلها إما طرية جداً أو قاسية جداً؛ فمنها «لب الخبز» طيعة ، كالصلصال ، ومنها مواد مائلة إلى اللون الرمادي ، ويابسة تخرش الورق ، صالحة في أبعد تقدير لمحي بقع الحبر؛ أما المماحي الأخرى فهي مماحي قلم رصاص من النوع العادي ، مستطيلة الشكل ، متطاولة من المطاط الأبيض تقريباً .

يتردد فالاس في العودة إلى الموضوع الذي يؤرقه: قد يبدو وكأنه دخل إلى هذا المكان بهدف الحصول - يعلم الله - عن أية معلومات حول صورة المنزل ، من دون أن ينفق حتى ثمن ممحاة صغيرة- مفضلاً أن يقلب المخزن كله بحثاً عن غرض متخيل ، بماركة أسطورية لم يتمكن من أن يكمل اسمها - ولديه مسوغاته ! قد يبدو احتياله واضحاً ، في حال لا يعطي معه سوى المقطع النصفى من الاسم ، يمنع ضحيته من التشكيك في وجود هذه الشركة التجارية .

سيضطر إذاً - مرة أخرى - لشراء أية ممحاة كانت ، لن يعرف ما يفعل بها ، بما أنها حتماً ليست تلك التي يبحث عنها ، وهو ليس بحاجة إلى ممحاة أخرى - وإن كانت هذه تشبهها في بعض النواحي .

يقول: - سأخذ هذه ، ربما تكون مناسبة .

- سترى ذلك يا سيدي ، إنها قطعة جيدة . زبائننا كلهم راضون عنها .

لا داعي للشرح أكثر . ينبغي عليه الآن أن يحوّل المحادثة إلى . . . لكن المهزلة تستمر بسرعة إلى حد لا يجد فيه متسعاً من الوقت للتفكير: « كم أدفع لك؟ »

تخرج الورقة النقدية من المحفظة ، ترن القطعة النقدية المعدنية على الرخام . . . أطلال طيبة . . . يسأل فالاس :

- هل تبعين صوراً للوحات محفورة؟

- لا ، في الوقت الحالي ليس لدي بطاقات .

(تشير إلى حمالتين دوارتين محملتين باللوحات)

يمكنك مشاهدتها؛ ثمة صور للوحات متاحف ، وأخرى لقطات للمدينة وضواحيها . أما إذا كنت مهتماً حقاً فهناك العديد من الصور التي التقطتها بنفسي . إليك مثلاً الصورة التي جهزوها لي في النيجاتيف ، المنظر الذي كنا نتحدث عنه منذ قليل .

تسحب بطاقة من الورق الصقيل وتقدمها له . إنها بالفعل صورة الواجهة الزجاجية . نرى أنه قد أضيف إليها في البعد الأول الأحجار الممزوجة بالقصب التي تشكل طرف رصيف الميناء ، وطرف الحاجز ، ومدخل الجسر الصغير الدائري .

بيدي فالاس إعجابه :

- إنه جناح جميل جداً ، أليس كذلك؟

- نعم ، وربي ، بالطبع . تجيب ضاحكة .

ويذهب حاملاً البطاقة - إذ كان لا بد من الحصول عليها بعد هذا المديح الذي كاله للصورة عند دخوله - والممحة الصغيرة التي انضمت في أسفل جيبه إلى تلك التي اشتراها هذا الصباح - لا فائدة منها كتلك .

يسارع فالاس الخطأ؛ إنها تقارب الثانية عشرة ظهراً . ما زال لديه الوقت كي يتحدث إلى الدكتور جيوار قبل الغداء . عليه أن ينحرف يساراً ليصل إلى شارع كورينته ، لكن الطريق الأول الذي يجده أمامه يقود إلى شارع معترض قد يضلّه ، سيتابع إذاً سيره حتى مفترق الطرق القادم . بعد أن يزور العيادة ، سيبحث عن مكتب البريد ، آخر شارع جانبك ، حيث سيكون بوسعه الوصول إليه سيراً على الأقدام ، لأنه بالتأكيد ليس بعيداً جداً . المهم قبل كل شيء ، معرفة الساعة بدقة .

يقف رجل شرطة حارساً وسط الشارع ، لا شك لتنظيم السير عند خروج تلاميذ مدرسة (وإلا ، فلا مسوغ لوجوده في هذا التقاطع الثانوي ، إذ لا وجود لسيارات كثيرة) . يتراجع إلى الخلف بضع خطوات ويقترب . يحييه رجل الشرطة بتحية عسكرية .

يسأل فالاس : - كم الساعة الآن ، من فضلك ؟

يجيبه الرجل من دون تردد : - الثانية عشرة والرّبع .

من المحتمل أنه نظر إلى ساعته لتوه .

- هل شارع جوزيف جانبك بعيد من هنا ؟

- هذا متعلق برقم المبنى الذي تريد الذهاب إليه .

- آخره تماماً ، إلى جانب الشارع الدائري .

- إذاً ، هذا سهل جداً ، تتابع سيرك حتى أول مفترق طرق ، ثم تنعطف
يميناً ، وبعد ذلك تسير مباشرة ، فتنعطف يساراً ، ثم تسير على نحو مستقيم .
لن تسير طويلاً جداً .

- هناك مكتب بريد ، أليس كذلك؟

- نعم . . . على الشارع العريض ، عند زاوية شارع جوناس ، ولكنك
لست مضطراً للذهاب إلى هناك بحثاً عن مكتب بريد . . .

- لا ، لا ، أعلم ذلك ، ولكن . . .

- علي الذهاب إلى ذلك البريد بالتحديد . . . من أجل البريد المحفوظ .

إذاً ، الشارع الأول يميناً ، ثم الأول يساراً ، ثم على طول الطريق . الطريق
سهل ، لا مجال للخطأ .

يشكره فالاس ويعاود سيره ، لكنه عندما يصل إلى التقاطع ، وفي اللحظة
التي سينحرف فيها شمالاً - نحو العيادة - يتبين أنه نسي أن يذكر هذه التفصيـلة
لرجل الشرطة ، لذا فهو سيظن أنه ضل الطريق ، على الرغم من شرحه الواضح
والمكرر . يستدير فالاس ليرى ما إذا كان الرجل يراقبه: يقوم الرجل بحركات
كبيرة بذراعه ليذكره بأن عليه الانعطاف يميناً في بادئ الأمر . فإذا سار الآن
في الاتجاه المعاكس ، سيبدو مجنوناً ، أو غيبياً ، أو صاحب مزاج ثقيل . قد
يجري الرجل خلفه ليقوده إلى الطريق الصحيح . أما أن يعود أدراجه ليطمئن
رجل الشرطة ، فسيكون ذلك مثيراً للسخرية بحق . كان فالاس قد بدأ حركته
باتجاه اليمين .

وبما أنه قريب إلى هذا الحد من البريد ، أفليس من الأفضل أن يذهب إليه من دون تأخير؟ وقد تجاوزت الساعة الثانية عشرة والدكتور جيوار يتناول الآن طعام الغداء؟ بينما لن يزجج أحداً في البريد حيث لا تغلق الكوّات في هذه الساعة .

ينظر قبل أن يختفي إلى الشرطي الذي يوجه له إشارة موافقة ، ليطمئنه : إنه في الاتجاه الصحيح .

إن من الغباء إرسال شرطي مرور إلى مكان كهذا حيث لا توجد حركة مرور تحتاج للتنظيم . في هذه الساعة ، سبق أن عاد أطفال المدارس إلى منازلهم . فهل هناك مدرسة أصلاً؟

وكما أعلن له الشرطي ، يصل فالاس مباشرة إلى مفترق طرق جديد . فإذا سلك الطريق يمينا ، سيقوده شارع برنادوت تماماً إلى الخلف ، وسيسمح له بالوصول أيضاً إلى شارع كورينته ، بعد انعطافة صغيرة . لكنه الآن ليس أقرب إلى العيادة منه إلى البريد ، أضف إلى ذلك أنه لا يعرف الحي جيداً ، ويخشى أن يجد نفسه وجهاً لوجه مع الشرطي . إن هذا الاختراع الذي أطلقوا عليه اسم البريد المحفوظ ليس عظيماً: فلو كان أرسل رسالة إلى هذا المكتب ، لكان عرف العنوان ، بدلاً من تحديد موقعه على نحو تقريبي .

يا له إذاً من سوء طالع يرغمه اليوم على إعطاء تسويغات في كل مكان يمر فيه ! هل هي وضعية خاصة لشوارع هذه المدينة تجبره على الاستفسار عن طريقه باستمرار ، ليرى نفسه بعد كل جواب متجهاً نحو منعطفات جديدة؟ لقد سبق له أن تاه وسط هذه التشعبات غير المتوقعة وهذه الردوب (الطرق المسدودة) ، حيث نضيق لا محالة إذا نجحنا بالمصادفة في السير بخط مستقيم . كانت أمه وحدها قلقة من ذلك . كانوا قد وصلوا أخيراً إلى هذه القناة المسدودة ، حيث المنازل المنخفضة تعكس بفعل ضوء الشمس واجهاتها القديمة في المياه الخضراء .

كان ذلك في الصيف ، أثناء العطلة المدرسية: كانوا مسرعين (بينما كانوا في طريقهم مثل كل عام إلى شاطئ البحر ، في الجنوب) لزيارة إحدى القرى . يتذكر أن هذه القرية كانت غاضبة ، وأن هناك قضية إرث ، أو شيء من هذا القبيل . لكنه لم يعرف تماماً ما القضية . حتى إنه لا يتذكر ما إذا كانوا قابلوا السيدة في نهاية المطاف ، أما أنهم عادوا أدراجهم (لم يكن لديهم سوى بضع ساعات بين موعدَي قطارين) . على كل ، هل هي ذكريات حقيقية؟ غالباً ما قصت عليه أحداث ذلك اليوم: «هل تذكر ، عندما ذهبنا . . .»

لا . لقد رأى آخر القناة بنفسه ، والبيوت التي انعكست في مياهه الهادئة ، والجسر المنخفض الذي كان يغلق المدخل . . . والهيكل المهجور للقارب القديم . . . ولكن ، من الممكن أن يكون ذلك حصل في يوم آخر ، في مكان آخر ، أو حتى في الحلم .

هاهو شارع جانبك وجدار باحة اللهو ، حيث تتساقط أوراق الكستناء الهندي . «انتبه ! مواطنون .» وهامي اللوحة تفرض على السائقين تخفيف السرعة .

يقوم الموظف بالسترة الزرقاء القائمة والقبعة الرسمية ، عند مدخل الجسر المتحرك ، بإشارة صغيرة متعرفاً إليه .

الفصل الثالث

المنزل الكبير صامت ، كالعادة . تنهي الخادمة الصماء العجوز في الطابق الأرضي تحضير العشاء . إنها تنتقل بخفين من اللباد فلا يُسمع صوتٌ لخطواتها الزاهية الآتية على طول الممر ، بين المطبخ وغرفة الطعام ، حيث وضعت أدوات طعام لشخص واحد على الطاولة الضخمة بانتظام دقيق .

إنه يوم الاثنين : وعشاء يوم الاثنين لا يكون معقداً أبداً : حساء الخضار ، شرائح لحم الخنزير المقدّد ، على الأغلب ، وشيء من الكريما المخفوقة بطعم غير محدد أو ربما الرز بالحليب و الكاراميل . . . فدانييل لا يهتم كثيراً بالطعام .

كان جالساً خلف مكتبه ، منهمكاً في فحص مسدسه . قد يكون قد تعرض للزنجار ، فهو لم يستخدمه منذ سنوات عدة . يحركه دويون بحذر ، يفتحه ، يخرج الرصاصات ، ينظف داخله بعناية ، يتحقق من حسن التشغيل ، يعيد أخيراً المخزن مكانه ، ويضع الخرقة في درج .

فدويون رجل دقيق ، يحبُّ أن تُنفَّذ كل مهمة بعناية . إن رصاصة في القلب تحدث ضرراً أقل . فإذا أطلقت بطريقة ملائمة يكون الموت مباشراً وكمية الدم المفقودة محدودة . لقد تحدث عن ذلك مطولاً مع الدكتور جيوار . وهكذا ، لن تجد العجوز صعوبة بالغة في إزالة البقع ، وهذا هو المهم بالنسبة إليها . هو يعلم جيداً أنها لا تحبه .

لم يكن محبوباً جداً ، على أية حال . إيفلين . . . ولكن لن يقتل نفسه لهذا السبب . سيان عنده أن لا يكون محبوباً . سيقتل نفسه من أجل لا شيء - من السأم .

يقوم دوبون بوضع خطوات على الموكيت الأخضر الفاتح ، الذي يمتص الأصوات . لا يوجد مكان للمشى في المكتب الصغير؛ إذ تحيط به الكتب في كل مكان: كتب القانون ، والتشريع الاجتماعي ، والاقتصاد السياسي . . . ، إلى الأسفل يساراً ، على طرف الرفوف ، تصطف بضع أجزاء أضافها هو بنفسه إلى السلسلة . ليست بالشيء الكثير . فكرتان أو ثلاث مع ذلك ، من فهمها؟ لا أحد ، لا يهم .

يتوقف أمام طاولة العمل ، يلقي نظرة على الرسائل التي كتبها للتو: رسالة لروا-دوزيه ، وثانية لجيوار . . . ولمن أيضاً؟ أخرى لزوجته ، ربما؟ لا؛ وتلك التي وجهها إلى الوزير لاشك أنها أرسلت اليوم الفائت . . .

يتوقف أمام طاولة العمل ، يلقي نظرة على تلك الرسالة التي كتبها للدكتور جيوار . إنها واضحة ومقنعة ، وهي تقدم كل الشروح الضرورية لتمويه انتحاره بجريمة قتل .

في البداية فكر دوبون أن يمثل الحادث: «بينما كان البروفسور ينظف مسدسه القديم ، تخرج رصاصة فتصيبه في قلبه . لكن الجميع فهم ذلك .

الجريمة ، أقل شبهة . يمكننا الاعتماد على جيوار و روا-دوزيه في الحفاظ على السر . لن يكون على عصبة تجار الخشب أن تكفهر سحناتهم عندما سيظهر اسمهم في المحادثة . أما بالنسبة إلى الدكتور ، لا يتوجب عليه أن يُدهش بعد مقابلتهما الأسبوع الماضي ، فمن المحتمل أنه فهم . لا يمكنه ، على كل حال ، أن يرفض تأدية خدمة لصديق متوفى . ما نطلبه منه ليس معقداً جداً: أن ينقل الجثة إلى العيادة ، ويُعلم على الفور روا-دوزيه بالهاتف ، وبعد ذلك ، تقرير شرطة البلدية ، نشرة الصحف المحلية . إن صداقة وزير ما إذاً مفيدة جداً في بعض الأحيان: لن يكون هناك طبيب شرعي ، ولا تحريات من أي نوع . في وقت لاحق (من يعلم؟) يمكن لهذا التواطؤ أن يخدم الطبيب .

كل شيء منظم . لم يبقَ على دوبون سوى أن ينزل للعشاء . يجب أن يبدو بمزاج طبيعي حتى لا تشك العجوز أننا بشيء . يعطي أوامره بشأن يوم الغد ، يحل بدقته المعهودة بعض التفاصيل التي لن تكون لها أهمية بعد هذا اليوم .

يصعد إلى مكتبه في الساعة السابعة والنصف ، ومن دون أن يضيع دقيقة واحدة ، سيطلق رصاصة في قلبه .

هنا يتوقف لوران ، فثمة شيء غامض دائماً: هل مات دوبون على الفور ، أم لا ؟

لنفترض أنه جرح فقط ، كان يملك بعدُ القوة ليطلق رصاصة ثانية ، بما أن الطبيب يؤكد أن دوبون تمكن من نزول السلم والسير حتى سيارة الإسعاف . وإذا وافقنا أن المسدس كان مزنجراً ، فقد كان في حوزة البروفسور وسائل أخرى: أن يقطع شرايينه ، على سبيل المثال ، فهو رجل من النوع الذي يمكنه أن يمسك بأداة حادة جاهزة ، في حال تعطل المسدس . يقال إنه تلزم شجاعة فائقة للانتحار ، يمكن أن نعزوها بطيبة خاطر للشخصية أكثر من العدول المفاجئ عن الفكرة .

بالمقابل ، إذا كان دوبون نجح في الانتحار تماماً ، فلماذا يخلق الطبيب والخادمة العجوز هذه القصة: نادى دوبون وهو جريح من أعلى السلم طالباً المساعدة ، عندها لم تكن حياته حتى تلك اللحظة تبدو في خطر ، إذ تحصل وفاته فجأة عندما يصل إلى العيادة . يمكننا الاعتقاد أن الدكتور جيوار فضّل هذه النسخة حتى لا يُوجّه إليه اللوم لأنه نقل ميتاً: كان لا بد أن يكون دوبون على قيد الحياة حتى يحق له نقله؛ ومن ناحية أخرى ، كان يجب أن يكون على قدميه ، حتى لا يكون لناقلي الجرحى مجال للتدخل ، وأخيراً ، هذه المدة القصيرة التي بقيت فيها الضحية حية سمحت لها أن تعلن بوضوح بنفسها مباشرة ظروف

الجريمة. قد يكون دوبون نفسه قد طلب هذا الإجراء الاحتياطي في رسالته. لكن الغريب هنا أن الطبيب أكد ذلك هذا الصباح ، لدرجة أننا فهمنا أن الجرح بدا له من دون خطر في بداية الأمر - وهذا ما يجعل الموت مع ذلك مفاجئاً. أما بالنسبة إلى المدبرة ، لا تبدو حتى أنها افترضت موت الضحية. ومن المدهش أصلاً أن دوبون ، أو جيوار اعتمد حلاً أجبره على إطلاع المرأة العجوز على السر ، والأكثر إدهاشاً أيضاً هو أن هذه المرأة لعبت دورها بكثير من المهارة أمام المفتشين ، بعد ساعات قلائل من الجريمة.

ثمة فرضية أخرى: أطلق دوبون رصاصة ثانية على نفسه عند وصوله إلى العيادة. وهكذا فإن السيدة سميت تجهل ذلك ، وشهادتها المحتملة يجب أن تؤخذ بعين الاهتمام من قبل الطبيب في إعداداته لشهادته. لسوء الحظ ، إذا كان من المعقول أن يكون الطبيب وافق على تمويه انتحار صديقه ، لا يمكننا أن نتخيل أنه قدم له إمكانية تحقيق ذلك .

لنلخص: يجب أن نعد مؤكداً أن دوبون قتل نفسه دون مساعدة الطبيب أو المدبرة ، إذ قام بذلك عندما كان وحده ، أي ، إما حين كان في مكتبه الساعة السابعة والنصف ، أو في غرفته بينما كانت المدبرة العجوز تتصل بالعيادة عبر الهاتف من مقهى مجاور. بعد عودة السيدة العجوز ، بقي دوبون باستمرار برفقة أحدهم ، المدبرة أولاً ، والطبيب بعد ذلك ، وكلاهما منعه من معاودة الانتحار. وقد يكون أيضاً أطلق على نفسه الرصاصة الأولى في مكتبه ، والثانية في غرفة النوم ، لكن هذه التعقيدات لا تسهل الأمور ، فدوبون ، على أية حال ، لم يكن يبدو في خطر عند وصول الطبيب. وواقع الأمر ، من المنصف ألا يكون حُسن النية الذي تتمتع به المدبرة موضع شك (وحده الطبيب متواطئ في إخفاء الحقيقة). عند مغادرته المنزل ، لم يكن دوبون ميتاً ، كان يستطيع السير إلى حد ما ، كان الطبيب مضطراً لذكر ذلك ، لئلا تناقضه المدبرة. من

ناحية أخرى ، كل ذلك يمكن حسابه مسبقاً: بما أن المدبرة خارج اللعبة ، كان يجب تجنب أن ترى الجثة وهي تحمل مسدساً ، مما يترك لها فرصة أكبر في استنتاج الانتحار ، ويسمح لها ، بالإضافة إلى ذلك ، بأن تذهب بحثاً عن أي طبيب ، وحتى شرطة النجدة .

الحل إذاً هو التالي: يطلق دوبون في صدره رصاصة يدرك أنها قاتلة ، لكنها تترك له مهلة كافية ليعلن عن جريمة قتل . هو يفيد من صمم المدبرة لكي توافق على فكرة هرب القاتل المفاجئ عبر المنزل . بعد ذلك ينتظر بهدوء وصول الطبيب الصديق ، ويشرح له ما يتوجب عليه فعله بعد وفاته . ينقل جوار الجريح ويحاول عندها إنقاذه رغماً عنه . . .

ثمة شيء لا يسير دائماً على ما يرام: إذ كان دوبون يبدو بحالة جيدة ، ولا يمكنه أن يتأكد تماماً أن جرحه لا شفاء منه .

ونعود إلى فرضية الإخفاق الظاهر الذي يتبعه تراجع في آخر لحظة أمام الموت . لم يصوب دوبون جيداً؛ أطلق على نفسه طلقة لا خطر منها ، لكنها أصابته إلى حد كاف جعله يعدل عن مشروعه . عندها طلب النجدة ، لكنه لم يشأ أن يصرح بالحقيقة ، فاخترع قصة الاعتداء العنيفة . ما إن وصل الطبيب حتى جرى إلى العيادة لإجراء عملية ، من دون انتظار النقالة . ومع ذلك ، فإن جرحه كان أخطر مما نظن ، فبعد ساعة واحدة كان ميتاً . وهكذا ، لم تكن تصريحات المدبرة صادقة فحسب (حتى إنها رأت باباً مفتوحاً ما كان يجب أن يكون كذلك) ، بل من الممكن أن تكون تصريحات الطبيب صادقة أيضاً: ليس من الضروري أن يكشف الطبيب النسائي أن الرصاصة أطلقت عن كذب . أما الوزير فكان يعرف سر القضية ، بفضل رسالة تلقاها في الوقت المناسب ، فأوقف التحريات وطلب الجثة .

يعلم المفوض لوران تماماً أنه الآن سيعود ثانية إلى حججه الواهية ، ذلك أن هذا الحل بالتحديد لا يروق له تماماً . فمابرح منذ هذا الصباح يصل إلى النتيجة نفسها في كل محاولة جديدة ، ومع ذلك يرفض الموافقة عليها . كان يفضل أية فكرة مستبعدة على هذه التغييرات المفاجئة في الرأي ، المتكررة ، والتي نعزوها عموماً إلى غريزة البقاء؛ لكنها لا تتناسب تماماً مع شخصية الأستاذ ، والشجاعة التي أظهرها في ظروف عدة ، وسلوكه على الجبهة أثناء الحرب ، وعناده في الحياة العامة ، وقوة شخصيته الأكيدة . كان بوسعه أن يقرر الانتحار ، ومن الممكن أن يتراجع فجأة بعد أن بدأ بتنفيذ مشروعه .

ومع ذلك ، إذا وضعنا ذلك جانباً ، لم يبقَ سوى تفسير واحد: جريمة القتل ، وبما أنه ليس هناك من قاتل ممكن ، يجب اعتماد نظرية فالاس: الشبح «الشرير» ، ذو الأهداف الغامضة والمتآمرين الذين تعذر إمساكهم . . . يضحك المفوض لوران وحده من ذلك ، لما يجده من سخف في اكتشاف الوزير الأخير . فهذه القضية معقدة أصلاً بما فيه الكفاية ، ولا حاجة للبحث عن حماقات مشابهة .

ومن الغباء حقاً أن نستمر في القلق من أجل أحجية تم إبطالها في أوانها (على نحو مناسب) . ومن ناحية أخرى ، حان وقت الغداء .

لكن الرجل الفقير الأصهب لا يقدر أن يغادر مكتبه . يفكر أنه سيتلقى أخباراً من فالاس خلال وقت الصباح ، لكنه لم يتلقَ زيارة ثانية ولا اتصالاً هاتفياً منه . هل قُتل المبعوث الخاص بدوره على يد المجرمين؟ اختفى نهائياً ، طوته الظلمات؟

واقع الأمر أننا لا نعلم شيئاً عن فالاس هذا ، ولا عن طبيعة مهمته . ما حاجته مثلاً إلى المجيء عند لوران قبل البدء في عمله؟ لا يملك المفوض سوى

شهادتي الطبيب والخادمة العجوز؛ كان بإمكان مبعوث العاصمة أن يستجوب هاتين الشخصيتين مباشرة . لم يكن يحتاج لموافقة خاصة للدخول إلى بيت الميت - فهو اليوم مفتوح على مصراعيه ، تحرسه نصف مجنونة .

يمكننا القول - في هذا الصدد- على الأقل إن تصرف الوزارة سطحي؛ ففي قضية إجرام لا يمكن . . . ولكن ، أليست هذه الوقاحة أفضل دليل على أن الأمر يتعلق بانتحار وأنهم يعرفون ذلك تماماً ، هناك؟ ومع ذلك ، قد يسبب لهم هذا في وقت لاحق مضايقات مع الورثة .

وفالاس إذاً ، ماذا يفعل في خضم هذه الأحداث؟ هل أطلق فايوس الشهير هذا التحري المضاد بسبب خطأ في نقل أوامر «روا-دوزيه»؟ أم ربما كان المبعوث الخاص يعلم أيضاً أن دوبون انتحر؟ قد تكون مهمته فقط استعادة الأوراق المهمة من جناح شارع «آربانتور» ، ولم تكن زيارته للمفوضية العامة سوى زيارة مجاملة . إذا كان من ضرورب المجاملة المحيي للسخرية من موظف مهم بسرد قصص نساء يخصونه . . .

ولكن لا ! نرى جيداً أن فالاس صادق؛ فهو يؤمن بحزم بما يقول ، أما زيارته المباغتة ، أفليست إشارة إضافية تدل على أنه لا يتمتع بالثقة في العاصمة؟ ووصل المفوض العام إلى هذه الأفكار ، عندما قاطعه قدوم شخص غريب .

يرى لوران الباب يُفتح بهدوء ، من دون أن يُعلن الحاجب عن وصول شخص ، ومن دون أن يقرع الباب ، ويتقدم رأسٌ عبر الفتحة ، ليتفحص الغرفة بنظرة قلقة . يسأل المفوض ، وهو على وشك طرد الزائر الوقح :

- من الطارق؟

لكن هذا الشخص يدير وجهه الطويل ، واضعاً سبابته عمودياً على شفثيه ، طالباً الصمت ، ويشرع في إيماءة تهريجية ، آمرة ، ويتوسل في آن . ويكمل دخوله في الوقت نفسه ، ثم يغلق الباب في حذر بالغ . ويسأل المفوض :

- وبعد ، أيها السيد ، ماذا تريد؟

لا يعلم ما إذا كان يتوجب عليه أن يغضب ، أو يضحك ، أو يقلق . ولكن يبدو أن صوته القوي يصيب زائرته بالرعب . وواقع الأمر أن هذا الزائر ، الذي يريد ، على العكس ، أن يُحدث أقل ضجة ممكنة ، يمد ذراعه نحوه ، في حض مؤثر على الهدوء ، وهو يقترب من المكتب ، على رؤوس أصابعه . ولوران الذي نهض ، يتراجع تلقائياً نحو الجدار . يهمس المجهول :

- لا تخشى شيئاً ، ولا تنادي أحداً بالأخص ! وإلا فقدتني .

إنه رجل ناضج ، وطويل ، ونحيل ، يرتدي الأسود . لهجته المعتدلة ، ووقار لباسه البرجوازي يطمنن المفوض قليلاً .

- هل أتشرف بمعرفة السيد؟

- مارشا ، أدولف مارشا . تاجر . اعذرني على هذا التطفل ، سيدي المفوض ، ولكن عندي بلاغ مهم أود الإفضاء به إليك ، ولأنني أفضل أن يبقى مسعاي مجهولاً بالنسبة إلى الجميع ، فكرت أن خطورة الظروف تسمح لي
ب

يقاطعه لوران بحركة تعني : « هذا طبيعي في هذه الحال ! » لكنه ممتعض :
فقد لاحظ أنفاً أن تناوب الحجاب لا يسير على نحو جيد خلال ساعات العمل ،
يجب أن يُنظّم ذلك .

يقول: - تفضل بالجلوس

يستعيد وضعه الطبيعي ، فيمد يديه الاثنتين على مكتبه ، وسط الأوراق .

يجلس الزائر على المقعد المشار إليه لكنه يجده بعيداً جداً ، فيبقى على الطرف ، وينحني إلى الأمام أقصى ما بوسعه ، بحيث يمكنه أن يوضح ما يقول من دون أن يرفع صوته:

- جئت بخصوص موت هذا المسكين دوبون .

لا يُدهش لوران البتة؛ إذ كان ينتظر هذه الجملة ، من دون أن يدرك الوضع تماماً . هو يعرفها ، وكأنه سمعها من قبل . إنه يهتم للآتي :

- حضرتُ اللحظات الأخيرة لصديقنا التعس . . .

- ها ، كنتُ صديق دانييل دوبون .

- دعنا لا نبالغ ، سيدي المفوض ، سبق أن تعرفت إليه منذ زمن طويل ، هذا كل شيء . وأرى ، بالضبط ، أن علاقتنا . . .

يصمت مارشا ثم يعلن بعد أن أخذ قراراً مفاجئاً ، وبصوت مأساوي - لكنه منخفض كالسابق :

- سيدي المفوض ، يجب أن أقتل هذا المساء! هذه المرة يرفع لوران ذراعه إلى السماء . لا ينقصه سوى هذا الأمر!

- ما هذا المزاح؟

- لا تصرخ ، سيدي المفوض ، وقل لي ما إذا كنت أبدو مازحاً .

بالفعل ، لم يكن يبدو كذلك . يضع لوران يديه من جديد فوق المكتب .

يتابع مارشا: - هذا المساء، علي أن أذهب إلى مكان ما حيث ينتظرنني القتلة - هؤلاء الذين أطلقوا النار على دوبرون - وبدوري . . .

يصعد السلم بهدوء .

لقد بدا له هذا المنزل كثيباً على الدوام . السقوف المرتفعة جداً، النجارة الغامقة، والزوايا حيث تتراكم الظلمات التي لا يتمكن النور الكهربائي من طردها أبداً، كل شيء فيها صُنع ليزيد الكآبة التي تستحوذ على المرء لدى دخوله .

يلاحظ مارشا هذا المساء تفاصيل لم تكن لفتت نظره حتى الآن: أبواب تُصّر، أبعاد مقلقة، ظلال لا تفسير لها . أسفل الدرابزين يعبسُ رأس مجنون .

يتباطأ الصعود من درجة إلى درجة . وأمام اللوحة الصغيرة ذات البرج المدرّ، يتوقف المحكوم عليه . يود أن يعلم الآن ماذا تعني هذه اللوحة .

بعد دقيقة، سيكون قد فات الأوان، لأنه لم تعد هناك سوى خمس درجات للوصول، حيث سيموت .

لا يتأثر المفوض على الإطلاق بالنبرة المحزنة لمُحدّثه . يطلب منه إيضاحات: من سيقتل مارشا؟ أين؟ لماذا؟ وكيف يعلم هو ذلك؟ لم يُشر الدكتور جيوار من ناحية أخرى، إلى وجوده في العيادة، ما السبب؟ يكاد لوران يخفي فكرته، هو مقتنع تقريباً أنه أمام معتوه، قد لا يكون عرف الأستاذ، وأن هذيان الاضطهاد وحده قاده إلى تخيلات لا معنى لها كتلك . لو لم يكن يخشى ردة فعل هذا المجنون العنيفة، لطرده على الفور .

ومع ذلك، يتحدث مارشا بحدة، لأن ما يقوله جدّي جداً . ثمة أشياء لا يمكن أن يكشفها، لسوء الحظ، لكنه يتوسل مساعدة المفوض: لا يمكنه أن يترك بريئاً يُقتل بهذه الطريقة ! يفقد لوران صبره :

- كيف تريدني أن أساعدك إذا لم تخبرني بشيء؟ يقص مارشا أخيراً كيف وجد نفسه بالمصادفة أمام عيادة جيوار، شارع كورينته، في اللحظة التي كان ينقل فيها الطبيب الجريح. اقترب بدافع الفضول وتعرف إلى دانييل دوبون، الذي كان قابله، في ظروف مختلفة، عند أصدقاء مشتركين. عرض خدماته للمساعدة في نقل المصاب، لأن الطبيب كان وحيداً. وإذا كان الطبيب لم يُشِر إلى تدخله، فذلك تلبية لطلبه الملح: لم يكن يرغب بأن يزعج اسمه في هذه القضية، بأية حال من الأحوال. بيد أن الوضع الذي وصلت إليه الأحداث أجبرته على طلب حماية الشرطة.

يدهش لوران: هل كان الدكتور جيوار سيوافق على مساعدة مار، بينما كان تحت تصرفه فريق عمل متخصص؟

- لا، يا سيدي المفوض، لم يكن هناك أحد في تلك الساعة.

- لا أحد؟ كم كانت الساعة؟

يتردد مارشا بضع ثوان قبل أن يجيب:

- كانت حوالي الثامنة، الثامنة والنصف، لا أعرف تماماً.

أما جيوار فقد اتصل بالشرطة في التاسعة ليعلن عن وفاة دوبون. يسأل لوران:

- ألم يكن ذلك بعد التاسعة على الأغلب؟

- لا، لا: في التاسعة، كان دوبون المسكين قد مات.

إذاً، صعد مارشا إلى غرفة العمليات. كان الطبيب قد أكد أنه ليس بحاجة إلى مساعد في العملية التي لم تكن خطورتها البالغة قد ظهرت بعد. ومع ذلك،

كان دويون يخشى الأسوأ، لذلك فقد استفاد من بعض اللحظات التي أتاحت له قبل أن يُخدَّر ليكشف ظروف الاعتداء. لاشك أن مارشا وعد بالآ ينشرها، مع أنه لا يفهم لماذا يخفي السر على الشرطة. على أية حال، هو لا يعتقد أنه نكث عهده عندما كشف للمفوض العام المهمة التي كلفه بها الأستاذ، مع أن لاشيء يشير، كما يكرر، إلى أنه مؤهل لمغامرة كهذه. المقصود التسلسل اليوم بالتحديد إلى الجناح الصغير في شارع «آربانتور» لأخذ ملفات، وتوصيلها بعد ذلك إلى شخصية سياسية مشهورة، فلهذه الأوراق أهمية بالغة بالنسبة إليه.

ثمة شيان لا يفهمهما لوران. أولاً: لماذا يتوجب على هذه العملية أن تبقى سرية؟ (هل بسبب الورثة؟). ومن ناحية أخرى، ما الخطر الذي تخويه؟ أما عن «ظروف الاعتداء» فيمكن لمارشا أن تقرر عنه: فمن السهل إعادة تشكيلها!

بعد أن أضاف ذلك، يغمز المفوض الذي ما زال يؤمن بفرضية الانتحار، يغمز بعينه لمحدثه بتواطؤ، لم يعد يدري ماذا يفكر بمارشا: فبعد التوضيحات التي أعطاهها عن نهاية صديقه، نحن مضطرون للإقرار بأنه كان موجوداً بالفعل في العيادة، الليلة الفائتة مساءً؛ ومع ذلك فإن بقية حديثه بعيد عن المنطق وغامض، لدرجة يصعب معها استبعاد فرضية الجنون.

يقابل إشارات التواطؤ الموجهة إليه بجرأة، ويتحدث الوسيط الآن بكلمات واضحة عن تنظيم إرهابي، وكفاح منظم ضد مجموعة سياسية هي... عندما يرى لوران أين سيصل الآخر، يجنبه الإحراج:

- مجموعة سياسية يُقتل أعضاؤها على التوالي، الواحد تلو الآخر، كل مساء في الساعة السابعة والنصف! ومارشا، الذي لم يلاحظ الابتسامة الساخرة التي كانت ترافق هذه الجملة، يبدو كأنه أحس بارتياح عميق. يقول:

- آه، كنت أعرف أنك على علم بذلك؛ مما يسهل الأمور كثيراً. إن ترك

الشرطة في حالة جهل للحقيقة كما كان دوبون ينوي أن يفعل ، لا يمكنه إلا أن يؤدي إلى نتائج وخيمة . لطالما كررت له اعتقادي بأن الشرطة هي المعنية ، على العكس ، وليس أنا ! لم تكن هناك وسيلة لجعله يعدل عن لغزه السخيف . لذلك بدأت بهذه التمثيلية؛ وبما أنك كنت تجيبني باللهجة ذاتها ، لم نكن نصل إلى حل . وستمكن الآن من الحديث .

يقرر لوران أن يعطي الرد . ومن الغريب أن نرى ما سيصل إليه كل ذلك .
- كنت تقول أن دانييل دوبون ، قبل أن يموت ، كلفك بمهمة سرية كدت تخاطر بحياتك فيها؟

يحدق مارشا فيه . « قبل أن يموت؟ » لم يعد يدري ما يقول ، وما يمكن أن يقول ، وما عليه أن يخفي . يلح لوران : - إذاً ، لماذا تظن أن فخاً نُصب لك في هذا المنزل؟

- الطبيب ، سيدي المفوض ، الدكتور جيوار ! قد سمع كل شيء!
كان الدكتور جيوار حاضراً عندما شرح دوبون أهمية الملفات المذكورة ، وما يجب أن يفعل بها . ما إن سمع بأن على مارشا أن يذهب لإحضارها ، حتى انسحب بذريعة واهية ، وذهب ليتصل هاتفياً بزعيم العصاة ليحذره . أخذ مارشا احتياظه بأن كرر عالياً أنه لا ينتمي إلى مجموعة؛ لكنه علم أن الطبيب لا يصدق كلمة مما قال ، مما دعا الآخرين لأن يقرروا مباشرة أن يجعلوا من الوسيط ضحية هذا المساء . وهذا ما يتوجب على الشرطة منعه ، لأن ذلك خطأ ، خطأً أساسياً : فلم يكن للوسيط أية صلة بهذه المجموعة ، وهو ليس مؤيداً لتنظيمهم ، ولا يريد أن . . . يقول لوران :

- انتظر ، هدى من روعك . هل سمعت ما قاله الطبيب بالهاتف؟

- لا . . . أقصد: ليس بالتحديد ، ولكن . . .

كان يكفي أن نرى وجهه لنفهم ما ينوي فعله .

مارشا هذا ، يجب أن نصنّفه حتماً مع روا-دوزيه . ولكن من أين أتى هذا الجنون الجماعي؟ أما ما يخص دوبون ، نحن نفهم أنه وجد من السهل اتهام الفوضويين الغامضين ، ومع ذلك كان الأجدر به أن يرسل أوراقه بنفسه ، قبل أن ينتحر . وهناك نقاط أخرى ليست بعد واضحة تماماً . ولسوء الحظ ، ليس بوسعنا أن نأمل توضيحها باستجواب هذا الرجل .

يشير له المفوض كي يتخلص منه ، إلى طريقة ناجعة للفرار من هؤلاء القتلة: بما أنهم لا يمكنهم القتل إلا في الساعة والنصف تماماً ، يكفي أن يذهب لأخذ الملفات في ساعة أخرى .

فكر الوسيط في ذلك قبلاً ، ولكن لا يمكن للمرء أن يقلت بهذه السهولة من تنظيم قوي كهذا: سيحتفظ به القتلة حبيساً في المنزل ويقتلونه في الساعة التي اختاروها ، فهم هناك بانتظاره ، لأن الطبيب لم يحدد الساعة التي سيذهب فيها مارشا إلى منزل الأستاذ ، لأنه يجهل ذلك . . .

- هل سمعت ما قاله الطبيب على الهاتف؟

- لم أسمع تماماً ، ما عدا كلمة من وقت لآخر . . . ولكن مع ما فهمت ، أعدت تشكيل المحادثة كلها .

«بدأ لوران يفقد صبره ويظهر ذلك أكثر فأكثر لزائره . وبدأ هذا الأخير ، من جانبه ، يثور تدريجياً ، وينسى للحظات همسه وحذره :

- أن أهدأ ، أهدأ ! أنت رجل طيب سيدي المفوض ! لو كنت مثلي ، تحسب منذ الصباح الساعات التي بقيت لك في الحياة . . .

- يقول لوران: - ها ، ولماذا منذ هذا الصباح فقط؟
- ذلك أن الوسيط قرر «منذ مساء الليلة الفائتة» أن يتكلم . يصحح على عجل: لم يغلق عينيه طوال الليل .
- يعلن له المفوض في هذه الحال: كان مخطئاً . كان بوسعه أن ينام قرير العين: لم يعد هناك قتلة ولا مؤامرة . فدانييل دوبون انتحرا! يبقى مارشا مذهولاً لبرهة . ثم يستعيد توازنه على الفور :
- هذا مستحيل ! بوسعي أن أؤكد أن الأمر ليس انتحاراً .
- ها ، وكيف تعرف ذلك؟
- هو قال لي ذلك بنفسه . . .
- قال ما يريد .
- لو كانت لديه النية في الانتحار ، لكرر المحاولة .
- لم يكن ذلك ضرورياً ، لا ، هذا مستحيل ، مستحيل ! رأيت الدكتور جيوار يتصل . . .
- هل سمعت ما قاله الدكتور جيوار على الهاتف؟
- نعم ، سمعت كل شيء . أفهم ، لم تفتني كلمة واحدة ! الملفات الحمراء ، ومصنف المكتب ، والضحية المحددة التي ستأتي بنفسها كي تقع في الشرك . . .
- إذاً ، اذهب الآن: فهذا ليس «وقت الجريمة»!
- أقول لك إنهم ينتظرونني مسبقاً هناك!
- هل سمعت ما قاله الدكتور . . .
-

يفادر الوسيط . لقد صار رأيه معروفاً الآن .

كان دوبون محققاً: المفوض العام يعمل لصالح القتلة . لا يمكن شرح تصرفاته على نحو آخر . كان يريد إبطال شكوك مارشا بإقناعه بأنه لا مؤامرة على الإطلاق وأن دوبون انتحر . انتحر ! لحسن الحظ أن مارشا توقف في الوقت المناسب على طريق البوح بالأسرار .

ولكن لا ! ليس هنا ما يدعو للخوف: فالمفوض يعلم تماماً أن دوبون لم يمت ، بما أن الطبيب جيوار يطلعهم على كل شيء . هم يُظهرون اعتقادهم بأنه ميت لإنهاء القضية بسهولة أكبر خلال بضعة أيام . ما يريدونه الآن هو استدراج مارشا إلى الجناح الصغير لقتله عوضاً عن الأستاذ ، انتظاراً لقدم دوره .

إذاً، الأمر بسيط جداً: لن يذهب لإحضار الملفات - لا في السابعة والنصف ، ولا في ساعة أخرى (لأنه ليس بهذا الغباء ليقع في فخ المفوض: فالقتلة سيقون في الحراسة من دون شك طوال وقت مابعد الظهيرة - دوبون نفسه ، عندما سيعرف الوضع الدقيق ، سيكف عن الإلحاح بهذا الخصوص . لن يكون على روا-دوزيه سوى أن يرسل محققاً آخر .

لن يكتفي مارشا بهذه الإجراءات السلبية ، فقد يجد القتلة من دون مشقة الفرصة في الانتقام لفشلهم . يجب أن يكون في ملجأ من أية محاولة جديدة . وأفضل وسيلة لذلك مغادرة المدينة في أسرع وقت ممكن ، والذهاب للاختفاء في مكان بعيد في الريف . قد يكون من الحكمة أيضاً أن يصعد في أول سفينة ويقطع البحر . . .

لكن الوسيط مارشا ليس في حالة اتخاذ قراره الأول منذ بداية النهار ،

وهو يترجح بين جهة وأخرى ، مقتنعاً - في كل مرة- أن الجهة التي اختارها هي الأفضل :

الإفضاء بالسر للشرطة ، أم لا؛ الهرب من دون تأخير من المدينة - أم الانتظار؛ إعلام الأستاذ بقراره - أم لا؛ الذهاب على الفور لإحضار الملفات ، شارع آربانتور ، أم عدم الذهاب البتة . . .

إنه لم يعدل نهائياً- في واقع الأمر- عن فكرة تقديم خدمة لصديقه . وهو يجد نفسه باستمرار في محاولة جديدة ، أمام الجناح المحاط بشجر المضاض . . . يدفع الباب الثقيل من خشب السنديان ، الذي أعطاه دويون مفاتيحه . يصعد السلم بهدوء . . .

ولكن الصعود يتباطأ من درجة إلى درجة . لن ينهيه أبداً . إنه متيقن ، هذه المرة ، مما ينتظره إذا تابع حتى غرفة المكتب . لن يذهب إلى هناك . سيبلغ الأستاذ ويعيد له المفاتيح .

يفكر ، مع ذلك في الطريق ، بصعوبات المسألة: فدويون ، كما يعرفه ، لن يقبل بأسبابه؛ وإذا نجح الدكتور - الذي لا يتورع عن التصنت خلف الباب - في سماع حديثهم ، وعلم أن مارشا عدل عن الفكرة ، سيفقد مارشا حينها -فضلاً عن ذلك- فرصته الأخيرة في النجاة من القتلة؛ لأنهم ، بدلاً من انتظاره حتى الساعة السابعة والنصف في الفخ الذي من المفترض أن يقع فيه ، سيتمكنون منه بدءاً من الآن متتبعين خطاه ، على نحو لن تكون لديهم فيه الحرية في الاختباء أو الهرب .

من الأفضل إذاً الذهاب على الفور إلى هناك ، بينما من المحتمل ألا يكون الآخرون بدؤوا حراستهم .

يصعد السلم ، البيت ساكن كالعادة . . .

وقبل أن يتوقف تماماً ، كان سطح الجسر المتحرك يهتز بتموج خفيف .
لكنه غير مهتم بهذه الحركة غير الملاحظة تقريباً ، كان سائق الدراجة قد اجتاز
البوابة ليتابع طريقه :

- صباح الخير ، يا سيدي .

صرخ : «صباح الخير» وهو يقفز على آلتِه ، بدلاً من «إلى اللقاء» . كانا قد
تبادلا عبارتين أو ثلاثاً عن الطقس ، بانتظار أن يُفَتَح الطريق من جديد .

للجسر طبقة واحدة ، ومحور دوران النظام موجود على الجانب الآخر
من القناة . كانا ينظران من أسفل سطح الجسر والرأس مرفوع ، إلى ازدحام
الدعائم المعدنية والحبال ، وهي تختفي تدريجياً عن الأنظار .

ثم مر الطرف الحر أمام أعينهم ، ممثلاً مقطعاً من الرصيف؛ وفجأة ، لاحظا
سطح الإسفلت الأملس كله الممتد إلى الضفة الأخرى ، بين الرصيفين المحاذيين
للدرازين .

استمرت نظراتهما في الانخفاض بهدوء ، وهما يتابعان حركة المجموعة ،
حتى صارت الزاويتان الحديديتان المصقولتان بفعل عجلات السيارات الواحدة
مقابل الأخرى تماماً . وفي الحال ، توقف ضجيج المحرك والمستنات ، وفي
السكون ، توقف الجرس الكهربائي معلناً للمشاة من جديد السماح بالمرور .

كّرر سائق الدراجة: - أنا لا يدهشني ذلك!

- ذلك ممكن . أتمنى لك التوفيق!

- صباح الخير ، يا سيدي .

ولكن ، يمكننا الاستنتاج من الجانب الآخر من الحاجز أن كل شيء لم يتم بعد: فلم ينته هبوط سطح الجسر مع توقف الحركة الآلية ، وذلك نتيجة لمرونة ما في الكتلة ، واستمر بضع ثوان ، لمسافة سنتيمتراً واحداً تقريباً ، محدثاً ميلاً خفيفاً في استمرارية الرصيف . يحدث صعود خفيف يُبعد بدوره الإطار المعدني بضع مليمترات فوق وضعية التوازن الطبيعية ، فالهزات التي أُخمدت تدريجياً ، وأصبح من الصعب تمييزها ، تزيل بسلسلة من الامتدادات والتراجعات المتتابعة ، من جهة إلى أخرى ، وبثبات وهمي تماماً ، تزيل ظاهرةً كانت انتهت ، مع ذلك ، منذ وقت يستحق الذكر .

هذه المرة ، فُتح الجسر لحركة المرور . لم يطلب أي قارب المرور . الموظف ذو السترة الزرقاء القائمة اللون ، والعاطل عن العمل ، ينظر إلى السماء وهو شارد . يحول بصره نحو المار المتقدم ، فيتعرف إلى فالاس ، يشير له بحركة من الرأس ، كشخص اعتاد أن يراه كل يوم .

تبدو الزوايا المعدنية ثابتة على طرفي الممر الذي يحدد الجزء المتحرك ، وفي المستوى نفسه ، على نحو ملحوظ .

ينحرف فالاس - في نهاية شارع جوزيف - جانك - يميناً في الشارع الدائري . يمتد شارع جوناس على بعد أمتار عدة ، وفي زاويته يوجد بالفعل مكتب صغير للبريد .

هو مكتب حي صغير: ست كوات فقط وثلاث حجرات هاتف ، ثمة حاجز زجاجي مخشّن عند باب المدخل فوقه طاولة ممتدة ، مائلة قليلاً ، يملأ عليها الزبائن الأوراق .

الصالة خاوية في هذه الساعة من النهار ، لا نلاحظ من جانب الموظفين لا

نلاحظ سوى سيدتين مستتين تقضمان شطائر فوق فوط نظيفة . يجد فالاس أنه من الأفضل انتظار أن يكتمل عدد الموظفين لكي يبدأ تحرياته . سيعود في الساعة الواحدة والنصف . على أية حال سيتوجب عليه عاجلاً أم آجلاً ، أن يذهب لتناول الغداء .

يتوجه نحو إعلان ملصق حديثاً ، كما يبدو ، ليسوغ دخوله ، ويظهر أنه يقرأه باهتمام .

الإعلان سلسلة من المقالات تعلن بعض التغييرات المفصلة التي أحدثتها الوزير في تنظيم البريد ، والبرق ، الهاتف . لا شيء يمكن أن يفيد الناس إجمالاً ، ما عدا بعض القضايا المتخصصة . بالنسبة إلى الجاهل ، كما لا تظهر طبيعة هذه التغييرات بوضوح ، إلى حد تساءل فيه فالاس ما إذا كان ثمة فرق بين الوضع الجديد للأمور ، وما كان موجوداً في السابق .

كان لديه عند خروجه الانطباع بأن السيدتين تراقبانه في حيرة .

يلمح فالاس وهو عائد أدراجه ، من الطرف الآخر لشارع جانك مطعماً آلياً صغير الحجم ، لكنه مجهز بأحدث الأدوات . تصطف على الجدران أجهزة ملمعة لتوزيع الأطعمة ، وهناك الصندوق - في الداخل - حيث يمكن للمستهلكين الحصول على قطع معدنية خاصة . الصالة مشغولة طويلاً بصفين من الطاولات المستديرة الصغيرة المصنوعة من البلاستيك ، مثبتة إلى الأرض . يقف أمام هذه الطاولات حوالي خمسة عشر شخصاً - المتبدلون باستمرار - يأكلون بحر كات سريعة ومحددة . وشابات بسترات بيضاء خاصة لعاملات مخبر يزرن الأطباق وينظفن الطاولات المهجورة بالتتابع . ثمة لائحة - على الجدران المطلية بالأبيض - موزعة في أماكن عدة ، كتب عليها : «أسرعوا ، شكراً»

يمر فالاس أمام الأجهزة . يحتوي كل واحد منها على سلسلة من الأطباق الخزفية - الموضوعة على سلسلة من الصواني الزجاجية بأبعاد متساوية - وفيها الوجبة الغذائية ذاتها، مع فارق بسيط بورقة خس تقريباً . عندما يفرغ عمود، تملأه أيدٍ من دون وجه من خلف الفراغات .

لم يكن فالاس لدى وصوله إلى آخر موزع، قد قرر بعد ما يريد . لا أهمية لخياره على أية حال ، لأن الوجبات المختلفة المقترحة لا تختلف سوى من حيث ترتيب العناصر المكونة على الطبق؛ ذلك أن العنصر الأساسي هو سمك الرنكة المنقوع .

يلاحظ فالاس في الواجهة الزجاجية لهذا الموزع ستة أطباق متماثلة موضوعة الواحد فوق الآخر تحتوي على التركيبة الآتية: تمتد على طبقة من شريحة الخبز الطري المدهون بالزبدة النباتية، شريحة من سمك الرنكة، ذات الجلد الأزرق اللامع؛ إلى اليمين بضع قطع من الطماطم، وإلى اليسار ثلاث حلقات من البيض المسلوق؛ فوق السمك، وفي مواقع محددة، ثلاث زيتونات سوداء . وكل صينية تحتوي على سكين وشوكة، بالإضافة إلى ذلك . لاشك أن أقراص الخبز مصنوعة وفق قياسات محددة .

يُدخل فالاس قطعته المعدنية في الفتحة، ويضغط على الزر، فيبدأ عمود الأطباق كله بالنزول؛ مرفقاً بالحرير الممتع للمحرك، ويظهر في الحجرة الفارغة الموضوعة في الجزء السفلي يظهر الطيف المطلوب، ثم يثبت . يتناوله، مع السكين والشوكة المرفقة ويضع الكل على طاولة فارغة . يعيد العملية نفسها من أجل كأس البيرة، وثم يبدأ بقطع وجبته إلى مكعبات صغيرة .

إنه ربع حبة طماطم متناسقة الأبعاد، قُطِعَ -في حقيقة الأمر- بالآلة؛ الجزء اللحمي المحيط الملتحم والمتجانس بلونه الأحمر الكيميائي الجميل منتظم

السماكة بين شريط من القشرة اللامعة والحجرة التي تصطف فيها البذور ،
الصفراء ، المنظمة بدقة ، المثبتة في مكانها بواسطة طبقة من المجمدة بلون مخضرّ
على طول انتفاخ القلب . هذا القسم بلونه الزهري المخفّف ، المبذّر يبدأ من
الانخفاض السفلي بحزمة من العروق البيضاء يمتدّ أحدها حتى البذور ، على
نحو مريب تقريباً .

في القسم العلوي ، ثمة حادث غير ملحوظ تماماً: طرف من القشرة بحجم
مليمتر أو مليمترات نزع من اللحم ، يخرج من مكانه على نحو خفي .

يجلس على الطاولة المجاورة ثلاثة رجال ، من موظفي السكك الحديدية .
المكان متاح أمامهم مشغول كله بستة أطباق وثلاث أكواب من البيرة .

يقوم الثلاثة بقطع ثلاث حلقات من الخبز بالجبن إلى مكعبات صغيرة .
تحتوي الأطباق الأخرى ، كل واحد منها ، على تشكيلة: رنكة - طماطم - بيض
مسلوق - زيتون التي يملك فالاس نسخة منها . ماعدا لباسهم الموحد ، لهؤلاء
الرجال الثلاث الطول وحجم الجسم نفسهما ، ولهم كذلك الرأس ذاته ، مع
فارق بسيط .

هم يأكلون بصمت ، بحركات سريعة ومحددة .

يشرب كل واحد منهم ، بعد أن أنهوا شطائرهم ، نصف كأس البيرة .
حوار مختصر يبدأ .

٢ - كم كانت الساعة ، كما قلت؟

- كانت حوالي الثامنة ، أو الثامنة والنصف .

- ولم يكن هناك أحد في تلك الساعة؟ هذا مستحيل! هو بنفسه قال

لي . . .

- قال ما شاء .

وبعد أن غيروا موقع الأطباق على الطاولة ، بدؤوا بالطبق الثاني . ولكن بعد لحظة قصيرة ، يتوقف الذي بدأ بالحديث عن الطعام ليختم :

- هذا غير معقول في الحالتين تماماً .

ثم صمتوا ، مأخوذين بمشاكلتهم الشائكة في قطع الطعام .

يشعر فالاس بإحساس مزعج في معدته . لقد أكل بسرعة . وهو يجبر نفسه الآن على متابعة الطعام بهدوء . سيتوجب عليه أن يتناول شرباً ساخناً ، وإلا ستؤلمه معدته كل وقت ما بعد الظهيرة . عندما سيخرج من هنا ، سيذهب لتناول فنجان من القهوة في مكان يمكن الجلوس فيه .

عندما أنهى موظفو السكك الحديدية طبقهم الثاني ، استأنف من حدد الساعة المناقشة :

- كان ذلك مساء أمس ، على أية حال .

- آه ، وكيف تعلم ذلك؟

- ألا تقرأ الصحف؟

- ها ، الصحف ، أنت تعلم! يرافق هذه الجملة بحركة واضحة . لهؤلاء الرجال الثلاثة وجوه وقورة ، ولكن من دون حماسة ، فهم يتحدثون بصوت حيادي رتيب ، وكأنهم لا يلقون اهتماماً كبيراً لأحاديثهم ذاتها . لاشك أن الأمر يتعلق بشيء لا أهمية له ، أو ثرثروا فيه مرات عديدة من قبل .

- والرسالة ، ماذا ستفعل بها؟

- برأيي ، هذه الرسالة لا تثبت شيئاً على الإطلاق .

- إذاً ، لن يثبت أي شيء أبداً .

وأنهوا كؤوس البيرة بالحركة نفسها ، ثم توجهوا نحو المخرج برتل منتظم . ما زال فالاس يسمع :

- على كل سنرى هذا غداً ، آمل ذلك .

يحتسي فالاس ، في مقهى يشبه مقهى شارع آربانتور إلى حد كبير ، ليس نظيفاً تماماً ، لكنه مدفاً جيداً ، يحتسي قهوة ساخنة جداً .

يبدل قصارى جهده من دون جدوى في الخروج من حالة الضيق الملحة هذه التي تمنعه من التفكير بجدية في قضيته . لا شك أنه يحمل جرثومة زكام ما . وهو الذي يفلت عادة من كل هذا النوع من الإرباكات الصغيرة ، عليه أن يشعر اليوم بالتحديد بأنه ليس على ما يرام . مع أنه استيقظ بكامل عافيته كالعادة ، ثمة ضيق لا يمكن تحديد موقعه اجتاحه شيئاً فشيئاً خلال فترة الصباح . لقد اتهم أولاً الجوع ، ثم البرد . لكنه أكل ، وتدفاً ، دون أن يفلح مع ذلك في التغلب على خموله .

ومع ذلك ، فهو يحتاج إلى يقظة كاملة ، إذا أراد التوصل إلى نتيجة ، لأنه ، حتى هذه اللحظة لم يتقدم كثيراً ، مع أن الحظ حالفه إلى حد ما . من المهم جداً بالنسبة إلى مستقبله - والحال هكذا- أن يبرهن في هذه اللحظة عن وضوح الرؤية وحسن التصرف .

عندما دخل إلى مكتب التحريات ، منذ أشهر عدة ، لم يخف عليه رؤساؤه أنه في مرحلة التجريب على الأغلب ، وأن المنصب الذي سيحتله بعد ذلك متعلق بالتحديد بالنجاح الذي سيحرزه . وهذه الجريمة أول مهمة تسند إليه . بالطبع ،

ليس الوحيد المسؤول عنها؛ فثمة أشخاص آخرون ، ومكاتب أخرى يعملون في هذه القضية أيضاً ، وهو يجهل حتى وجودهم ، ولكن ، ما داموا أعطوه هذه الفرصة ، فعليه أن يبذل قصارى جهده .

لم يكن لقاء فالاس الأول بفايوس مشجعاً جداً . فهو ينتمي إلى قسم آخر في الوزارة ، وله سمعة عالية فيها ، وقد عُرض عليه هذا النقل ليحل محل عنصر أصيب بمرض خطير .

- إذاً ، أنت ترغب بالعمل في مكتب التحريات .

إنه فايوس من يتحدث . يتفحص الموظف الجديد بتردد ، مبدئياً خشيتة من ألا يكون على مستوى المهمة .

يستأنف بنبرة جدية: - إنه عمل صعب .

يجيب فالاس: أعلم يا سيدي ، لكنني سأعمل . . .

- صعب ومحبط

يتحدث بتردد وهدوء ، من دون أن ييالي بالإجابات ، وكأنه لم يسمعها .

- اقترب ، سنرى هذا .

يُخرج من أحد أدراج مكتبه آلة غريبة ، تصلح مقياساً ومنقلة معاً . يقترب فالاس ويحني رأسه إلى الأمام ليسمح لفايوس برفع القياسات المستخدمة على جبينه . هذا الإجراء متبع . فالاس يعلم ذلك؛ فقد أخذ بنفسه مسبقاً قياساته كيفما كان بمسطرة مزدوجة: لقد تجاوز بقليل الخمسين سنتيمتراً مربعاً الإجمالية .

- مئة وأربع عشرة . . . ثلاثة وأربعون .

يتناول فاييوس قصاصة من الورق لإجراء عملية حسائية .

- لنرى . مئة وأربع عشرة مضروبة بثلاثة وأربعين . ثلاث بأربع ، اثنتا عشرة؛ ثلاثة بواحد ، ثلاثة ، وأربعة؛ ثلاثة بواحد ، ثلاثة . أربعة بأربعة ، ست عشرة؛ أربعة بواحد ، أربعة ، وخمسة؛ أربع بواحد ، أربعة . اثنان؛ ستة وأربعة ، عشرة: صفر؛ خمسة وثلاثة ، ثمانية ، وتسعة؛ أربع . أربعة آلاف وتسعمئة واثنان . . . لا يصلح ، يا بني .

يتفحصه فاييوس بحزن وهو يحرك رأسه

يعترض فالاس بأدب :

- ومع ذلك ، يا سيدي ، فقد أجريت بنفسك الحساب . . .

- أربعة آلاف وتسعمئة واثنان . تسعة وأربعون سنتيمتراً مربعاً مساحة الجبهة؛ يلزم على الأقل خمسون ، أنت تعلم .

- مع ذلك ، يا سيدي ، قمت . . .

- إذاً ، بما أن توصية جاءتني بشأنك ، سأخذك على سبيل التجربة . . . قد يساعدك عمل دؤوب في كسب بضعة مليمترات . سنقرر مصيرك بعد أول قضية مهمة تكلف بها .

ويبدو مسرعاً فجأة ، فيتناول من على طاولته ختماً ما للتاريخ ، يضعه أولاً على علبة المحبرة ، ثم يطبع بضربة عصية كتوقيع ، على ورقة النقل الخاصة بموظفه الجديد؛ بعد ذلك ، وبالحركة الآلية نفسها ، يضع بقوة ختماً ثانياً وسط جبهة فالاس تماماً ، صائحاً :

- صالح للخدمة! يستيقظ فالاس مذعوراً . اصطدم جبينه للتو بطرف الطاولة . ينهض ويشرب بقرف بقية القهوة الباردة .

بعد أن ينظر إلى الفاتورة التي وضعها نادل المقهى تحت الطبق، ينهض ويرمي بقطعة من النيكل على جهاز المحاسب، وهو في طريقه. يخرج من دون أن ينتظر بقية الحساب.

«للخدمة» كما يقول. . .

- إذاً، وجدت ذلك البريد، يا سيدي؟

يستدير فالاس. لم يلاحظ المرأة بالسترة التي كانت منهمكة في تنظيف الزجاج، ذلك أنه ما زال تحت تأثير غفوته القصيرة.

- نعم، نعم، أشكرك.

إنها السيدة حاملة المكنسة التي كانت تنظف الرصيف هذا الصباح، في هذا المكان بالتحديد.

- وهل كان مفتوحاً؟

- لا، فُتح في الثامنة فقط.

- إذاً، كان يجدر بك أن تصغي إليّ! كان لديك بريد شارع جونا، وكان ملائماً أيضاً.

- هذا صحيح! لا بأس، كانت نزهة، (يجيب فالاس وهو يتعبد).

يبحث وهو متجه نحو شارع جونا عن أفضل طريقة للحصول على معلومات حول الرجل ذي المعطف الواقي الممزق. على الرغم من اشمئزازه، ونصائح فايوس، سيكون مضطراً لكشف صفته شرطياً: من المستحيل الشروع في محادثة بذريعة عادية، وكأنها مصادفة، ومع ستة موظفين على التوالي.

سيكون من الأفضل إذاً أن يتوجه إلى المحصل ليجمع الموظفين، من أجل محاضرة صغيرة. سيعطي مواصفات الرجل الذي جاء مساء أمس بين الساعة الخامسة والنصف والسادسة - وهو وقت، للأسف يكثر فيه المراجعون. (وفقاً لتصريحات السيدة باكس والسكير المتطابقة حول هذه النقطة - فإن مشهد السياج المشبك حدث عند هبوط الليل، أي في حوالي الساعة الخامسة.)

القبعة، والمعطف الواقى، والقامة التقريبية، والتهئية العامة... لا يعرف الشيء الكثير مما هو محدد. هل يتوجب عليه أن يقول أن الرجل يشبهه؟ قد يربك الشهود من دون فائدة، لأن هذا التشابه ليس مؤكداً، وذاتي.

جميع الموظفين الآن في أماكنهم، مع أن الساعة الكهربائية الجدارية تشير تقريباً إلى الساعة الواحدة والنصف. يتخذ فالاس هيئة منشغل ويمر أمام الكوات، مطلعاً على اللوائح المكتوبة فوقها: «البريد العادي، الطوابع البريدية بالجملة. الطوابع الضريبية. الطرود البريدية، البريد الجوي»

«الطرود البريدية. الطوابع البريدية بالمفرق. الرسائل المؤمن عليها. البريد السريع. الرسائل والحزم المضمونة»

«طوابع بريدية بالمفرق. جوالات: جوالات بطاقات، جوالات-شيكات، جوالات دولية»

«صندوق الادخار. قسائم الإيرادات. النفقات والمعاشات التقاعدية. طوابع بريدية بالمفرق. دفع جميع الجوالات»

«برقيات. إرسال ودفع الجوالات البرقية. اشتراكات وسلف هاتفية»

«برقيات. مراسلات مستعجلة. «شباك البريد». طوابع بريدية بالمفرق».

ترفع الشابة خلف الكوة رأسها وتنظر إليه . تبتسم له ، وتقول وهي تستدير
نحو صندوق بريد جداري :

- هناك رسالة لك .

وبينما هي تفتش في رزمة الظروف البريدية التي سحبتها للتو من أحد
الصناديق الصغيرة ، تضيف :

- لم أتعرف عليك بهذا المعطف الواقى من المطر .

يقول فالاس : - الشتاء قادم الآن .

وفي اللحظة التي تعطيه الرسالة فيها ، تسأله متظاهرة بالمزاح لإخفاء احترام
مفاجئ للقوانين :

- هل بطاقتك معك ، يا سيدي؟

يضع فالاس يده في الجيب الداخلي لمعطفه . بطاقة الاشتراك ليست هناك ،
بالتأكيد ، سيفسر نسيانها بتغيير لباسه . ولكنه لا يملك الوقت ليمثل هذه التمثيلية .

تقول : - أنت تعلم أنك أعدتها مساء أمس . لا يتوجب علي أن أسلمك بريداً
لأن اشتراكك انتهى؛ ولكن ، بما أن الرقم لم يُمنح لمشارك جديد ، لا بأس .

تعطيه ظرفاً مدعوكاً: السيد أندريه ف . س . مكتب بريد رقم ٥ ، شارع
جوناس رقم ٣٢٦ د . كُتِبَ على الزاوية اليسارية من الظرف : «سريع» .

يسأل فالاس : - هل وصلت منذ وقت طويل؟

- تماماً بعد مرورك ، هذا الصباح . كانت حوالي الثانية عشرة إلا ربع أو

الثانية عشرة ظهراً. أترى، أحسنت صنعاً بعودتك على الرغم مما قلت لي. إذ لا عنوان للمرسل على طرف غلاف الرسالة الثاني لإعادتها. لا أعرف عندها كيف سأصرف. يلاحظ فالاس وهو يفك كتابة الأختام :

- أرسلت في الساعة العاشرة والأربعين دقيقة.

- العاشرة وأربعين؟... كان من المفروض أن تستلمها هذا الصباح. ثمة تأخير بالتأكيد في التحويل. أحسنت صنعاً بمرورك للمرة الأخيرة. يقول فالاس: - ها، لا أهمية لذلك.

-٤-

برأيي، هذه الرسالة لا تثبت شيئاً البتة. يفرد لوران الورقة بيده المفتوحة جداً على مكتبه.

- إذاً، لن نثبت شيئاً أبداً.

يشير المفوض: - نعم، هذا ما قلته لك للتو.

وكانه يضيف لتعزية فالاس:

- فليكن، كي نُقدم الأشياء على نحو مختلف: بهذه الرسالة يمكننا أن نثبت ما نريد - يمكننا دائماً أن نثبت ما نريد - على سبيل المثال، أنك أنت القاتل: فقد تعرفت عليك موظفة البريد، واسمك ليس ببعيد عن الرمز "ف. س." الذي يشير إليه. ألا تدعى أندريه، على سبيل المصادفة؟

هاهو فالاس يقع في ألعايب المفوض الذهنية، ويجب مع ذلك، بدافع التهذيب :

- يمكن لأي أحد أن يوجه لنفسه رسائل بأي اسم . يكفي أن يكون مشتركاً برقم بريدي؛ لا أحد يهتم للشخصية الحقيقية للزبون . يمكن له أن يطلق على نفسه اسم «دانييل دوبون» أو «المفوض العام لوران» ، أيضاً . من المؤسف فقط أننا لم نكتشف قبلاً المكان الذي كان يستلم فيه بريده؛ حتى يكون بإمكاننا الإمساك به هذا الصباح . أكرر لك ، يجب أن نرسل بسرعة مفتشاً إلى شارع جوناس لينتظر عودته المحتملة؛ ولكن ربما أعلن بنفسه أنه لن يعود بعد ذلك ، ربما كان هذا الاحتياط من دون جدوى . لن يبقى علينا سوى استدعاء تلك الشابة لاستجوابها . ربما تزودنا بمعلومة ما .

ينبري لوران: - دعنا لا نتحمس ، دعنا لا نتحمس . واقع الأمر ، لا أعلم مطلقاً لماذا سيكون هذا السيد ف . س . القاتل . ماذا تعرف بالتحديد؟ بوساطة امرأة مُتخيلة ورجل ثمل ، مما دفعك إلى سحب رسالة لا تخصك من «شباك البريد» . (لاحظ ، بالمناسبة ، أن هذا مخالف للقانون تماماً: إذ لا يحق للشرطة في بلدنا أن تستلم البريد الخاص ، يجب أن يكون هناك حكم بذلك .) . حسناً . لمن كانت الرسالة موجهة؟ لرجل يشبهك . ومن ناحية أخرى ، قد تشبهه أيضاً (لكن الشهادة هناك مشكوك فيها أكثر) لفرد مر ليلة أمس في حوالي الساعة الخامسة ، أمام الجناح الصغير ، «ومد ذراعه بين قضبان السور المشبك» . وأنت تعتقد ، بالإضافة إلى ذلك ، أنه دخل بعدها إلى مكتب البريد ذاته . حسناً . في واقع الأمر ، ثمة مصادفة غريبة يجب أن توضحها الرسالة . ولكن ماذا تقول هذه الرسالة تماماً؟ أن المرسل (الذي يوقع جي . ب .) سينتظر هذا الـ «أندريه ف . س» قبل الموعد المتفق عليه بينهما مسبقاً («بدءاً من الثانية عشرة إلا ربع») - لسوء الحظ ، مكان الموعد ليس محدداً؛ ونتيجة للخلل ما من شخص ثالث حددته الرسالة بالحرف جي ، هذا الـ «ف . س» سيحتاج إلى وقت ما بعد الظهيرة كله ليؤدي مهمته بنجاح ، لا يسمح لنا أن نتوقع شيئاً عنها ، باستثناء جزء نُفِّذُ أمس .

(اعترف) ، من ناحية ما عدا ذلك ، لا شيء سوى جملة واحدة ، من غير الممكن أن يفهم أحدنا معناها ، ولكنها تبدو متروكة جانباً ، وكأنها ثانوية - أعتقد أنك موافق على ذلك . أخيراً ، لنلاحظ ، لإتمام الموضوع ، أن ثمة كلمة غير مقروءة في إحدى الجمل التي تعدها مهمة ، كلمة من سبعة أو ثمانية مقاطع ، كلمة تشبه كلمات أخرى^(١) ، قد تدل على معانٍ عدة ، أو أشياء كثيرة أخرى .

يعلن لوران بعد ذلك أن حيازة صندوق بريدي ، أو استخدام اسم مستعار لا يدل بالضرورة على نوايا إجرامية . فمكاتب البريد الستة الموجودة في المدينة تحتوي على آلاف المشتركين من هذا النوع . جزء منهم دون الربع ، وفقاً للمعقول ، يتبادل رسائل عاطفية حصراً . يجب أن نعد تقريباً عدداً مماثلاً من الشركات التجارية - الإحسانية الصورية (المختلقة) مثل : مكاتب الزواج ، مكاتب توظيف الأموال ، النساء الهنود^(٢) ، المنجمون ، المرشدون (مرشدو الضمير) . . . الخ . الباقي ، ليكن أكثر من النصف ، يمثل رجال الأعمال ، ومنهم جزء بسيط فقط من المحتالين الحقيقيين .

الرسالة السريعة أرسلت إلى البريد رقم (٣) ، ذلك الذي يخدم منطقة خلف المرفأ ، ومستودعات الشمال الشرقي . المقصود كما هو معروف ؛ بيع أخشاب ، أو أية عملية متعلقة بها : مزاد ، نقل ، تحميل ، أو أشياء أخرى . تخضع الأسعار لتغيرات يومية هامة ، من الضروري بالنسبة إلى الوسطاء أن يعرفوا كيف يفيدوا منها بسرعة؛ إن تأخير أربع وعشرين ساعة في صفقة ما قد يعرض رجلاً للإفلاس .

« جي . ب . » وسيط (ربما من دون رخصة - فهذا ليس اجبارياً) . ج .

(١) يذكر الكاتب مجموعة من الكلمات يتشابه لفظها وكتابتها بالفرنسية ، ولكنها مختلفة بالمعنى ، لا تخدم ترجمتها إلى العربية سياق الجملة - المترجمة .

(٢) النساء العرافات - المترجمة .

وأندريه ف. س. هما عميلاه. لقد عملا معاً أمس في صفقة ستنتهي هذا المساء. بما أن ف. س. حُرِمَ من مساعدة ج، فعليه أن يكون في مكان العمل قبل الموعد المرتقب حتى يسعفه الوقت.

-٥-

فالاس وحيد من جديد، سائراً عبر الشوارع. هذه المرة، يذهب عند الدكتور جيوار، كما كرر له لوران: إنه أول شيء يجب فعله. انتهى بالحصول على مساعدة شرطة البلدية في مراقبة مكتب البريد الصغير واستجواب الموظفة الشابة. لكنه فهم أن رأي المفوض أصبح الآن جاهزاً: لا توجد منظمة إرهابية، دانييل دوبون انتحر. وهذه النتيجة هي التفسير المنطقي الوحيد بالنسبة إليه؛ هو يقر بأن «التفاصيل الصغيرة» لا تتفق في الوقت الحالي مع هذه الفرضية، ومع ذلك فإن كل عنصر جديد يضاف إليها يصبح على الفور دليلاً إضافياً على الانتحار.

وهذا هو الوضع، لاسيما بالنسبة إلى المسدس الذي وجده فالاس عند البروفسور. فعيار السلاح يوافق عيار الرصاصة التي سلّمها الطبيب؛ وهي الرصاصة الناقصة بالتحديد من المخزن. وثمة شيء أخير مهم جداً بنظره، المسدس مزنجر. قد يكون هذا الاستنتاج، الذي توصلوا إليه في مخبر الشرطة، أساسياً؛ فهو يفسر لماذا دوبون الذي جُرح فقط، بطلقته الأولى، لم يطلق رصاصة ثانية. وبدلاً من أن يُلفَظ غلاف الطلقة على نحو طبيعي، بقي عالقاً في الداخل؛ ولهذا السبب لم نجده أيضاً في غرفة المكتب. أما بالنسبة إلى البصمات المختلطة التي رُفعت من على الأخمص، فوضعيتها لا تناقض الحركة المعترضة من جانب المفوض: السبابة على الزناد كما يطلق أمامه، لكن العكس ممتد إلى الأمام والمعصم مفتول بحيث يقع فيها أنبوب المسدس، الملتوي تقريباً، تماماً بين

الضلعين . على الرغم من أن هذه الوضعية ليست مريحة ، فيجب إمساك السلاح بحزم حتى يبقى في موضعه .

ثمة صدمة هائلة في الصدر ، يتبعها على الفور ألم حاد جداً في الذراع الأيمن؛ ثم لاشيء سوى غثيان ، ليس موتاً بالتأكيد . يتأمل دوبون مسدسه بتعجب .

تتحرك ذراعه اليمنى من دون أدنى ضيق ، ذهنه صافٍ ، وباقي جسمه سيستجيب أيضاً إذا استدعاه . وعلى الرغم من ذلك فإنه من المؤكد قد أدرك التفجر والتمزق في قلبه . كان يجب أن يكون ميتاً ، لكنه يجد نفسه جالساً أمام مكتبه وكأن شيئاً لم يكن . الطلقة انحرفت على الأرجح . عليه إنهاء ذلك في أسرع وقت .

يدير من جديد الأنبوب نحوه ، يضغطه على قماش صدرته ، في الموقع الذي كان يجب أن يقع فيه الثقب الأول من قبل . يضع قوته كلها في ضغط أصبعه ، خشية أن يحدث خلل . . . ولكن هذه المرة لا يحدث شيء ، لا شيء مطلقاً ، لطالما ضغط بقوة على الزناد ، ويبقى السلاح جامداً .

يضعه على المكتب ، ويقوم ببعض التمرينات ليده لكي يثبت لنفسه أنها تعمل طبيعياً . إنه المسدس الذي أصابه الزنجار .

مع أن العجوز أنا ضعيفة السمع ، لكنها سمعت حتماً صوت الطلقة ، وهي تجهز الطاولة في غرفة الطعام . ماذا فعلت ؟ هل خرجت لتطلب النجدة ؟ أم سعدت السلم ؟ إنها لا تحدث أبداً صوتاً بخفيها المصنوعين من الفلين . يجب أن يفعل شيئاً قبل أن تصل . يجب أن يخرج من هذا الوضع العبثي .

يحاول البروفسور أن ينهض؛ يتمكن من ذلك بسهولة . يستطيع حتى أن

يمشي . يذهب حتى المدفأة الحجرية لينظر إلى نفسه في المرآة؛ يزيح نضداً من الكتب . هو يرى الآن الثقب عالياً إلى حد ما ، وقماش السترة الممزق مخضب قليلاً بالدم؛ لا شيء تقريباً . ليس عليه سوى أن يُحكّم أزرار سترته ولن يظهر ذلك . نظرة سريعة على وجهه: لا ، لا يبدو بحالة سيئة . يعود إلى مكتبه ، يمزق الرسالة التي كتبها لصديقه جيوار قبل العشاء ، ويرميها في السلة . . .

دانييل دوبون جالس في حجرة مكتبه . إنه منهمك في تنظيف مسدسه .

هو يعالجه بحذر شديد .

بعد أن تأكد من حسن عمل الآلة ، يضع المخزن في مكانه . ثم يعيد خرقته إلى الدرج . إنه رجل دقيق يحب أن تُنفذ كل مهمة على أكمل وجه .

ينهض ويقوم بوضع خطوات على الموكيت الأخضر الباهت الذي يخنق الأصوات . لا يوجد قط مكان للسير في المكتب الصغير . فالكتب تحيط به من الجهات كلها: القانون ، التشريع الاجتماعي ، الاقتصاد السياسي . . . إلى الأسفل يساراً ، في طرف الرف الكبير تصطف بضع مجلات أضافها هو بنفسه إلى السلسلة . ليست كثيرة . وعلى الرغم من ذلك ففيها بعض الأفكار . مَنْ فَهَمَهَا؟ لا أحد . لا بأس ، ليس هذا سبباً يستدعي اليأس ! ترتسم نصف - ابتسامة على فم البروفيسور فيها شيء من الازدراء ، وهو يستعيد الأفكار السخيفة التي خطرت على باله فجأة منذ قليل ، بينما كان يمسك المسدس بيده . . . قد نظنه حادثاً .

يتوقف أمام طاولة مكتبه ، ويلقي نظرة أخيرة على تلك الرسالة التي كتبها للتو لزميل بلجيكي يهتم بنظرياته . إنها رسالة واضحة وجافة ، وتعطي التفسيرات الضرورية كلها . ربما يضيف كلمة أكثر حرارة بعد العشاء .

يتوجب عليه قبل أن ينزل أن يعيد المسدس إلى الدرج في الطاولة الصغيرة

قرب السرير . يغلفه بعناية بقطعة القماش التي وضعها جانباً سهواً . ثم يطفئ المصباح الكبير الموضوع على مكتبه . إنها السابعة . . .

وجد القاتل ينتظره ، عندما صعد ثانية لينهي رسالته . كان الأجدر به أن يحتفظ بمسدسه في جيبه . . . ولكن من قال إنه تفحصه بالتحديد في ذلك اليوم؟ قد يكون نزع الوصلة القديمة التي كانت تعطل الآلية . أشار المخبر فقط إلى أن السلاح كان «بحالة جيدة» ، وأن الطلقة الناقصة أُطلقت «حديثاً» ، أي بعد التنظيف الأخير ، يمكن أن يعود ذلك إلى ثلاثة أسابيع ، أو ثلاثة أشهر . أما لوران ، ففسر ذلك كما يلي: دوبون نظفه أمس ، عن قصد كي يستخدمه في المساء ذاته .

يفكر فالاس الآن أنه كان يتوجب عليه أن يقنع المفوض . تبدو أدلة المفوض هذا غالباً من دون قيمة ، وكان من الممكن بالتأكيد أن تثبت له ذلك . وعوضاً عن ذلك ، ترك فالاس نفسه ينطلق في مناقشات تافهة حول نقاط ثانوية ، أو لا علاقة لها بالجريمة أيضاً . وعندما أراد أن يطرح الخطوط العريضة للقضية ، أداها بجمل خرقاء لدرجة أخذت فيه قصة المجتمع السري والجرائم المبرمجة بلسانه ، مظهراً خيالاً ، ومجانياً ، و «مختلقاً» .

كان يشعر وهو يتحدث شيئاً فشيئاً بالصفة غير المعقولة لقصته . ربما لا يعود ذلك على أية حال ، للكلمات التي يستخدمها: سيكون لأخرى -اختيرت بعناية أكبر- المصير نفسه ، كان يكفي أن يلفظها حتى نفقد الرغبة في أن نأخذه على محمل الجد . وهكذا وصل فالاس إلى حد لم يعد يحاول فيه أن يقاوم الصيغ الجاهزة التي كانت تخطر بباله عفويّاً؛ الخلاصة إنها الأكثر مُناسَبة .

ولزيادة النحس ، كان أمامه الوجه الساخر للمفوض ، إذ كانت الريبة البادية عليه تزيل معقولية تعليماته . شرع لوران في طرح أسئلة محددة . من هم

الضحايا؟ ما هو دورهم بالتحديد في الحكومة؟ ألم يسبب اختفاؤهم المفاجئ الكبير فراغاً لا يستهان به؟ كيف حصل أن لا أحد يتحدث عن ذلك في الصالونات، والصحف، والشارع؟ -

وتفسير ذلك - في الحقيقة - واضح؛ المقصود مجموعة من الرجال كثيري العدد، منتشرون في أنحاء البلاد كلها. لا يقوم أغلبهم بأية مهمة رسمية، وهم لا ينتمون إلى الحكومة، لكن تأثيرهم مباشر ومهم. رجال اقتصاد، مال، أرباب الاتحادات الصناعية، المسؤولون عن الغرف النقاية، رجال القانون، المهندسون، التقنيون من كافة المجالات، هم يقون بإرادتهم في الظل، ويعيشون في أغلب الأحيان حياةً منعزلة، وأسمائهم غير معروفة لدى الجمهور، ووجوههم مجهولة كلياً. ومع ذلك، فإن المتأمرين لا يخطئون: فهم يعرفون كيف يبلغون - داخلياً حتى درع النظام الاقتصادي - السياسي للأمة. بذلنا قصارى جهدنا حتى الآن، وعلى أعلى مستوى، لإخفاء خطورة الوضع. لم تُنشر هذه الجرائم التسعة المسجلة من قبل، حتى أن العديد منها قُدِّم على أنه حوادث، صممت الصحف، واستمرت الحياة الاجتماعية على نحو طبيعي في الظاهر. وبما أنه كان يخشى تسرب المعلومات في إدارة واسعة ومشعبة كالشرطة، فإن روا- دوزيه فضَّل ألا تكلف الشرطة مباشرة بمكافحة الإرهابيين. إذ يثق الوزير أكثر بمكاتب الاستخبارات المتعددة التي تحت سيطرته، والتي تكن كوادرها - على الأقل - الإخلاص له شخصياً.

أجاب فالاس بطريقة ما على أسئلة المفوض العام، من دون الإفصاح عن الأسرار الأساسية. لكنه فهم بنفسه ضعف موقفه. هذه الشخصيات في الخط الثاني التي تحكم البلاد سراً، وهذه الجرائم التي لا يذكر أحد شيئاً عنها، ورجال الشرطة المتعددون الذين على هامش الشرطة الحقيقية، وهؤلاء الإرهابيون مؤخراً، الأكثر غموضاً من الآخرين، إن في هذا ما يربك موظف إيجابي يسمع به للمرة

الأولى . . . ومن دون شك ، يمكن أن تكون هذه القضية مختلفة كلياً ، مما يدع لكل واحد ، بالطريقة نفسها ، إمكانية تصديقها -أو عدمه - وهذه الانحرافات المتتابة ، من ناحية أو من أخرى لن تغير طبيعتها بطريقة مماثلة .

لوران ، بمظهره الزهري والسمين ، جالس في مقعده الرسمي بين مُخبريه الموظفين ، وبطاقاته ، يعارض مُخبره الخاص برفض قطعي ، إلى حد شعر فيه هذا المخبر أنه مهدد حتى في وجوده: وبصفته هو نفسه عضو في إحدى هذه المنظمات التي لا قوام لها ، قد لا يكون ، كهذه المؤامرة ، سوى اختلاق بصرف لوزير يتمتع بفكر شديد الخصوبة . يبدو أن محدثه ، على أية حال ، أنزله إلى هذا المستوى . ذلك أن المفوض كان أكد في الوقت الحالي رأيه ، دون أن يهتم بالمرعاة أو بالحذر: كنا مرة أخرى أمام تخيلات روا-دوزيه ، وكون أناس كفاييوس صادقوا عليها لا يكفي أن يجعلها معقولة . ومن جهة أخرى ، هناك تلاميذ آخرون ذهبوا أبعد من ذلك في الغرابة ، كمارشا ، الذي لا شك في أنه سينتهي ميتاً هذا المساء في الساعة السابعة والنصف ، لقناعته . . .

إن تدخّل التاجر لم يُعدّل شيئاً حتماً .

خرج فالاس وهو يحمل مسدس الميت . لم يكن لوران يريد الاحتفاظ به: فهو لا يحتاجه؛ وبما أن فالاس يقوم بالتحريات ، لم يكن لديه سوى الاحتفاظ بـ «وثائق الإثبات» . وبناء على طلب المفوض ، أعاد المُخبر السلاح في الحالة التي وجده فيها ، أي مع الحلقة الفارغة التي كانت تمنع عمله .

يسير فالاس . تدهشه وضعية الشوارع باستمرار في هذه المدينة . فقد تابع منذ مقر إدارة الشرطة المسار نفسه الذي سلكه هذا الصباح ، ومع ذلك فلديه الانطباع بأنه مشى أكثر مما تطلّبه الأمر في المرة الأولى ، للذهاب من المفوضية العامة إلى عيادة الدكتور جيوار . ولكن ، بما أن شوارع هذا الحي كلها متشابهة ،

لا يمكنه أن يؤكد أنه سلك تماماً الشوارع ذاتها . فهو يخشى أن يكون انحرف كثيراً إلى اليسار ، فابتعد بذلك عن الشارع الذي يريده .

يقرر أن يدخل إلى مخزن ليستدل على شارع « كورينته » . إنه مكتبة صغيرة تباع ورق الرسائل ، وأقلام الرصاص ، وأقلام التلوين للأطفال ، معاً . تنهض البائعة لتلبي طلبه :

- ماذا تريد يا سيدي؟

- أريد ممحاة ناعمة جداً ، للرسم

- حاضر يا سيدي .

أطلال طيبة .

وضع أحد رسامي يوم الأحد حملته على هضبة تهيمن على المدينة ، في ظل شجرات السرو ، بين قطع الأخشاب المضغوطة في كل مكان . إنه منهمك في الرسم ، يرفع عينيه في كل لحظة إلى الموديل ، وبريشة دقيقة يحدد تفاصيل عدة تكاد لا تُلَاحَظ بالعين المجردة ، لكنها تكتسب بعد رسمها حدة مفاجئة . إنه يتمتع دون شك بنظرة ثابتة . إذ يمكننا عد الأحجار التي تشكل طرف الرصيف وقطع آخر الجبهة ، حتى ألواح الإردواز في السطح . في زاوية السياج المشبك ، تلمع أوراق المضاض في ضوء الشمس مما يبرز بعض تعرجاتها . في الخلف ، شجيرة تصل أعلى السياج ، وثمة شجيرة عارية طبع كل غصن فيها بلمسة لامعة ، من جانب الضوء ، وبللمسة سوداء من جانب الظل . أخذ الرسم الأولي (الكليشييه) في الشتاء ، في يوم مشرق متميز . ما هو السبب الذي دعا المرأة الشابة إلى التقاط صورة لهذا الجناح؟

- إنه جناح جميل جداً ، أليس كذلك؟

- نعم ، نعم ، كما تريد .

لا يمكن أن تكون استأجرت الجناح قبل دويون؛ فقد سكنه منذ خمس وعشرين عاماً، بعد أن ورثه من عم له . هل كانت خادمة فيه؟ يستعيد فالاس الوجه المرح ، المستفز قليلاً للبائعة ، من ثلاثين إلى خمسة وثلاثين على الأكثر ، نضوج جذاب بجسم مدور؛ البشرة نضرة ، العينان لامعتان ، والشعر أسود ، النموذج الدارج في المنطقة ، مما يذكر على الأغلب بنساء أوروبة أو البلقان .

- نعم ، وربي ، إذا أردت .

بضحكة صغيرة من الحلق ، وكأنه سمح لنفسه بمزحة مهذبة . هل هي زوجته؟ سيكون ذلك غريباً . ألم يقل لوران إنها اليوم تملك مخزناً؟ إنها تصغر زوجها بخمسة عشر عاماً . . . سمراء بعينين سوداوين . . . إنها هي ! .

يخرج فالاس من المكتبة . بعد أمتار عدة ، يصل إلى مفترق طرق . تنتصب أمامه لوحة حمراء: «الرسم ، للمدرسة ، للمكتب . . .»

لقد نزل هنا من القطار قبل الغداء . يتبع من جديد السهم باتجاه مخزن القرطاسية «فيكتور هوجو» .

الفصل الرابع

11-11-11

-١-

يمتد سلك على سطح الماء إلى الأسفل ، في خط عمودي على مستوى النظر .

يمكن للمرء إذا انحنى على الدرابزين أن يراه خارج عقد الجسر ، مستقيماً وممتداً لكن المسافة تخذع عندما ينقصنا عنصر المقارنة . تتابع ضفائر الجبال الملفوفة بانتظام ، مما يعطي انطباعاً بالسرعة الكبيرة . ربما مئة لفة في الثانية؟! . . . وواقع الأمر أن هذه السرعة ليست سوى سرعة محدودة ، سرعة رجل يسير بخطاً وثيدة - سرعة سفينة قاطرة تجر قطاراً من القوارب على طول القناة .

يتجلى الماء خلف السلك المعدني ، مخضراً ، مُعْتِماً ، يهدر بخفة في إثر القاطرة المبتعدة .

لم يظهر القارب الأول بعدُ تحت الجسر ، مازال السلك يمتد على سطح الماء ، من دون أن يثير الشكوك بأنه سينقطع بعد قليل . ومع ذلك تبلغ القاطرة الآن الجسر الضيق التالي ، فتبدأ بخفض مدخنتها لتعبر من خلاله .

-٢-

كان دانييل رجلاً حزيناً . . . حزيناً ووحيداً . . .

ومع ذلك لم يكن رجلاً قادراً على الانتحار - على الإطلاق . عشنا معاً ما يقارب العامين ، في هذا الجناح شارع «آربانتور» (تمد المرأة ذراعها باتجاه الشرق -

اللهم إلا إذا كانت تشير فقط إلى الصورة الكبيرة ، في الزاوية الأخرى من الحاجز ،
في الواجهة الزجاجية) - وهو خلال هذين العامين لم يبد أي فتور في الهممة ، أو
أدنى شك . لا تظن أن هذا هو المظهر الخارجي؛ فهذه السكينة تعكس طبيعته .

- قلت منذ لحظة أنه حزين .

- نعم ، لكن ليست الكلمة المناسبة بالتأكيد . لم يكن حزيناً . . . لم يكن
مرحاً أيضاً: ما إن تجتاز سور الحديقة ، حتى تفقد كلمة المرح معناها . إذاً ، لا
حزن أيضاً أليس كذلك؟ لا أدري ما أقوله لك . . . أهو ممل؟ هذا ليس صحيحاً
أيضاً . كنت أحب سماع حديثه ، عندما كان يشرح لي شيئاً ما . . . لا ، ما كان
يجعل الحياة لا تُحتمل مع دانييل ، هو أننا كنا نشعر به وحيداً ، تماماً . كان وحيداً
لا يشكو من وحدته . لم يخلق قط للزواج ، أو لأي نوع من الارتباط . لم يكن
لديه أصدقاء . كان طلابه في الكلية شغفين بمحاضراته - بينما هو لا يميز حتى
وجوههم . . . لماذا تزوجني؟ . . . كنت صغيرة جداً ، وكنت أكن الإعجاب
لهذا الرجل الأكبر مني سناً ، كان الكل معجباً به من حولي . ترعرعت عند عم
لي ، كان دانييل يزوره من وقت لآخر لتناول العشاء . . . لا أدري لماذا أقص
عليك هذه القصة التي لا أهمية لها بالنسبة إليك . يعترض فالاس :

- بلى ، بلى ، على العكس ، نحن بحاجة إلى معرفة ما إذا كانت فرضية
الانتحار معقولة ، إذا كانت لديه أسباب تدفعه لقتل نفسه ، أو أنه قادر على القيام
بذلك من دون سبب وجيه .

- آه ، لا ! كان لديه دائماً سبب لأقل حركة .

وإن لم يتضح من هذا سبب ، فثمة سبب يُلاحظ مع ذلك ، سبب محدد ،
سبب مدروس طويلاً لا يهمل أي جانب من المسألة . إذ لم يكن دانييل يفعل

شيئاً من دون قرار مسبق ، وكانت قراراته صائبة على الدوام ، لا رجعة فيها ، بالطبع . . . ينقصه الإبداع ، إذا أردت ولكن لدرجة فائقة ، بوجه العموم ؛ لم يكن لدي ما أُلومه عليه سوى الصفات الحسنة: لا يتصرف أبداً من دون تفكير ، لا يغير رأيه ، لا يخطئ أبداً .

- زواجه ، مع ذلك ، أقلت أنه خطأ؟

- آه نعم ، بالتأكيد ، كان في علاقاته مع البشر معرضاً للخطأ . يمكننا حتى القول إنه لم يكن يفعل شيئاً آخر ، ارتكاب الأخطاء . ولكن خلاصة القول إنه كان محقاً دائماً؛ فخطؤه الوحيد هو الاعتقاد أن الجميع كان حكيماً مثله .

- ربما كان يشعر ببعض المرارة لسوء الفهم هذا؟

- أنت لا تعلم أي نوع من الرجال كان . رابط الجأش أبداً . كان شديد الثقة بنفسه ، وهذا يكفي .

أما إذا كان الآخرون يستمتعون بالخرافات فهذه مشكلتهم .

- ربما تغير مع الزمن ، أنت لم ترّيه منذ . . .

- بلى التقينا مرات عدة: وكان كما هو .

- حدثيني عن أبحاثه ، عن الحياة التي يعيشها ، عن الأشخاص القلائل الذين كان يراهم .

- كان سعيداً على طريقته ، أبعد ما يكون عن فكرة الانتحار ، على أية حال ، مقتنعاً بحياته كراهب بين مدبرة منزله العجوز الصماء وكتبه . . . كتبه . . . عمله . . . لم يكن يعيش إلا لهذا ! أنت تعرف المنزل ، معتم ،

وساكن ، ومحشو بالسجاد ، وملئ بزينة بالية ، لم يكن لدينا الحق في المساس بها . منذ المدخل ، يشعر المرء بضيق ما ، بشعور بالاختناق ، ينزع عنه كل رغبة بالمزاح ، بالضحك ، بالغناء . . . كان عمري عشرين . . . أما دانييل ، فكان يشعر فيه بالراحة ، ولا يفهم كيف يمكن أن يكون الأمر مختلفاً بالنسبة إلى الآخرين . من ناحية أخرى ، لم يكن يغادر مكتبه ، ولا يحق لأحد أن يزعبه عندما يعمل . حتى في بداية زواجنا ، لم يكن يخرج إلا لإلقاء محاضراته ، ثلاث مرات أسبوعياً؛ ما إن يعود حتى يحبس نفسه في مكتبه ، يقضي فيه أحياناً جزءاً من الليل . لم أكن أراه إلا في أوقات الطعام ، عندما ينزل إلى غرفة الطّعام ، في الموعد المحدد بدقة ، الساعة الثانية عشرة والساعة السابعة مساءً .

- عندما أخبرتني أنه مات ، منذ قليل ، شعرت بإحساس غريب . لا أدري ما أقوله لك . . . ما الفرق بين دانييل حياً ودانييل ميتاً؟؟ كان آنفاً لا يتمتع بالحياة . . . ليس لأنه ضعيف الشخصية ، أو الطبع . . . لكنه لم يكن أبداً حياً بحق .

- لا ، لم أره بعد . أنوي الذهاب إليه بعد خروجي من هنا .

- ما اسمه؟

- الدكتور جيوار

- آه . . . إنه الطبيب الذي أجرى له العملية؟

- نعم

- آه . . . هذا غريب .

- أليس جرّاحاً ماهراً؟

- بلى ، بلى . . . أظن ذلك .

- هل تعرفينه؟

- بالاسم فقط . . . كنت أظنه طبيباً نسائياً .

- هل حدث ذلك منذ زمن بعيد؟

- بدأ الناس بالحديث عن ذلك في المدينة قبل بداية . . .

شعر فالاس فجأة بإحساس مزعج ، كمن يقوم بتضييع وقته . وفي اللحظة التي لمعت في ذهنه فكرة أن صاحبة مكتبة شارع فيكتور هوجو ربما هي زوجة دوبون السابقة ، بدأ له هذا التطابق خارقاً ، عاد بسرعة إلى المكتبة ، حيث استنتج من العبارات الأولى أنه أحسن التخمين ، فأحس بفرحة كبرى ، وكأن خطأ غير منتظر حقق خطوة مهمة في قضيته . وعلى الرغم من ذلك فلقاءه بهذه المرأة بالمصادفة في طريقه لا يغير شيئاً من أهمية المعلومات التي ينتظرها منها .

لو كان فالاس فكر جدياً بأنها يمكن أن تدلي بمعلومات قيمة ، لكان بحث منذ هذا الصباح عن عنوان الزوجة المطلقة التي أشار إليه المحقق بوجودها ، قرر إذاً أنه من الملح أكثر أن يبدأ باستجابات أخرى - على سبيل المثال مع الدكتور جيوار الذي لم يتمكن بعد من الاتصال به .

يلاحظ فالاس الآن كم كان أمله الأخير غير معقول . يبقى في حيرة من أمره - ليس فقط لأن هذا الأمل غير مجد ، بل هو مضطرب بخاصة لأنه لم ينتبه للأمر قبل ذلك . يسأل نفسه وهو جالس في خلفية المكتبة أمام هذه السيدة الشابة الجذابة ، ماذا جاء يفعل هنا ، ربما من دون أن يدري .

وفي الوقت نفسه ، خشي ألا يجد الدكتور في عيادته . وبما أنه ينهض معتذراً عن عدم قدرته على البقاء للحديث مدة أطول ، يُفاجأ من جديد بالضحكة

الصغيرة النابعة من الحلق ، التي تظهر ضمناً تطوعاً ما . مع أن الجملة العادية التي تتلفظ بها للتو لا تحمل سوى معنى واحد في حالة الشك ، يحاول فالاس أن يعيد صياغتها ، لكنه لا يستطيع :

«يتوجب عليّ أن . . . يتوجب . . .» .

يضع صوت باب المدخل حداً لأبحاثه ، كجرس يريد تذكيره بالساعة . ولكن بدلاً من تحريره ، يؤخر هذا التدخل رحيله أكثر ، فقد اختفت البائعة في الحال باتجاه المتجر ، تاركة فالاس وحده مع بعض كلمات باسمة .

– دقيقة من فضلك ، يجب أن أذهب لتلبية طلب الزبون .

– «أعتذر سيدتي ، عليّ أن . . . لحظة من فضلك ، يجب أن أذهب . . .
يجب أن أذهب . . . يجب . . . يجب . . .»

لم يكن هناك ما يستدعي الضحك على هذا النحو .

يجلس فالاس من جديد ، لا يعرف ما يفعل بانتظار عودة السيدة . من خلال الباب الذي بقي موارباً ، يسمعها تستقبل الزائر ، بجملة مهنية ، غير واضحة ، إذ يفصل الغرفة التي يجلس فالاس فيها عن المتجر سلسلة محاطة بالممرات والمداخل . لم تصل إليه بعد ذلك أية عبارة .

لا شك أن للزبون صوتاً خافتاً ، وأن السيدة الشابة صمتت – أو أخفضت صوتها . ولكن لماذا قد تخفض صوتها؟؟

يحاول فالاس بإذن صاغية لا إرادياً تخيل المشهد . سلسلة من المحاولات تمر بسرعة أمام عينيه ، أغلبها صامت ، أو أنها هامسة إلى حد نفقد فيه الكلمات كلياً – مما يبرز أكثر صبغتها بالإيحائية ، الكاريكاتورية ، وحتى المضحكة . فضلاً

عن ذلك ، كانت افتراضاته كلها بعيدة الاحتمال تقريباً ، إلى حد يجد مؤلفها نفسه مضطراً إلى الإقرار بأنها تدل على الهذيان أكثر من التخمين العقلاني . يشعر بالقلق للحظة بسبب ذلك : ألا تكمن مهنته على العكس . . . «إنه عمل صعب . . . صعب ومحبط . . . على كل ، بما أنهم نصحوني بك ، سأحذك رغم كل شيء . . . »

ليس كل هذا مهم حتماً ، وإذا كانت المسألة جدية - أي أن لها صلة بقضيته - فإنه لن يترك ذهنه يتشتت في أوهام كهذه . لا سبب وجيه يدفعه للاهتمام بما يقال هناك .

ومع ذلك فهو يصغي رغماً عنه - بالأحرى يحاول أن يصغي ، لأنه لم يعد يدرك شيئاً على الإطلاق ، خلا بعض الأصوات المبهمة مبعثها غير واضح كطبيعتها . . . لاشيء ، على أية حال ، يشبه الضحكة الصغيرة النابعة من الحلق . . . الساخنة والاستفزازية . . .

إنه المساء . يدخل دانييل دوبون باحته خفيض البصر ، يصعد الدرج بخطا ثابتة ، تكاد تنم عن تعب خفيف . بعد أن يصل إلى الطابق الأول ، يتجه ، من دون تفكير باب مكتبه . . . يفاجأ عندما يسمع خلفه تماماً ، الضحكة الصغيرة النابعة من الحلق مرحبة بقدمه . لم يلاحظ في ظل قرص الدرج ، حيث أهمل إشعال النور ، المرأة الشابة الجذابة تنتظره أمام باب الغرفة المفتوح . . . بضحكتها الصغيرة كهديل الحمام ، والتي تبدو كأنها قادمة من جسدها كله . . . الاستفزازي والمتواطئ . . . لزوجته .

يطرد فالاس بدوره هذه الصورة . تُغلق غرفة النوم على الزوجة الشبقة . يتابع شبح دانييل دوبون طريقه نحو غرفة المكتب خفيض البصر ، واليد ممتدة نحو القبضة متهيئاً لفتحها . . .

ما زال الوضع غير محدد من جهة المتجر . ويجد فالاس الوقت طويلاً ،
فيرفع بحركة آلية طرف كفه لينظر إلى ساعته . يتذكر في هذه اللحظة أنها
متوقفة ، وهو يستنتج ذلك فعلاً من جديد: مازالت تشير إلى الساعة السابعة
والنصف . لا جدوى من تعديل الساعة بما أنها لا تعمل .

على الطاولة الصغيرة أمامه ، يتدلى من الطرفين يتدلى إطاران لصور شخصية
من الخنزف المحجّر بالشكل المتعارف عليه . يُظهر الإطار اليساري وجهاً صارماً
لرجل ناضج ، وقف بشكل جانبي ، فلا نرى سوى ربه تقريباً ، يبدو كأنه
يراقب بطرف عينه التمثال الصغير - أو أنه ينظر إلى الصورة الثانية ، الأقدم ،
كما يدل اصفرار الورقة ، والملابس البالية للشخصيات . ثمة غلام بلباس المناولة
يرفع بصره نحو امرأة طويلة بثوب فضفاض مزركش وبقعة مفرطة في الحجم
من موضحة القرن الفائت . قد تكون هذه أمه ، وهي أم صغيرة في السن ، ينظر
إليها الطفل بإعجاب وحيرة - كما نتبين من هذه الصورة الشاحبة ، حيث فقدت
الملامح الكثير من حيويتها . يجب أن تكون هذه السيدة أيضاً والدّة ربة هذا
المنزل ، وربما يكون الرجل الصارم دوبون . لا يعرف فالاس حتى وجه الميت .

تفصح الصورة عن قرب عن ابتسامة غير ملحوظة ، من دون أن نعرف
بالتحديد ما إذا كانت تنبعث من الفم أو من النظرة . . . ويظهر الرجل من زاوية
أخرى تعبيراً وقحاً إلى حد ما ، فيه شيء من السوقية ، من الرضا ، شيء منفر .
يدخل دوبون باحة منزله . يصعد الدرج بخطا ثقيلة نلاحظ فيها مع ذلك شيئاً من
العجلة . عندما يصل إلى الطابق الأول ، ينعطف يساراً نحو غرفة النوم من دون
أن يتكبد عناء الطرق . . . لكن قامّة شاب تنبثق من غرفة المكتب ، تماماً خلفه .
تفرقع طلقاً مسدس . ينهار دوبون ، من دون أية صرخة فوق موكيت الممر .

في إطار الباب تظهر امرأة شابة ، تسأل بصوتها الحار :

- أرجو ألا أكون تركتك تنتظر طويلاً؟

ويجب فالاس: - لا ، لا ، ولكن عليّ أن أنسحب الآن .

توقفه بحركة :

- لحظة فقط ! ألا تعلم ماذا اشترى ! خمن؟

- من هذا؟

الزبون ، بالطبع . لقد اشترى ممحاة ، بالتأكيد . ماذا يدهشها في ذلك؟

- الزبون الذي خرج للتو !

يقول فالاس: - لا أدري .

تعلن المرأة الشابة: بطاقة بريدية ! لقد اشترى بطاقة بريدية تُظهر الجناح ،
البطاقة التي أخذتَ مثلها أنت هذا الصباح! تمتد الضحكة النابعة من الحلق هذه
المرة إلى ما لانهاية .

عندما عادت إلى المتجر ، كان هناك رجل قصير يبدو عليه المرض ، رث
الثياب ، يرتدي قبعة متسخة ومعطف طويل يميل إلى الاخضرار . لم يقل مباشرة
ما يريد مكتفياً بهمس كلمة «صباح الخير» مبهمّة من بين أسنانه . جال يبصره
في المحل ، وبعد زمن طال وفاق الطبيعي ، وقع اختياره على حاملة البطاقات
البريدية الدوارة ، فبدأ يتفحصها بهدوء . قال شيئاً ك :

- . . . اختيار بطاقة . . .

تجيب البائعة: تفضل ، أرجوك .

لكن تصرفات الرجل تبدو غير طبيعية لدرجة أنها قررت أن تنادي فالاس ، بذريعة ما ، لتبين للرجل أنها ليست وحدها ، عندها توقف هذا عند إحدى اللقطات ، فسحبها من المصنف ، وتفحصها بعناية . وضع بعد ذلك ، من دون أن يضيف كلمة ، وضع قطعة نقدية على الطاولة (كان سعر البطاقات معلناً) وغادر حاملاً اكتشافه . كانت تلك صورة المنزل شارع «أربانتور» ، «منزل الجريمة» ! - إنه زيون غريب ، أليس كذلك؟ .

عندما نجح فالاس أخيراً بالخروج ، لم تعد المسألة متعلقة بإيجاد جامع الصور الغريب . شارع فيكتور هوغو فارغ من الطرفين . من المستحيل أن يعرف من أية جهة ذهب الشخص المجهول .

يسلك فالاس إذاً طريق عيادة جيوار - أو ما يظنه طريق العيادة - لأنه نسي أن يستدل عليه من المرأة الشابة وهو يفضل - دون سبب وجيه - أن يعود إليها مرة أخرى .

ما إن يتجه نحو الشارع التالي حتى يلمح أمامه ، عند مفترق طريق قريب ، الرجل القصير بمعطفه الأخضر يتأمل بطاقته واقفاً وسط الرصيف . يتقدم فالاس باتجاهه ، من دون أن يحدد تماماً ما يتوجب عليه فعله ، وعندما يراه الآخر ، يستأنف سيره ويختفي في الحال يميناً . بعد لحظات عدة ، يسارع فالاس الخطأ فيصل إلى مفترق الطرق . يمتد إلى اليمين طريق مستقيم ، من دون مخازن أو مداخل من أي نوع يمكن للمرء أن يتواري فيه ، إنه طريق مقفر تماماً ، منعزل . هناك ، ثمة مار طويل القامة ، بمعطف واق ، يتعد بسرعة .

يتابع فالاس حتى التقاطع الأول ، وينظر إلى الجهات كلها ، لا أحد أيضاً . واختفى الرجل القصير .

يثابر فالاس في ملاحقته . ويتقصى بانتظام الشوارع المجاورة كلها . بعدئذ ، وعلى الرغم من إصراره على المتابعة ، فإن فرص إيجاد أثر المجهول أصبحت بعد الآن ضعيفة ، فعاد أدراجه ، ولف ودار ، ماراً مرات عدة في الأماكن نفسها ، غير قادر على الابتعاد عن المفترق الذي رآه فيه آخر مرة .

على الرغم من امتعاضه لهذه المغامرة ، فإنه لا يقرر مغادرة المكان إلا بعد أن ينظر إلى الساعة المعلقة في الشارع: لم يعد لديه سوى وقت قصير كي يذهب إلى مكتب المفوض العام حيث يقوم لوران باستجواب موظفي البريد بحضوره ، أولئك استدعوا على عجل نزولاً عند طلبه ، بمساعدة الشرطة .

يستعيد فالاس أثناء سيره ذهنياً ظروف ظهور مشتري البطاقات البريدية واختفاء ذلك الرجل القصير . وقد وقف وسط الرصيف ، وعيناه مثبتتان على الصورة التي بين يديه ، مقرباً وجهه ، وكأنه يأمل أن يكتشف فيها سرّاً ما - ثم تأمل الشوارع الخاوية ، في الاتجاهات كلها .

لقد أغضبه عناده وإصراره على الجري خلف ظل ، وراح يبحث من دون جدوى عن طريقة يعيد فيها حدثاً لا أهمية له إلى مكانه الطبيعي ، في نهاية الأمر . إنه لاشك مهووس يحب جمع الوثائق الإجرامية ، لأنه يعيش في فقر مدقع في هذه المدينة الهادئة: فجريمة القتل التي سرّبتها صحف الصباح هي بالنسبة إليه نعمة طارئة . لقد ذهب بعد الفطور لرؤية «منزل الجريمة» ، وفي طريق العودة فوجئ بواجهة المكتبة حيث تعرف إلى الجناح ، فدخل في الحال ، لكنه لم يعرف ما يطلبه من البائعة ، مما اضطره ، لتسويق تصرفه مبرر ، أن يذهب لتأمل حاملة البطاقات الدوارة التي تحتوي بالتحديد الغرض المنشود . اشترى البطاقة في الحال ، ولم يتمكن من منع نفسه من تأملها في طريقه . أما عن اختفائه ، فهو

يُفسَّر أيضاً على نحو طبيعي: بعد أن انعطف عند مفترق الطرق ، دخل إلى أحد أول البيوت الصغيرة ، فقد وصل إلى منزله .

تبدو هذه الصيغة معقولة جداً - بل إنها أكثر عقلانية - لكن فالاس يستعيد باستمرار صورة الرجل القصير بمعطفه الأخضر ، متوقفاً وسط الرصيف ، وكأن في وجوده هذا شيء لا يقهر ، إذ لا تفسير ، مهما بلغت عقلانيته ، يمكن أن يناسبه .

يبدأ لوران وفالاس في مكتب المحقق العام بالاتفاق حول الأسئلة الملائم طرحها على موظفات البريد: ماذا يعرفن عن المدعو أندريه ف . س ؟ هل هو معروف في الحي ؟ هل يعرفن أين يسكن ؟ منذ متى يملك علبة بريد في ”شباك البريد“ شارع جوناس ؟ هل يأتي غالباً ليسحب بريده ؟ هل كان يصله الكثير من الرسائل ؟ من أين كانت تصله ؟ أخيراً: لماذا انقطع مدة عن المجيء ؟ هل أعطى سبباً لذلك ؟ متى جاء للمرة الأخيرة ؟ . . . الخ . كان من الضروري أيضاً تحديد معالم الرجل صاحب المعطف الممزق .

يتم إدخال الموظفات بعد انتظارهن في حجرة مجاورة . ثمة ثلاث نساء ، تدعى الشابة التي في الكوة السادسة جوليت دِكستر ، وتوحي هيئتها الجدية والرزينة بالثقة ، تليها بعد ذلك إيميلي لوبرمان ، سيدة في الواحد والخمسين ، عازبة ، تشغل الكوة المجاورة وتهتم بسرور بكل ما يدور حولها ، كما تم استدعاء سيدة لم تعد تعمل في البريد: هي السيدة جان .

شغلت السيدة جان بفضل شهادة حصلت عليها في الماضي ، أثناء الصيف مهام المعاونة المتدربة في مكتب بريد شارع جوناس ، وحلت في شهر أيلول أثناء عطلة الأنسة دِكستر ، محلها في الكوة . يجب الاعتقاد أن عملها لم يكن جيداً ، طالما أن الإدارة فضّلت ألا تمدد التجربة وأن تستغني عن خدماتها . تعمل

السيدة جان حالياً مستخدمة بسيطة لدى تاجر في الشارع الدائري ، ولم تحتفظ بأية مرارة من هذه المحاولة التعسة . إنها تفضل الأعمال اليدوية أكثر . لقد دفعتها جاذبية مرتب أفضل إلى ترك البريد ، وقد عادت إليهم بعد ثلاثة أشهر ، متعزية نوعاً ما: فالمهام المتعددة التي عرفتها أثناء عملها في البريد بدت لها غريبة ، ومعقدة ، وتافهة في آن معاً ، كلعبة الورق على سبيل المثال ، فالعمليات الداخلية ، أكثر من العمليات التي تجري في الكوات ، كانت تخضع لبعض القواعد السرية مما يفرض شعائر متعددة ، أغلبها غير مفهوم . كانت السيدة جان تتمتع بنوم هادئ ، لكنها بعد أسابيع عدة في هذه المهنة الجديدة أخذت تعاني من الكوابيس الملحة ، فوجدت نفسها مجبرة على تحرير أجزاء كاملة من كتابات العرافات ، ولضييق الوقت كانت تدون الكتابة بالمقلوب ، فتشوه الحروف وتفسد تسلسلها ، مما يضطرها باستمرار إلى إعادة الكتابة .

استعادت اليوم هدوءها ، وأصبح البريد تقريباً بالنسبة إليها مخزناً لا غموض فيه تباع فيه الطوابع والبطاقات البريدية ، إلى أن جاء مفتش الشرطة فجأة يسأل عن نشاطها في الشهر الماضي . فعادت شكوكها على الفور ، وعدم ثقتها ، وخشيتها: إذ كانت تحدث فعلاً أشياء مشينة في مكتب شارع جوناكس . على العكس من زميلتها القديمة ، إيميلي لوبرمان ، التي تثيرها الفضائح بشدة؛ جاءت السيدة جان إلى المخفر رغماً عنها ، مصممة ألا تفتح فمها إلا بالقدر الذي يساعدها على تجنب المتاعب الخاصة . على أية حال المسألة بسيطة: هي لم تر شيئاً ، ولا تعلم شيئاً .

بيد أنها لم تتعجب كثيراً في مكتب المحقق من رؤية الرجل حسن المظهر (صاحب الأسرار المريبة) ، الذي سألها هذا الصباح عن طريق «البريد الرئيس» كي يرسل برقية ، كما قال . إنه إذا متورط في هذه القضية ! على أية حال ، ليس عليه أن يخشى أن تكشف للشرطة تحركاته في الصباح .

إنها المرة الثالثة التي تقابله فيها اليوم ، لكنه لم يعرفها ، لأنه لم يرها سوى بلباس العمل ومن دون قبعة ، وهذا لا يدهشها .

تستنجد السيدة جان برضا ومودة أن المحقق استجوب جوليت دكستر أولاً .

يقول لها: - هل تعرفين مشترك «شباك البريد» الذي تصله الرسائل باسم ألبير ف . س . . .

تحدّق الشابة وتستدير باتجاه مرسل البرقيات . تحاول أن تفتح فمها لتتحدث . . . لكنها لا تقول شيئاً وتقف عند هذا الحد ، تبقى مستقيمة على كرسيها ، ترقب الرجلين بالتناوب .

يتوجب إذاً على فالاس بداية أن يشرح أنه ليس أندريه ف . س ، مما يوقع الشابة في حيرة أكبر :

- ولكن . . . الرسالة . . . في تلك الساعة؟ . . .

نعم ، إنه من أخذ الرسالة ، لكنها المرة الأولى التي يرى فيها شارع جوناس . استفاد من نقاط التشابه مع المشترك المذكور .

تردد الأنسة العانس مذهولة :

- هكذا إذاً . . . هكذا إذاً . . .

أما السيدة جان فهي لم تخرج من تحفظها واستمرت في تركيز بصرها على الأرض ، أمامها بخط مستقيم .

الشهادة التي أدلت بها الشابة قطعية: الرجل الذي أطلق على نفسه اسم

ف. س. يشبه تماماً فالاس. لم تتردد عندما رأيته أمامها في الكوة، على الرغم من اختلاف ملابسه.

أم الآخر فكان يرتدي ملابس متواضعة ومختصرة على الأكثر: كمن نراه دائماً بوجه التقريب بمعطف واقٍ أسمر فاتح، ضيق جداً على جسده الضخم؛ ولكن بعد التفكير، قد يكون هو أضخم من فالاس.

- وكان يضع نظارة.

قد أضافت الأنسة العانس هذه التفصيلة. لكن الأنسة دكستر تعترض: أندريه ف. س. لم يضع أبداً نظارة. تثبت زميلتها برأيها: هي تتذكر جيداً، حتى أنها أشارت له في أحد الأيام أن ذلك يعطيه مظهر الطبيب.

يسأل لوران: ما نوع هذه النظارة؟

كانت نظارة من صدف، بإطار سميك، وعدسات ملونة تلويناً خفيفاً.

- ما هو لونها؟

- من درجات الفضي المدخن.

- هل كان للعدستين اللون ذاته أيضاً، أم إن إحداها كانت أغمق من الأخرى؟

لم تنتبه إلى هذه الخصوصية، ولكن من الممكن في الواقع أن تكون إحداها أغمق من الأخرى. إذ لا يمكننا أن نميز بوضوح الزائرين - الذين يقفون أمام الكوات بعكس الضوء - لكنها تتذكر الآن أن...

يسأل لوران جوليت دكستر عن ساعة زيارة المشترك الحقيقي الأخيرة للبريد.

تجيب: كانت حوالي الخامسة والنصف ، أو السادسة ، كان يأتي دائماً في هذه الساعة تقريباً ، ربما بعد ذلك بقليل في بداية الشهر ، إذ يهبط الليل ببطء . إنها على أية حال ساعة الازدحام . يقاطعها فالاس : هو يعتقد أنه فهم أن الشابة قالت له عندما أعطته الرسالة أن الآخر مرّ قبل ذلك بقليل ، قبل حلول الظهيرة .

– نعم ، هذا صحيح ، تقول بعد لحظة من التفكير ، في تلك اللحظة لم تكن أنتَ بعدُ . جاء بعد الساعة الحادية عشرة بقليل ، كما كان يفعل من حين لآخر ، إضافة إلى زيارته في المساء .

هل كان يأتي كل مساء بانتظام؟ ومنذ متى؟ لا لم يكن يأتي بانتظام: كان يغيب في بعض الأحيان أكثر من أسبوع من دون أن يظهر ، ثم يعود للتردد كل مساء خلال أربعة أو خمسة أيام – وربما صباحاً في بعض الأحيان . كان يأتي منتظراً رسالة ، أو مجموعة من الرسائل ، لكن لم يكن يصله شيء أثناء أوقات غيابه . كانت تصله برقيات ورسائل عاجلة . الرسائل العاجلة تأتي من المدينة نفسها ، بالتأكيد أما البرقيات فمن العاصمة ومن أماكن أخرى .

تصمت الشابة ، وبما أن أحداً لم يعد يسألها عن شيء ، تضيف بعد لحظة قصيرة :

– من المرجح أنه استلم رسالة عاجلة ، عندما مرّ هذا الصباح . فإذا لم يستلمها فالخطأ يعود إلى مكتب الخدمة المركزية .

يبدو اللوم كأنه موجه لفالاس . لا نعلم ما إذا كانت نبرة الندم التي تظهر في صوتها لها علاقة بالرسالة المستعجلة التي لم تصل إلى صاحبها ، أم بسوء العمل في مكاتب البريد بعامة .

رأت الآنسة دكستر الرجل صاحب المعطف البالي للمرة الأولى عندما عادت من عطلتها ، كان ذلك في بداية تشرين الأول/أكتوبر ، لكن رقم المشترك

كان أعطي منذ مدة . متى؟ لا يمكنها أن تقول بالتحديد ، سيكون من السهل طبعاً إيجاد التاريخ في ملفات البريد . أما إذا كان الرجل جاء خلال شهر أيلول/ سبتمبر ، فيجب أن تسأل الموظفة التي حلت محلها .

لا تذكر السيدة جان لسوء الحظ ، فهي لم تلاحظ اسم ف . س . ، ولا تذكر أيضاً أنها رأت هذا الوجه ، وجه فالاس - بنظارة أو من غير نظارة .

أما السيدة لوبرمان ، فهي تعتقد أنه كان يتردد على البريد منذ مدة طويلة جداً ، لأن الملاحظة التي ذكرتها حول هيئته طبيياً ، تعود إلى شهر آب/أغسطس ، ذلك أن الدكتور جيلان عُيِّن مساعداً ، وقد ظننت في البداية أنه . . .

يسألها المحقق: - هل يمكنك أن تقولي ما إذا كانت العدسة اليمنى أعمق ، أم اليسرى؟

تنتظر الأنسة العانس لحظات قبل أن تجيب . تقول في النهاية:

- أعتقد أنها كانت في الجهة اليسرى .

يقول لوران مفكراً: - هذا غريب ، تذكرني جيداً: ألم تكن على الأرجح العين اليمنى؟

- انتظر ، سيدي المحقق ، انتظر! قلت: «الجهة اليسرى» ، والجهة اليسرى بالنسبة إلي هي بالنسبة إليه عينه اليمنى .

- ها ، حسناً ، أفضل ذلك ، (يجيب المحقق .)

يريد أن يعلم الآن ما إذا كان المعطف الأسمر اللون ليلة أمس ممزقاً عند الكتف الأيمن . لم تنتبه الشابة عندما استدار الرجل ، وعندما رآته وجهاً لوجه ،

لم ترَ المعلق . على العكس ، الأنسة لوبرمان ، تبعته بنظرها عندما رحل ، كان بالفعل هناك تمزق على شكل زاوية قائمة على الكتف الأيمن .

كما لم تتفق الموظفتان على محتوى البرقيات أخيراً: تذكر الأولى نصوصاً مختصرة وعادية جداً - تأكيدات ، تعديلات ، مواعيد - من دون أي تحديد يبين طبيعة الأعمال المعنية ، والثانية تتحدث عن رسائل طويلة تحتوي جمللاً غامضة لا بد أن لها معنى معيناً .

- البرقيات قصيرة دائماً ، لغلاء الثمن ، توضح جولييت دكستر وكأنها لم تسمع شيئاً مما صرّحت به زميلتها . لم تجرِ العادة أن يكرر المرسل فيها من دون فائدة ما يعرفه المرسل إليه .

ليس للسيدة جان رأي بما يقال أو لا يقال في برقية .

راح فالاس ولوران يحصران المعلومات التي حصلتا عليها بعد أن أصبحا وحدهما . غدا البيان جاهزاً بسرعة ، إذ لم تضيف المعلومات شيئاً . لم يقل أندريه ف . س . إطلاقاً لموظفة البريد ما يمكنها إيجاد أثره أو استنتاج أعماله ، إذ لم يكن ثرثاراً ، ولم يكن معروفاً في الحي من ناحية أخرى .

تعطي الأنسة لوبرمان رأيها الشخصي في نهاية الاستجواب: ثمة طبيب يقوم بعمليات مشبوهة «أترّون» يوجد أطباء غرييون هنا» ، تضيف بلهجة تقريرية .

لا سبب يدعو إلى رفض هذه الفرضية مسبقاً ، لكن لوران يبين أن فرضيته - وهي تقوم على فكرة تهريب الخشب - تبدو أكثر دقة ، مما يتفق مع طريقة تجمع البرقيات .

ماعدًا ذلك ، مازال من غير المؤكد أن يكون ف . س . هو الشخص الذي

رأته السيدة باكس من النافذة ، عند حلول الليل ، أمام الحاجز المشبك للجنح .
الشق الذي أشار إليه السكير في ظهر المعطف كان يمكن أن يدل عليه ، لكن
موظفة البريد الشابة صرّحت أنها لم تلاحظه ، لذا من المستحيل ، حول هذه
النقطة ، أن نأخذ بالحسبان شهادة الأنسة العانس التي أكدت ذلك ، والمعطف
وحده - من دون الشق - ليس إثباتاً كافياً ، كما يجب أن نقر أن الشبه مع
فالاس ، الذي إذا أردنا أن نعهده مهماً ، لن يقود إلى إدانة هذا الأخير أيضاً .

يطلع فالاس أيضاً على تقرير للشرطة ، قبل أن يغادر المفوض ، قدمه أحد
المفتشين الاثنين اللذين قاما بالمعاينات الأولى لمنزل الضحية مساء أمس .

- سترى ، يقول لوران وهو يقدم له حزمة صغيرة من الوريقات المكتوبة
على الآلة ، إنه عمل مهم جداً . إنه شاب صغير السن نسبياً ، بالتأكيد ، يمكننا أن
نستنتج أنها جريمته الأولى . لاحظ أنه حرر هذه الملاحظات مبادرة شخصية منه ،
بما أن تحرياتنا توقفت رسمياً . اعتقد أنه قام بتحقيقات إضافية لحسابه الخاص ،
بعد أن تلقى الأمر بإنهاء القضية . إنها حماسة الأعضاء الجدد ، أن تفهم ذلك .

بينما كان فالاس يهم بقراءة الوثيقة ، يدلي المفوض ببعض الملاحظات
- الساخرة كما يبدو - عن النتائج التي توصل إليها المفتش الشاب ، وعن
السذاجة التي تلقى بها اقتراحات الناس الذين «سخروا منه بالتأكيد» .

يبدأ النص هكذا: «يوم الاثنين ٢٦ ت ١ / أكتوبر ، في الساعة التاسعة
وثماني دقائق . . .»

تروي الصفحات الأولى بالتفصيل ، ولكن دون استطراد أو تعليق ،
الاتصال الهاتفى الذي قام به الدكتور جيوار والمعلومات التي أعطاها عن موت
الأستاذ وعن حادثة الهجوم ذاتها . بعد ذلك يأتي وصف محدد جداً للجنح

وما حوله: زاوية شارع آربانتور ، والحديقة الصغيرة بسياجها المكسو بالمضاض وحاجزها المشبك ، وبابا المدخل - الأول في واجهة المنزل والثاني خلفه . ووضعية الغرف في الطابق الأرضي ، الدرج ، السجاد ، غرفة المكتب في الطابق الأول ، وترتيب الأثاث الداخلي في تلك الغرفة الأخيرة مشروح أيضاً بدقة . ثم تأتي الملاحظات البوليسية البحتة: بقع دم ، بصمات أصابع ، أشياء تبدو وكأنها ليست في مكانها الطبيعي أو في وضعيتها الطبيعية . . . «وأخيراً البصمات رقم ٣ - لليد اليمنى - تظهر أيضاً بوضوح على ثقالة ورق مكعبة الشكل ، ذات الـ ٧٠٠ أو ٨٠٠ غ الموضوعة إلى يسار الورقة المخطوطة - على بعد عشرة سنتيمترات تقريباً» .

نصل تقريباً حتى الآن ، باستثناء تلك الملاحظات الحذرة إلى حد المبالغة ، إلى محتوى التقارير الأولى التي أنجزها المفتشون والتي أطلع لوران فالاس عليها هذا الصباح . ومع ذلك ، يوجد فيها دليان جديدان: التعطيل الحديث لجهاز الإنذار لباب السور (وهذا جديد بالنسبة إلى فالاس) ، وآثار حديثة لخطوات رُفعت عن الممر العشبي الذي يحاذي غربي الجناح؛ وقد سُجّلت مقاييس تلك الآثار ، ووسطي طول الخطوات أيضاً .

وُجّه انتباه أكبر هذه المرة إلى أقوال مدبرة المنزل . يتعرف فالاس من خلال الجمل المذكورة إلى التعابير المفضلة لدى السيدة العجوز . يمكننا أن نقرأ بخاصة التاريخ الكامل لتعطّل خط الهاتف ، والمحاولات غير المجدية للسيدة سميت في تصليحه .

يجمع المفتش المتحمس ، بعد شهادة المدبرة ، شهادة بواب البناية ، الذي يشغل الطرف الآخر من الشارع ، وشهادة صاحب «مقهى صغير يقع على بعد ٢٠ عشرين متراً من هنا ، في الرقم ١٠» مقهى «الحلفاء» . يتحدث البواب عن

رواد الجناح؛ فهو يجلس غالباً بعد الظهر - لاسيما في الفصل الجميل - عند عتبة الباب ، أمام مدخل الحديقة مباشرة ، وهكذا استطاع أن يستنتج أن عدداً قليلاً من الناس يزور الضحية: ساعي البريد ، الموظف الذي يراقب العدادات الكهربائية ومن وقت لآخر ، مندوب شركة ستائر أو مكانس كهربائية ، بالإضافة إلى أربعة أو خمسة رجال من الصعب للوهلة الأولى تمييز الوكلاء التجاريين منهم ، فهم يرتدون النوع نفسه من الملابس ويحملون الحقبة الجلدية ذاتها - لكنهم من برجوازي المدينة: أساتذة ، تجار ، أطباء . . . الخ .

نشعر أن الكاتب لا ينقل هذه الأقوال الواهية كلها إلا بدافع الموضوعية ، وعلى الرغم من العناية الذي يوليها في تقديمها بحيادية متساوية ، فمن الواضح أن التالي يهيمه شخصياً . الأمر يتعلق بشاب ، ذي هيئة طالب ، لكن في ملابسه الكثير من البساطة ، قصير القامة ، نحيل ، يعتقد أنه جاء مرات عدة خلال الصيف ، ثم بعد اختفاء دام أكثر من شهر ، تمكن البواب ثلاث مرات متتالية خلال الأسبوع الثاني من شهر تشرين الأول / أكتوبر - الأسبوع الذي كان فيه الجو حاراً - ولما كانت نافذة الغرفة التي يجلس فيها دوبون مفتوحة ، تمكن من سماع ارتفاع نبرة المحادثة مراراً أثناء زيارته ، وفي اليوم التالي نشب شجار حاد في نهاية اللقاء . كان الشاب هو من يصرخ بخاسة ، كما يعتقد البواب ، ذلك أنه يبدو عصياً جداً وربما يحتسي الكثير من المشروبات الكحولية - كان يتردد أحياناً إلى مقهى «الحلفاء» بعد خروجه من منزل البروفسور . مؤخراً مرّ الشاب بمحاذاة القناة برفقة صديق ، قبل الجريمة بليتين ، يفوقه طولاً وضخامة ، وأكبر سناً منه بالتأكيد . توقف الاثنان أمام المنزل ، ثم أشار الطالب الشاب إلى إحدى الغرف في الطابق الأول ، وكان يبدو في غاية الإثارة ، كان يشرح للآخر أمراً بكثير من الحماسة ، وهو يقوم بحركات مهددة .

بإمكان السيدة سميت على الرغم من أنها صماء («وغريبة قليلاً») ، وأنها

تبدو «جاهلة تماماً بصداقات رب المنزل»، بإمكانها أن تتمكن من إعطاء اسم الشاب وسبب مجيئه. وقد يكون مناسباً استجواب الخادمة من جديد، لكنها لسوء الحظ غادرت المدينة في غيابه. حاول المفتش أن يستنطق صاحب مقهى «الحلفاء». فيذكره بالمناسبة، أن «أصحاب هذه المهنة يملكون عموماً معلومات كافية عن الحياة الخاصة لزبائنهم». لم يكن صاحب المقهى يرغب بالحديث، وقد تطلّب الأمر صبراً ودبلوماسية كثيرين من الشرطي حتى يتوصل إلى لب القضية: كان دوبيون منذ عشرين عاماً «يقيم علاقة منتظمة» مع امرأة «من طبقة اجتماعية متواضعة»، وقد أنجبت له المرأة بعد مدة ولداً. والبروفسور الذي بذل ما بوسعه حتى لا يحدث هذا الأمر المؤسف «(?)» الذي استخدمته المرأة بعد ذلك وسيلة للضغط عليه، رفض بغياء الزواج منها. ولم يجد وسيلة أخرى لإنهاء «الملاحقات التي تعرّض لها» سوى الزواج الفوري من شابة من محيطه. لكن اللقيط بعد أن أصبح شاباً، عاد اليوم وفي نيته الحصول على إعانات مالية ضرورية، «مما سبّب مناقشات حادة سمع الجيران أصداؤها».

يبدأ المفتش في ضوء هذه النتائج، بإثبات أن دانييل دوبيون، في عدد من النقاط «شوّه هو نفسه الحقيقة».

يكتب: «إن فحصاً بسيطاً للأدلة المادية يثبت، دون الحاجة إلى شهادات الشهود أن:

أولاً: يوجد مهاجمان لا مهاجم واحد، الرجل ذو اليدين الصغيرتين (البصمات رقم ٣) وذو القدمين الصغيرتين (آثار على المرج) الذي كان يقوم بخطوات صغيرة، لا يمكن أن يكون من نزع سلك تماس الإنذار الكهربائي لسور الحديقة، فيفترض أن يكون الفاعل طويل القامة وضخماً. ومن جهة أخرى، إذا كان الأول مضطراً للسير على المرج تفادياً لصيرير الأرضية، ذلك

لأن ثمة آخر كان يسير إلى جانبه، على الطرف الآخر للممر، وقد اختار بنفسه هذا الطرف العريض والمريح .

ثانياً: أحد هذين الرجلين على الأقل كان من رواد المنزل وليس قاتلاً مجهولاً، من الواضح أنه يعرف تماماً الأماكن ونظام المنزل .

ثالثاً: من المؤكد أن البروفسور تعرف عليه، فقد ادّعى أن النار أُطلقت عليه قبل أن يجد الوقت الكافي لفتح الباب نهائياً . وهذا يفسر أنه لم ير وجه قاتله، وهو في واقع الأمر دخل إلى مكتبه وتحدث إلى الرجلين: حدث صراع بينهما، وكما تشير الفوضى في المكتب (أكداس من الكتب مقلوبة، الكرسي في غير مكانه . . . الخ) . والبصمات (رقم ٣) التي رفعت على ثقالة الورق .

رابعاً: إن السرقة ليست دافع الجريمة؛ فمن يعرف جيداً المنزل يعلم أن لا شيء يستحق السرقة في هذه الغرفة .

لم يشأ دوبون أن يشي باسم قاتله، لأن هذا الأخير أصابه عن قرب . كما أنه أخفى أطول وقت ممكن خطورة جرحه، آملاً أن ينقذه صديقه الدكتور جيوار وأن يتجنب الفضيحة . ولهذا السبب كانت الخادمة تعتقد أنه أصيب بجرح خفيف في ذراعه . »

وهكذا يعاد تكوين المشهد . فالشاب، بعد أن حاول من دون جدوى نداء الحق، والحب الأبوي، والشفقة، وأخيراً المساومة، قرر يائساً أن يجرب القوة . وبما أنه أحقق ووالده يخيفه، طلب لهذه المهمة مساعدة صديق أقوى منه وأكبر سناً، قدّمه بوصفه وكيلاً له، لكنه على الأرجح قاتل مأجور . حدد الاثنان موعد الحملة يوم الاثنين ٢٦ ت ١ / أكتوبر، في الساعة السابعة والنصف مساءً . . .

يصل دانييل دوبون أمام باب مكتبه ، وعيناه مسمرتان في الأرض ، اليد ممدودة نحو قبضة الباب باستعداد لفتحه ، عندما صعقته هذه الفكرة فجأة: «جان هنا وهو ينتظره!». يتوقف البروفسور ليلتقط أنفاسه . ربما لم يأت جان وحده: ألم يهدده في ذلك اليوم ، باصطحاب «رجل الأعمال» الخاص به؟ لا نعلم اليوم ما يقدر الأولاد على فعله .

بحذر ، يستدير قليلاً ، ويذهب على رؤوس أصابع قدميه حتى غرفة النوم بحثاً عن المسدس الذي يحتفظ به منذ الحرب في درج الطاولة الصغيرة قرب السرير . لكنه في اللحظة التي هم برفع صمام الأمان ، يباغته شعور بالخشية: لا يمكنه أن يطلق النار على ابنه ، إنه يريد إخافته فقط .

هو من جديد في الممر ، يبدو وزن المسدس في يده وكأنه لا يتناسب مع الخشية التي أحسّ بها قبل دقيقة؛ بالمقارنة ، تختفي تلك الخشية المباغته تماماً: لماذا قد يأتي ابنه هذا المساء؟ على كل حال لا يشعر دوبون بالخوف . لذا يضع المسدس في جيبيه . وسيأمر بدءاً من يوم الغد ، بإغلاق أبواب الجناح عند هبوط الليل .

يدير قبضة باب المكتب ثم يدفعه ، فيجد جان بانتظاره .

كان واقفاً بين الكرسي وطاولة المكتب ، وهو يقرأ بعض الأوراق . وثمة رجل آخر يقف جانباً أمام المكتبة ، يداه في جيبيه - شكله يوحي بأنه مشرّد .

يقول جان: - مساء الخير

مآزالت عيناه لامعتين ، بصلف وخشية معاً ، لاشك أنه شرب من جديد .
يكشر فمه بشبه ابتسامة .

- ماذا تفعل هنا؟ (يسأل دوبون بحدة .)

يقول جان: - جئت لأتحدث . هذا (وبإشارة من ذقنه) ، هو موريس . . .
إنه وكيلى (تكشيرة جديدة) .

- مساء الخير ، (يقول موريس .)

- من أدخلكما؟

يقول جان: - لا نحتاج أحداً ، نحن نعرف المنزل .

وهذا يعنى: «نحن من العائلة!» .

- إذن ، ستخرجان منه ، (يقول البروفسور بهدوء) . وهذا ليس بصعب:
أنتما تعرفان الطريق .

يقول جان: لن نخرج على الفور ، جئنا لتحدث ، حديث عمل .

- سبق أن أفضنا في الحديث حول هذا الموضوع ، يا صغيري . الآن
عليك الانصراف .

يتقدم دوبون نحو ابنه بتصميم ، يرى الرعب ظاهراً في عينيه . . . الرعب
والكراهية . . . يكرر: - ستنصرف .

يمسك جان بأول غرض يجده في متناول يده: ثقالة الورق ذات الزوايا
الحادة . يرفعها مستعداً للضرب . يتراجع دوبون ويضع يده على مسدسه .

لكن موريس يرى الحركة ، ويراه في الحال أمامه ، أسرع في التسديد عليه:

- دع هذا وأخرج يدك من جيبيك .

ثم يصمتون . لكن كرامة دوبون لم تسمح له بالطاعة لهذا الإنذار المذل -

لهذه الطريقة في الخطاب - أمام ابنه . يقول: ها هي الشرطة قادمة . كنت أعلم أنكما هنا بانتظاري ، فقبل أن أدخل اتصلت بها من غرفة النوم .

يقول مورييس: رجال الشرطة؟ لا أسمع شيئاً .

- لن يتأخروا ، لا تخشى شيئاً .

- مازال لدينا متسع من الوقت لتفاهم! - سيكونون هنا بين لحظة وأخرى .

يقول جان: - لكن خط الهاتف مقطوع منذ يومين .

هذه المرة ، أصبح الغضب أقوى . وفي خطفة برق تم كل شيء: الحركة المفاجئة للبروفسور كي يخرج سلاحه ، وطلقة النار التي أصابته تماماً في صدره ، والصرخة الحادة للشاب :

- لا تطلق النار يا مورييس!

-٤-

لكن الرئيس لا يبدو مقتنعاً . هو لا يجروء على رفض الفرضية التي قدمها مساعده من دون مناقشة ، فمن يعلم؟ إذا كانت هذه هي الحقيقة تماماً ، كيف سيبدو؟ كما يجب أن يفسر على نحو ما الجوانب الغامضة والتناقضات المتعلقة بالقضية . . .

فما يزعجه في هذه النظرية هو أنها تشكك - وتتهم حتى - شخصيات مسؤولة كبيرة ، سيكون من الخطر مهاجمتها - سواء أكانت بريئة أم مذنبه . يقول :

- لسنا معتادين هنا . . . لسنا معتادين في مكتب استخبارات الرئاسة ، أن نعمل على شبهات غير محددة هكذا . . .

يود أن يضيف ببساطة بهذا الصدد بضع دعايات سيئة بخصوص مكتب التحريات وعن «فايوس العظيم» ، لكنه يفضل أن يتمالك نفسه: ربما ليست هذه اللحظة المناسبة .

يقترح عليه ، آملاً أن يحيد ولو مؤقتاً مساعده عن الطريق المضللة التي يريد أن يسلكها ، يقترح عليه الذهاب في مهمة إلى مكان الجريمة: إذ يمكنه في هذا الوضع التحدث مع موظفي الشرطة المحليين ، ومع الطبيب الذي تلقى شهادة البروفسور دوبون عندما لفظ أنفاسه الأخيرة ، كما يمكنه أن يتحقق ما إذا كان الجناح الخاص للضحية لا يحتوي دليلاً جديداً ، يمكنه . . . لكن المساعد يهز رأسه بإشارة الرفض . فغير مجد تماماً أن يضيع وقته في هذه المدينة الكثيفة ، النائمة تحت ضباب بحر الشمال ، فهو لن يرى شيئاً ، لا شيء على الإطلاق . هنا ، في العاصمة حدثت المأساة . . . تحدث المأساة .

«هو يعتقد أنني خائف» ، يستنتج المدير في سره ، ولكن الأمر سيان لديه . يقول ، كما يمكنه أن يقول أي شيء آخر :

- نتشبت أحياناً لاكتشاف قاتل . . .

- . . . بعيداً جداً عنا ، (يتابع مساعده) ، بينما ليس علينا سوى أن نمد يدنا .

- لكن الجريمة حدثت مع ذلك هناك ، لا تنسى . . .

- حدثت هناك كما كان يمكن أن تحدث في أي مكان ، وواقع الأمر حدثت كما تحدث في أي مكان من دون تحديد ، كل يوم ، مرة هنا ، ومرة هناك . ماذا حدث في الجناح الخاص للبروفسور دوبون مساء يوم السادس والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر؟ تطابق ، نسخة طبق الأصل ، نسخة مماثلة

لحدث نسخته الأصلية ومفتاحه في مكان آخر . وهذا المساء ، من جديد ، ككل مساء . . .

- وهذا ليس سبباً كافياً مع ذلك لإهمال الأدلة التي يمكن أن نجدها هناك .

- ماذا سأجد هناك إذاً ، لو ذهبت؟ لا شيء سوى انعكاسات ، وظلال ، أشباح . وهذا المساء ، من جديد . . .

هذا المساء ، نسخة جديد ستُمرّر تحت الباب ، نسخة نظامية موقعة وموثقة ، مع القدر الضروري فقط من الأخطاء الإملائية والفواصل الموضوعة في غير مكانها ، حتى يستمر العميان ، والجنباء ، و «أسوأ الصم» في الانتظار ، وطمأنة بعضهم البعض الآخر: «لا يمكن أن تكون الجريمة ذاتها ، أليس كذلك؟» يقول المساعد أيضاً ، محاولاً التأثير على مديره:

- لسنا وحدنا من يعمل في هذه القضية . فإذا لم نتصرف بالسرعة الكافية ، سنجد مكتباً آخر يقطع علينا الطريق . . . «فايوس العظيم» ربما ، ليصبح مرة أخرى منقذ الوطن . . . وسيقبض علينا جميعاً إذا اكتشف أننا عرفنا الحقيقة وأخفيناها بعناية . . . ستُتهم بالتواطؤ ، كن متأكداً من ذلك .

لكن الرئيس لا يبدو مقتنعاً . يدمدم بين أسنانه ، بنبرة شك وريبة :

- . . . الحقيقة . . . الحقيقة . . . الحقيقة . . .

-5-

تلقى السيدة جان نظرة حذرة نحو مكتب البريد . كل شيء هادئ في الشارع . ولكن كل شيء كان هادئاً أيضاً في السابق ، ومع ذلك حدث كل شيء هنا ، يقع على بعد خمسين متراً آخر شارع جوناس . سبق أن بدأت

الأحداث في أيلول/ سبتمبر ، وإلا لما استدعاني المحقق للقائه بعد الظهر . من المحتمل أن تكون ساهمت من دون علم منها في مؤامراتهم ، لكنها على كل حال ، لم تحقق أية فائدة .

هي بالتأكيد أعطت الرجل رسائل من دون حذر منها: كان لديها صعوبة في التحقق من أرقام البطاقات ، من دون التأكد من وجوه المشتركين . لاشك أنه كان يتردد غالباً: فالآنسة دكستر تعرفه جيداً . قال إنه ليس هو ، بالطبع ، والسيدة جان لم تذهب لتدعي العكس ! فهم في سن تسمح لهم بتدبير أمورهم وحدهم . ومع ذلك ، فهي تملك الدليل على أنه حقاً هو: فإذا كان هذا الصباح يصبر بقوة على الذهاب إلى مكتب بريد آخر ، فذلك لأنه لا يستطيع العودة إلى هذا المكتب لأن من السهل التعرف إليه هناك .

كان منهكاً عندما رآته من جديد بعد الغداء ، لدرجة كاد أن ينام على طاولته . ماذا فعل طوال وقت الصباح؟ فعل شيئاً آخر ، بالتأكيد ، غير إرسال برقية . ولماذا كان يتسكع من جديد في هذه النواحي؟

قد يكون طبيباً ، (تقول إميلي) . كان حسن المظهر ، ويبدو عليه الطابع الجدي . تحاول السيدة جان أن تتخيل فالاس بالنظارة الكبيرة التي وضعتها الآنسة العانس ، بالفعل قد يكون ذلك شكل طبيب معقول . وهذا ، كما يبدو ، لا يمنعه من أن يكون مجرمًا .

— يوجد هنا أطباء غريبو الأطوار ، أتعلمون؟—

هذا صحيح . ومن لا يعرف الشيء الكثير: رأينا ذلك أثناء الوباء . لكن هذا الطبيب خبيث . فقد نجح حتى في وضع المحقق في جيبه: كاد أن يدير الاستجواب بنفسه! أجاب القصيرة دكستر بثقة كبيرة لدرجة لم تعد تجرؤ فيها المسكينة على إضافة المزيد . ليس لديهم فرصة قط في الوصول إلى المذنب الآن .

تفكر السيدة جان في هذه الظروف الغريبة التي سمحت للمذنب بأن يدير هو نفسه دفة التحريات ، وبما أنها لا تستطيع أن تتابع فكرة تسبب الدوار كهذه إلى آخرها ، تدير نظرها بإرادتها عن مكتب البريد وتشرع بالتفكير في شيء آخر .

-١-

صوت جمهوري يملأ قاعة الاستقبال . يهبط من مكبرات صوت غير مرئية ، ويرتطم من كل ناحية بالجدران المحملة بلوحات الإعلانات والدعايات ، مما يضخمه أكثر؛ فهي تعكسه وتضاعفه ، وتزينه بموكب من الصدى والترددات المتباينة ، فتضيع فيها الرسالة الأولى ، متحولة إلى صوت وحي ضخم ، وعظيم ، وغامض ، ورهيب .

تتوقف الضججة ، كما بدأت فجأة ، تاركة من جديد المكان للإشاعة غير المنظمة للجمهور .

يتسارع الناس في الاتجاهات كلها . ربما عرفوا - أو يظنون أنهم عرفوا - معنى الإعلان ، لأن الاهتياج تضاعف وسط الحركات المختصرة ، إذ لا تشغل كل واحدة منها سوى جزء صغيرة من القاعة - بين عمود الإعلان والكوة ، من لوحة الإعلانات إلى الكشك - وحتى من مساحات غير واضحة ، مزدحمة هنا وهناك بدروب ملتوية ، ومتردة ، ومشكوك فيها - وسط هذه الكتلة المتحركة ، التي يقطعها أحياناً إلى ذلك الحين بعض مسار ثانوي - تظهر الآن تيارات بارزة ، ويخرج صف في زاوية يجتاز قاعة الانتظار على نحو منحرف واضح ، وأبعد من ذلك ، تجتمع إرادات متفرقة في موشور من النداءات والخطوات السريعة يشق تدفقها ممر واسع ، لتأتي فتصطدم بأبواب الخروج؛ امرأة تصفع صبياً ، ورجل يبحث بقلق في جيوب متعددة عن بطاقة سفر اشتراها للتو ، يعلو الصراخ من كل جهة ، تُجرُ حقائب ، يتسارع الناس .

ليس مع الدكتور جيوار حقيقة ولا بطاقة سفر . فهو لا يهتم لمواعيد القطارات . لذا لم يفهم ما أذاعته مكبرات الصوت . لم يطرأ على تحركاته ولا على تصرفاته العامة أي تغيير مهم منذ تلك اللحظة : يقوم بخمس خطوات بمحاذاة الجدار ، بين المشرب والهواتف ، يستدير ، يقوم بخطوتين في الاتجاه المعاكس ، ينظر إلى ساعته ، يرفع بصره نحو ساعة الحائط الضخمة ، يتابع طريقه حتى حجرة الهاتف ، ويستدير ، ويتوقف ، ويرتاح بضع لحظات . . . ثم ينطلق من جديد ، بخطوات صغيرة ، نحو المشرب . إنه ينتظر شخصاً لم يأت بعد .

من جديد يُسمع الصرير النذير ، وفجأة يدوي في الصالة كلها انتشار الصوت الإلهي . إنه صوت واضح وقوي ، يجب الإصغاء إليه بانتباه ثم يلاحظ المرء أنه لا يفهم معناه .

كانت هذه الرسالة الأخيرة أقصر من سابقتها . لم يتبعها أي تغير ملحوظ في الجمهور . يشرع الدكتور جيوار الذي كان ساكناً بالسير نحو صف الحجرات الهاتفية .

لكن هذه الكلمات التي لا يبدو أنها حققت هدفها ، تترك في نفسه إحساساً بالضيق . فإذا لم يكن الإنذار موجهاً للمسافرين ، فربما كان هو المعني به : «الدكتور جيوار مطلوب على الهاتف» لم يتخيل أن يُدعى بهذا الصوت الفظيع . وهو يرى ، بعد التفكير ، أنه من غير المحتمل أن تتكلف مكبرات الصوت في المخططة بإيصال المكالمات الشخصية وسط انطلاقات القطارات .

يستنتج الدكتور جيوار (القصير) ، عند وصوله من جديد أمام صف الحجرات الهاتفية ، أنها لا تحمل أرقاماً تسمح بتمييز الواحدة عن الأخرى ، فما كان بمقدور الصوت أن يحدد الجهاز الذي عليه الإجابة منه . يتوجب عليه الآن أن يرفع الساعات كلها الواحدة تلو الأخرى . . . وذلك لا يمثل صعوبة

لا يمكن تجاوزها. وإذا سأله أحد الموظفين عن سبب تصرفه، سيشرح له أن الصوت لم يقل له أي الهواتف كان يطلبه. لاشيء خارج عن المألوف، على كل حال. لكن قد يتلقى مكالمات أخرى -لسوء الحظ- ويجد نفسه متورطاً في مأساة جديدة، وكان الوضع الذي يتخبط فيه ليس معقداً بدرجة كافية. يستعيد في ذهنه اليوم المشؤوم الذي تعرّف فيه بالآخر، نتيجة لخطأ مماثل: فقد طلب رقماً خطأً، وفي الحال توالى الأحداث على نحو سريع جداً إلى حد لم يتمكن فيه من التنصل، وتوصل شيئاً فشيئاً إلى الموافقة على... على كيلي، لم يترك له الآخر الخيار قط.

ألا يوجد إذاً في المدينة سوى جرّاح واحد، حتى يلجأ دويون بدوره إليه؟ إليه بالتحديد، «طبيب العصابة»! هذه التسمية، على الرغم من كونها غير مناسبة في واقع الأمر، إلا أنها توافق الفكرة التي احتفظ به هو نفسه منذ ذلك اللقاء الوحيد. يشعر بأنه متورط، وبما أنه لا يستطيع استخدام ما يعرفه ضدهم، لا يرى سوى الجانب الآخر من وضعه: إنه في قبضتهم، تحت رحمتهم؛ ولأقل خطأً يمكن أن يتخلصوا من هذا المساعد الذي أصبح من دون جدوى. فإذا عرفوا، على سبيل المثال، أن ضحيتهم الأخيرة تختبئ منذ مساء أمس في عيادته الخاصة...

لماذا لا يصل فالاس هذا؟ يفقد جيوار صبره. هو لم يطلب هذا اللقاء، لقد حدد فقط المكان، ليبعد عن العيادة تحريات التحري الخاص. يهتم قسم كبير من الناس لأمر هذا الميت المزيف.

يُدْهَش الدكتور (القصير) أحياناً لأن الكارثة لم تقع بعد. وجب على دويون أن يكون فارق الحياة منذ حوالي العشرين ساعة، وجيوار هو نفسه من منحه الملجأ... ما كان بوسعها أيضاً أن يخون ثقة الأستاذ وأن يسلمه لأعدائه.

كذلك ، أين يمكن أن يقابلهم؟ سيذكر هذه الذريعة ، ويدّعي أيضاً أنه لم يعلم من أين أتت الرصاصة ، سيقول . . . ولكن بماذا يفيد ذلك؟ فالآخر لم يعتد على التفكير مطولاً بمصير رعاياه . لقد فهم منذ البداية ، دون أن يصرح بذلك لنفسه بوضوح ، أنه حكم على نفسه بنفسه بتقديمه المساعدة للأستاذ ، مساعدة يجدها تافهة ، ولن يُخدع الآخر فضلاً عن ذلك بسهولة .

لكن ، لاشيء يأتي بعد ليعكر هذا النهار . يمر الوقت على نحو طبيعي . ينتظر جيوار بكل هدوء ، السيارة التي وعد بها الوزير . كلما اقتربت ساعة الرحيل المحددة ، استعاد الدكتور الثقة رغماً عنه ، لكنه يخشى الآن أن يأتي فلاس هذا ، الذي لا حاجة لنا به ، ليخرب كل شيء في اللحظة الأخيرة . يشعر بالقلق لهذا التأخير الذي لم يسمح بتوقعه إلحاح التحري الخاص . يمكن لجيوار أن يستغل ذلك فيرحل من دون أن يراه ، لاسيما أن التزاماته المهنية لا تسمح له بالبقاء حتى المساء ، لكنه لا يقرر الرحيل ، فالتحري قد يصل بين لحظة وأخرى ، وإذا لم يجد أحداً في الموعد ، سيعود إلى شارع كورانت - وهذا ما يجب تجنبه بأي ثمن .

يتابع الدكتور تنقله بين المشرب والهواتف ، خمس خطوات في الاتجاه الأول ، وخمس في الآخر . لا يعرف أين يتجه . . . يتوقف . ينظر إلى ساعته - مع أنه نظر إلى الساعة الجدارية الضخمة منذ عشرين ثانية تقريباً . يحدد لنفسه مهلة لن ينتظر بعد انقضائها ، لكنه يتجاوزها ولا يرحل .

تمتد كتابة -إلى يسار الساعة الجدارية- بحروف كبيرة حمراء ارتفاعها

٥٠ سم:

«لا تتزاحموا عند المخرج»

ونقرأ بالتناسب ، وبحروف زرقاء على خلفية صفراء ، هذا الإعلان: «لا ترحل من دون أخذ صحيفة الزمن» .

يفكر جيوار فجأة أنهم يلهون به ، إذ تراوده هذه الفكرة الحتمية بعنف إلى حد يشعر فيه بإحساس جسماني تقريباً ، مشابه لذلك الإحساس الذي تبعثه زلة قدم تجعلك تفقد التوازن فجأة .

لا يهتم المدعو فالاس بأن يصل في الوقت المحدد لهذا الموعد العبيثي: إن العيادة وحدها تثير اهتمامه ! إنه مشغول في هذه اللحظة بالذات بالبحث في كل مكان ، وبما أنه قدّم أمراً بالتفتيش ، لا أحد يجزؤ على معارضته . باختياره لهذا المكان الغريب - بهو المحطة - لا يدفع جيوار سوى شكوكه بالتحري الخاص ، مع ترك المجال حراً لفضوله .

ربما يكون ثمة متسع من الوقت للحوول دون كشف دوبون . ليس لدى جيوار دقيقة يضيعها . بينما هو يجتاز البهو ، يفكر في الطريقة التي يعالج فيها الأمر ، وإذا بضيق جديد يستحوذ عليه: فالاس هذا شرطي مزيف ، وهو يبحث عنه ليقضي على الأستاذ . . .

يتوقف الدكتور القصير كي يفكر .

إنه أمام بائع صحف ، فيتصنع أنه يتأمل واجهة المحل . («لا ترحل من دون أخذ صحيفة الزمن») . يدخل بذريعة أنه يريد شراء نسخة المساء .

ثمة زبون ، منحني على الكونتوار ، ينتصب ويتراجع قليلاً ليفسح له مكاناً في المحل الصغير جداً ، ثم يطلق صيحة تعجب ، يقول:

- ها ، دكتور! كنت أبحث عنك .

روى الدكتور جيوار للمرة الثالثة اكتشافه لسارق في المكتب ، طلبة
المسدس ، «الجرح السطحي - الخفيف» ، الموت على طاولة العمليات . إنه يعرف
الآن حكايته عن ظهر قلب ، وهو يشعر بأنه يرددها بعفوية أكثر مما كان يفعل في
الصباح ، في مكتب المفوض ، وعندما نطرح عليه سؤالاً إضافياً يقدم التفاصيل
المطلوبة دون ارتباك ، وارتجالاً أيضاً . شيئاً فشيئاً أخذ هذا التخيل ما يكفيه من
حجم في ذهنه ليملي عليه آلياً الإجابات المناسبة ، وهو مستمر وحده في إفراز
ملاحظاته المحددة وظنونه ، كما تفعل الحقيقة في ظروف مماثلة . ليس جيوار
بعيداً عن الاستسلام لها في بعض الأحيان .

لا يسعى مُحاوره ، فضلاً عن ذلك ، إلى تعقيد المهمة له . فهو يعطيه الرد
بالموافقة: إذ نجد أنه معتاد مسبقاً على هذه النسخة من الأحداث ولا يفكر في
معارضتها .

- هل يمكنك تحديد المسافة التي أطلقت الرصاصة منها تقريباً؟
- حوالي خمسة أو ستة أمتار ، من الصعب إعطاء رقم محدد .
- هل أصابته الرصاصة مواجهة؟
- نعم ، تماماً مواجهة ، بين الضلع الرابع والخامس .
- بالنسبة إلى رصاصة أطلقها رجل يهتم بالفرار ، يمكننا القول إنها أُطلقت
بمهارة .

- لم يكن ثمة جرح آخر ، أليس كذلك؟
- لا ، ذلك الجرح فقط .
- يجري الحوار بسهولة ، بسهولة تصل إلى حد القلق ، كتمويه بارع جداً
لفخ . يتساءل جيوار ما إذا كان فالاس يعرف أكثر مما يصرح به .

أليس بدهياً ، على العكس ، أن يكون التحري الخاص على اطلاع على الحقيقة كلها؟ وإلا لما كانوا أرسلوه من العاصمة من أجل سرقة بسيطة . إذاً ، ماذا يسعى للحصول عليه من الطبيب؟ يطرح هذا الأخير بحذر بعض الأسئلة المثوية ، في محاولة لمعرفة ما إذا كان من الضروري فعلاً أن يتابع هذه المهزلة ، لكن فالاس يبقى منغلماً في شروطهم البدائية ، إما لأنه يجدها أكثر تأكيداً ، أو لأنه لم يفهم إشارات الذكاء التي وجهها جيوار إليه ، أو ربما لأسباب أخرى .

كان الطبيب القصير يود أن يعرف على الأخص الحماية التي يمكن أن ينتظرها من الشرطة . وعلى الرغم من سوء الفهم الذي يخيم على لقاءهما ، فإنه يشعر بالتعاطف مع فالاس ، لكنه لا يظن أن مساعدته ستكون فاعلة جداً ، أمام منظمة بهذه القوة . إنه لا يرتدي حتى الزي المعروف . أما بالنسبة إلى عناصر المفوضية العامة ، فعلى الرغم من أنهم يتمتعون للوهلة الأولى بهيئة أكبر ، فإن جيوار يقترب منهم إلى حد يسمح له بتكوين فكرة عنهم ، وعما يمكنه أن يأمل منهم .

إن الثقة النسبية التي يوحها إليه فالاس لا تمنعه ، مع ذلك ، من البقاء حذراً: ربما كان «التحري الخاص» المزعوم يجعل لحساب الآخر .

وليس مستبعداً بالمقابل أن يكون صدقه خالصاً إلى حد يجهل فيه ما حصل فعلاً .

يعود جيوار إلى عيادته . لم يستطع أن يحصل من فالاس على أية معلومة أو وعد . أصبح أمله يتضاءل في الحصول على المساندة المحتملة من سلطة ما ، إذا ما حصل له مكروه . قد يدان بسرعة كحليف .

يجد نفسه أنى اتجه مذنباً بالقدر نفسه . لا يتوقع سوى مخارج حتمية .

أخذ التحري الخاص الذي كان يوحى إليه في البداية بخشية غير متوقعة ،

مقابل هذه المخاطر المتعددة، أخذ يبدو له بعد التفكير وكأنه قليل الخطورة، إذا لم يكن المخلص. أو شك جيوار أن يلوم نفسه على عدم الثقة أيضاً: أما كان يتوجب عليه أن يقول الحقيقة التي يبدو أن فالاس كان يجهل جوهرها في نهاية المطاف.

لكن الطبيب القصير يتذكر حينها الكلمات الأخيرة التي أفلتت منه وهو يغادر: «نستبسل أحياناً في اكتشاف قاتل . . .» وندم عليها في الحال، لأنها تنطبق بوضوح تام - أوضح بكثير مما كان يتوقع - على الوضع الحالي. ثم غبط لتلفظه إياها. فالاس بفضلها يمتلك هكذا مفتاح اللغز، وإذا فكر به بعناية، واستفاد منه، لن يسلك درباً خاطئة. لكن جيوار لم يلاحظ أن التحري الخاص أولى اهتماماً خاصاً بجملته.

شارع كورينته: يذهب الدكتور للقاء دانييل دوبون في الغرفة الصغيرة البيضاء. وكعادة العيادة، يدخل من دون أن يقرع الباب. كان البروفسور يدير ظهره للباب. فانتفض لسماعه:

- أخفتني

يقول جيوار: - اعذرني، دخلت كما أفعل في منزلي. لا أدري ماذا دهاني.

لا بد أن دوبون كان يقطع الغرفة ذهاباً وإياباً بين السرير والنافذة. يبدو أنه متضايق.

يسأل جيوار: - هل ذراعك بخير؟

- نعم، نعم، إنها بخير.

- قليل من الحمى؟

- لا ، لا ، أنا بخير .

- حري بك ألا تتحرك كثيراً .

لا يجيب دوبون . هو يفكر في شيء آخر . يذهب نحو النافذة ، يفتح إحدى الستائر ، يضع ستيمترات فقط ، على نحو يمكنه من مشاهدة الشارع ، من دون أن يُرى .

يقول : - لن يعود مارشاً ؟

يجيب الطبيب : سيصل في الحال .

- نعم . . . عليه الإسراع .

- مازال لديك متسع من الوقت .

- نعم . . . ليس كثيراً .

يفلت دوبون طرف الستارة ، فيسقط القماش الرقيق ، معيداً تشكيل رسم الزركشة . وقبل أن يتوقف كل شيء تماماً ، يهتز الكل في بضع ذبذبات ضئيلة - نزول بسرعة - هزة خفيفة .

يخفض الأستاذ ذراعه بشيء من البطء ، مثل مَنْ لا شيء يفعله بعد ذلك ، ولا سبب لديه في استعجال حركاته . إنه ينتظر شخصاً لا يأتي ، وإخفاء عصيته ، وللسيطرة على جزء منها ، يُجبر نفسه على هذا الاعتدال المبالغ فيه . ثم يستسلم .

وتصعد يده على طول الساق ، بدلاً من أن تبقى معلقة بشكل طبيعي ، وتردد أسفل السترة ، يرفعها قليلاً ، ثم ينزلها ثانية ، تصعد من جديد ، تبتعد ثم تختفي في الجيب .

يستدير دوبون نحو الدكتور .

يلمح وجهه في مرآة المدفأة ، وتحتها الصف الثاني للأشياء المصفوفة على الرخام: التمثال الصغير وانعكاسه ، الشمعدان النحاسي وانعكاسه ، إناء التبغ ، صحن السجائر ، والتمثال الصغير الآخر - حيث يهم مصارع في سحق عظاية .

المصارع مع العظاية ، صحن السجائر ، إناء التبغ ، الشمعدان . . . يخرج يده من جيبه ويمدها نحو التمثال الصغير ، تمثال الأعمى يقوده طفل . يتقدم انعكاس اليد في المرآة للقاء التمثال . يبقى الاثنان معلقين لحظة فوق الشمعدان النحاسي - مترددين . ثم يتوضع الانعكاس واليد ، الواحد أمام الآخر ، برصانة ، على مسافة متساوية من سطح المرآة ، على طرف الرخام وعلى طرف الصورة .

الأعمى والطفل ، الشمعدان النحاسي ، إناء التبغ ، صحن السجائر ، المصارع ساحقاً العظاية .

تتقدم اليد من جديد نحو الأعمى البرونزي ، وصورة اليد نحو صورة الأعمى . . . اليدان ، الأعميان ، الطفلان ، الشمعدان دون شمع ، إناء الفخار ، صحن السجائر ، أبولو وصورته ، العظايتان . . .

يبقى بعض الوقت في حالة ترقب . بعدها ، يمسك التمثال المتوضع يساراً بتصميم ويستبدله بإناء الفخار ، ثم يضع الشمعدان مكان الإناء ، والأعمى مكان الشمعدان .

إناء التبغ ، الأعمى والطفل ، الشمعدان ، صحن السجائر والمصارع الجميل .

يتأمل عمله . ثمة شيء مازال يفاجئ النظر . إناء التبغ ، الأعمى ،

الشمعدان... يستبدل الشيئين الأخيرين أحدهما بالآخر. إناء الفخار وانعكاسه، الأعمى وانعكاسه، الشمعدان، المصارع والعظاية، صحن السجائر.

أخيراً، يدفع صحن السجائر الأحمر بضع سنتيمترات نحو زاوية الرخام.

يخرج جاريناتي من غرفته، يغلّق مزلاج الباب، ويبدأ بنزول الدرج اللولبي الطويل.

على طول القناة. تلمع كتل الجرانيت التي تحاذي رصيف النهر تحت الغبار، من هنا وهناك بلوراته السوداء والبيضاء والزهرية. إلى اليمين، قليلاً في العمق، يوجد الماء.

سلك كهربائي مكسو بالمطاط يرسم على الجدار خطاً عمودياً.

ينعطف إلى الأسفل، تسعين درجة، مرة، مرتين، كي يجتاز الإفريز بطابق. لكنه، بعد ذلك، يتعد عن الجدار بدلاً من محاذاة الزاوية الداخلة، ويتموج في الفراغ في خمسين سنتيمتراً.

إلى الأسفل، يدنو مجدداً من الجدار العمودي، يرسم قوسين أو ثلاثة منحنيات، ليستعيد في النهاية نزوله المستقيم.

أصدر الباب الزجاجي الصغير أنيناً عميقاً. فتح جاريناتي الباب أكثر مما يجب، وهو يستعجل الهرب.

مكعب الحجر الفضي. صوت الإنذار وقد أطلق. الشارع الذي تنبعث منه رائحة حساء الملفوف. الدروب الموحلة التي تختفي بعيداً جداً في الحديد المزنجر.

إنها الدراجات العائدة من العمل . يجري تدفقها على طول الطريق الدائري .

- ألا تقرأ الصحف؟ ينحني بونا نحو حقيقته . . .

يغلق جاريناتي أذنيه ليترد الصوت المزعج . يقوم هذه المرة بذلك بيديه الاثنتين ، يتركهما لحظة ملصقتين تماماً على طرفي رأسه .

عندما يرفعهما ، يكون الصغير قد اختفى . يبدأ بالسير بحذر ، وكأنه يخشى أن يعيده بحركاته السريعة . وبعد بضع خطوات يجد نفسه من جديد أمام المبنى الذي خرج منه .

يلاحظ بعد عدة خطوات ، وهو يرفع رأسه نحو المحل المضاء ، جناح الآجر الذي يقع في زاوية شارع «آربانتور» . ليس هذا المنزل نفسه ، بل صورة ضخمة كستارة وضعت خلف الواجهة الزجاجية .

يدخل .

لا أحد في المخزن . من باب داخلي تصل امرأة شابة سمراء توجه له ابتسامة رائعة . يدير بصره نحو الرفوف التي تغطي الجدران .

ثمة واجهة زجاجية مليئة كلياً بالسكاكر ، وكلها مغلقة بأوراق ملونة بألوان صارخة وموزعة في علب كبيرة ، مدورة وبيضوية الشكل .

واجهة زجاجية مليئة كلياً بالملاعق الصغيرة مجهزة في مجموعات من اثنتي عشرة . مصطفة بالتوازي ، ومجموعات أخرى مصفوفة على شكل مروحة ، في مربعات ، في شكل شمس . . .

سيذهب بونا إلى شارع آربانتور ، ليقرع جرس الباب في الجناح الصغير؛ ستسمع الخادمة العجوز الصماء في النهاية وتأتي لتفتح له .

- السيد دانييل دوبون ، من فضلك .

- ماذا قلت ؟

يكرر بونا بصوت أعلى :

- السيد دانييل دوبون !

- نعم ، هنا ، ماذا تريد منه ؟

- جئت لأعرف شيئاً عن أخباره . . . أعرف عن أخباره !

- ها ، نعم ، أنت لطيف . السيد دوبون بخير .

لماذا يذهب بونا ليعرف شيئاً عن أخباره ، بما أنه يعرف أنه مات ؟

ينظر جاريناتي تحت المنضدة ، يختفي ازدحام الدعائم المعدنية والأسلاك تدريجياً عن البصر . تزمجر الآليات الضخمة للجسر المتحرك بانتظام ، من الطرف الآخر للقناة .

ربما يكفي إدخال جسم صلب ما - وبحجم صغير جداً- في المسننة الأساسية ، ليتوقف النظام كله ، مُطلقاً أزيزَ آليّة معطلة . ثم جسم صغير صلب جداً ، يقاوم السحق ، مكعب الحجر الفضي الرمادي . . .

ما الفائدة؟ سيصل فريق النجدة في الحال . غداً سيسير كل شيء كالمعتاد ، وكأن شيئاً لم يحدث .

- السيد دانييل دوبون ، من فضلك .

- ماذا تقول ؟

يرفع يونا صوته :

- السيد دانييل دوبون !

- نعم ، نعم ! لا داعي للصراخ هكذا ، أتعلم . لست صماء ! ماذا تريد من السيد دوبون أيضاً؟

- جئت أسأل عن أخباره .

- عن أخباره؟ لكنه مات يا ولدي ! مات ، أسمع ! لم يعد أحد هنا ، وصلت متأخراً .

يطلق الباب الزجاجي زمجرة عميقة .

ثمة شيء يجب أن يقال لفلاس؟ ماذا سيقول له إذن؟ يُخرج البطاقة البريدية من جيب معطفه ، ويتوقف ليتأملها . يمكننا حتى أن نعد تقريباً بلورات الجرانيت في الإطار الحجري الذي يشكل الصف الأول .

يدفع كرة من الورق المدعوك - مائلة إلى الزرقة وقذرة ، يدفعها بقدمه ، مرتين أو ثلاث مرات .

لوحة زجاجية سوداء مثبتة بأربعة مسامير مذهبة . المسامير المثبتة إلى الأعلى يميناً فقد الزهرة المزينة التي كانت تغطي رأسه .

درجة بيضاء

آجرة ، آجرة عادية ، آجرة من بين آلاف الآجرات التي يتألف منها الجدار .

هذا كل ما بقي لجاريناتي في حوالي الخامسة مساء .

تصل قاطرة السفن الآن إلى الجسر التالي ، وحتى تتجاوزه تبدأ بخفض مدخنتها .

مازال السلك إلى الأسفل ، على المستوى العمودي للعين ، يمر على سطح الماء ، مشدوداً ومستقيماً ، أضخم من الإبهام تقريباً . يُرَفَع رويداً رويداً فوق المويجات الخضراء المزرقة .

وفجأة ، تنبثق فوق قوس الجسر المقدمة المدببة للقارب ، مدفوعة بتدفق من الزبد ، ثم تبعد ببطء نحو الجسر التالي .

ينتصب الرجل القصير ذو المعطف الطويل المخضر ، المنحني فوق الدرازين .

الفصل الخامس

الحمد لله

إنه الليل قد هبط من قبل ، وساد الضباب البارد لبحر الشمال ، حيث ستنام المدينة . لم يكن هناك نهار تقريباً . يحاول فالاس ، خلال سيره على طول المخازن التي بدأت تُضاء الواحد تلو الآخر ، أن يميز العناصر التي يمكن استخدامها من التقرير الذي عرضه عليه لوران . ربما لم تكن السرقة باعث الجريمة ، « هو مكلف ، ومدفوع له - بالمعنى الدقيق للكلمة - ليعرف الباعث » . ولكن لماذا يذهب إلى تخيل ازدواج شخصية القاتل ؟ لن نستفيد كثيراً إذا افترضنا أن الرجل الذي أطلق الرصاصة القاتلة ليس هو الذي دلَّ على الطريق المألوفة عبر الحديقة والمنزل . لا سيما أن دليل الخطوات على المرج ليس مُقنعاً جداً . فإذا كان أحدهم سار على الطرف الآجري للممر ، لن يكون على الثاني سوى أن يسير خلفه ، أو أمامه ، بما أنه يعرف الطريق وحده ، كما افترضنا . هذا هو الوضع الذي يمكننا أن نتبين فيه تحركات المتسكعين الليلين على نحو أفضل . لا حاجة لأحد - على كل حال - في السير على المرج ؛ وإذا فعل أحدهم ذلك ، فهذا بالتأكيد لسبب آخر ، أو من دون أي سبب على الإطلاق .

يشعر فالاس بالتعب المتراكم منذ الصباح وقد بدأ يثقل ساقيه . لم يعتد على السير لمسافات طويلة كهذه . لا بد أن مراوحاته المتكررة بين طرفي المدينة تمثل في نهاية المطاف عدداً لا بأس به من الكيلومترات ، قطعها على قدميه في جزئها الأكبر . توجه عندما خرج من المفوضية نحو شارع كورينته عبر شارع «شارت » ، والبلدية ، وشارع برجير ، وهناك وجد نفسه في مفترق طرق بين ثلاثة شوارع: الشارع الذي قدم منه ، واتجاهان ممكنان أمامه ، وقد شكلا زاوية قائمة . يتذكر أنه سبق له المرور من هذا المكان مرتين: في المرة الأولى سلك

الطريق الصحيح ، وفي المرة الثانية أخطأ المسير؛ لكنه لم يعد يذكر أيهما سلك في المرة الأولى ، فهما متشابهان إلى حد كبير .

يسلك الشارع اليساري ، وبعد انعطافات عدة فرضتها وضعية الدروب ، يجد نفسه ، أسرع مما توقّع ، في ساحة دار القضاء ، تماماً أمام المفوضية العامة .

كان لوران يخرج منها في تلك اللحظة ، فبدا مندهشاً لرؤية فالاس في هذا المكان ، وقد غادره منذ ربع ساعة . لكنه لم يطلب أي تفسير ، واقترح على التحري الخاص أن يقوده في سيارته إلى العيادة ، لأنه سيذهب هو نفسه في هذه الجهة .

كان فالاس بعد دقيقتين يقرع الجرس على الباب رقم ١١ . إنها المريضة ذاتها التي فتحت له الباب هذا الصباح ، وألحت عليه دون تحفظ بالبقاء على الرغم من غياب الدكتور . فهم من ابتسامتها أنها عرفت . «الكل متشابهون!» . قال لها إنه يرغب بالحديث إلى الدكتور جيوار شخصياً ، وأكد على الصفة العاجلة لإجرائه ، فقدم لها بطاقته حيث توجد إشارة: «مكتب التحريات في وزارة الداخلية» .

تركته ينتظر في صالة مظلمة ، في هيئة مكتبة مظلمة . ولما لم يدعه أحد للجلوس ، أخذ يتجول في الغرفة طويلاً وعرضاً ، أمام الرفوف المحملة بالكتب المجلدة ، قارئاً عند مروره بعض العناوين من دون تمنع . ثمة رف كامل تشغله كتب مكرّسة للطاعون ، وهناك كتب تاريخ بعدد كتب الطب .

تعبّر امرأة الغرفة ، ثم امرأتان أخريان ورجل قصير نحيل يضع نظارة ، يبدو عليه الاستعجال . تعود المريضة أخيراً ، وكأنها نسيته ، تسأله عما ينتظر ، فيجيب بأنه ينتظر الدكتور جيوار .

— لكن الدكتور جيوار غادر للتو ، ألم تره إذاً؟

كان من الصعب أن يصدق أنها لا تسخر منه . كيف يكون بوسعه أن يعرف أن الرجل الذي رأى كان الدكتور جيوار ، بما أنه لا يعرفه؟ ولماذا لم تعلن عن زيارته كما طلب منها؟

- لا تغضب يا سيدي ، ظننت أن الدكتور حدثك قبل خروجه . لقد قلت له إنك هنا . لكنه استدعي على عجل لحالة خطيرة جداً ، كان من الصعب عليه البقاء - ولو لدقيقة . وبما أن مواعيد بعد الظهر كثيفة جداً بالنسبة إلى الطبيب ، فقد طلب مني أن تنتظره في الرابعة والنصف تماماً في بهو المحطة ، في الزاوية الواقعة بين الهواتف والمشرّب؛ إنها الطريقة الوحيدة للقاءه اليوم: فهو لن يعود إلى العيادة إلا في وقت متأخر من المساء . عندما رأيت الطبيب يدخل إلى الصالة ، اعتقدت أنه سيحدد لك الموعد بنفسه .

تفحصه الدكتور القصير عند مروره خفية . ثمة أطباء غريبو الأطوار في هذه المنطقة»

سيذهب فالاس -بما أن لديه متسع من الوقت- إلى منزل التاجر مارشا؛ لكن قرعه للجرس بقي من دون جواب . لا أهمية لذلك ، فقد كرر له لوران جوهر حديثه مع الرجل الذي كان يعتقد نفسه محكوماً بالموت . كان على الرغم من ذلك يفضل أن يحكم بنفسه على التوازن العقلي للشخص . قدّمه لوران على أنه مجنون يجب أن يوضع في المصح ، إذ تسوّغ الطريقة التي تصرف بها في مكتبه ، على الأقل جزئياً ، هذا الرأي . ولكن ، حول بعض النقاط ، لم يكن فالاس متأكداً كالمفوض من بطلان مخاوفه: إن وقوع جريمة جديدة لم يكن إلا فعلاً متوقع الحدوث في المساء نفسه .

سأل فالاس بعد نزوله السلم بواب العمارة ما إذا كان يعلم بموعد عودة مستأجره . غادر السيد مارشا للتو بالسيارة ، لعدة أيام ، مع عائلته كلها ، فهو لا شك علم بوفاة قريب: «المسكين كان متأثراً جداً لذلك»

يبقى التاجر في جنوب المدينة ، ليس بعيداً عن حي مصدري الخشب .
توجه فالاس من هناك إلى المحطة ، ماراً من جديد بشارع برلين وساحة دار
القضاء ، ثم سار بعدها على طول القناة الممتدة ، وبمحاذاتها من الجانب الآخر
حيث سلسلة من البيوت القديمة التي تآكلت واجهاتها الضيقة من تأثير الماء ، منذ
بضعة قرون ، فمالت إلى الأمام نحو الماء على نحو يدعو إلى القلق .

رأى في الحال ، عند دخوله إلى بهو المحطة ، المخزن الصغير الملمّع ، حيث
يقف صبي بصدارة يبيّع الشطائر وزجاجات المياه الغازية . كانت هناك
على بعد خمسة أمتار إلى اليمين ، حجرة هاتفية - واحدة . بدأ بزرع المكان ذهاباً
 وإياباً ، وهو يرمي بنظرات متكررة إطار ساعة الحائط . كان الطبيب متأخراً .

كانت صالة الخطوات التائهة مكتظة بالناس المسرعين في جميع الاتجاهات .
لم يتعد فالاس قيد أنملة عن المكان الذي حددته الممرضة ، لأن الجموع الغفيرة
كثيفة لدرجة كان يخشى فيها ألا يرى الطبيب عند وصوله .

بدأ فالاس يقلق ؛ فقد مضت الساعة المحددة منذ وقت طويل ، وبدأ الانطباع
السيئ الذي تركته زيارته للعيادة يتأكد دقيقة بعد أخرى . لا شك أن سوء فهم
قد حدث . لم تقم الممرضة بالمهمة جيداً ، بمعنى أو بآخر ، ربما بالمعنيين .

كان ينبغي عليه أن يتصل بالموقع شارع كورينته للحصول على بعض
الاستفسارات . وبما أنه لم يكن هناك دليل هاتف في حجرة الهاتف الزجاجية
الموجودة هناك ، طلب فالاس من البائع زجاجة عصير ليمون ، مما يتيح له الفرصة
في البحث عن دليل الهاتف عنده . مع توزيعه للزجاجات ، وحساب نقوده ،
أشار له الرجل إلى مكان في البهو ، لم يتمكن فالاس ، رغم جهوده ، من أن
يكشف فيه بائع صحف . بدا له أن الصبي لم يفهم ما كان يبحث عنه . دخل
مع ذلك إلى الحانوت الصغير ، حيث لم يكن بالتأكيد ثمة أثر لدليل هاتف .

كانت هناك بضع صحف معروضة وسط نشرات مصورة، وروايات مغامرات بغلاف ملون. طلب فالاس من البائع أن يلقي نظرة على أنواع المماحي.

فتح جيوار الباب في هذه اللحظة تماماً. كان قد انتظر في الطرف الآخر من البهو، في المكان الذي يوجد فيه المشرب الحقيقي وصف كامل من الهواتف.

لم يتمكن الطبيب من إطلاعه على شيء جديد. لم يرغب فالاس بالحديث عن مؤامرة، بدافع الحذر، ولم يقم جيوار سوى بتكرار ما قاله سابقاً في الصباح للمفوض العام.

بالطبع، استقل فالاس من ساحة المحطة القطار الذي استقله الليلة الفائتة، ذلك الذي قاده إلى طرف شارع آربانتور. نزل في الموقف ذاته، وهو الآن يتبع الطريق الدائري الذي يقوده إلى الجناح الصغير من الآخر، وإلى الغرفة البائسة في مقهى «الحلفاء». يهبط الليل كلياً، من جديد. لم يتقدم فالاس في تحرياته عما كان فيه عندما وصل ليلة أمس من الطريق نفسها.

يدخل إلى العمارة الحجرية الكبيرة التي تنتصب في زاوية الشارع. بعد ممانعة البواب من الخضوع للاستجواب، سيكون مضطراً لكشف بطاقته الزهرية، وربما للإقرار، بالمناسبة، بالخدعة الصغيرة التي قام بها في الصباح حول الصداقة التي ادعاها بين والدته والسيدة باكس.

تبين له من استقبال الرجل الضخم المرح أنه تعرّف إليه. وعندما يكشف الغرض من زيارته، يتسم البواب ويقول له بكل بساطة:

— لقد فهمت جيداً، هذا الصباح، أنك من الشرطة.

يشرح الرجل بعد ذلك أن مفتشاً جاء من قبل وطرح عليه أسئلة، أجاب

عليها أنه لا يعرف شيئاً. يتحدث عندها فالاس عن المراهق الذي ذكر البواب أن له تصرفات غريبة. يرفع الآخر ذراعه نحو السماء، ويكرر: - «غريبة!»

بدا له بالفعل أن المفتش كان يولي هذا الشاب أهمية كان هو ذاته بعيداً... الخ. يستتج فالاس - كما كان يتوقع - أن المفوض لوران لم يكن مخطئاً عندما شك أن مرؤوسه يتمتع باندفاع غير مناسب. وهكذا، لم يقل البواب أنهما كانا يتشاجران في لقاءتهما، بل قال إنهما كانا أحياناً «يرفعان حدة الصوت». لم يقل كذلك إن الطالب كان يبدو ثملاً في أغلب الأحيان. نعم، رآه يشير بيده لرفيق، عند مروره، إلى الجناح الصغير، لكنه لم يقل أن حركته كانت مهددة؛ تحدث فقط عن «حركات كبيرة»، كما يفعل الشباب كلهم في هذه السن، متحمسين وعصبين. يضيف البواب أخيراً أن الأستاذ سبق له أن تلقى في الماضي - وإن كان ذلك نادراً، والحق يقال - زيارات من بعض طلاب الكلية.

صالة المقهى دافئة وحفوة على الرغم من الجو الثقيل: دخان، أنفاس بشر، وبخار نبيذ أبيض. المكان مكتظ بالناس، ثمة خمسة أو ستة زبائن يضحكون، ويتكلمون كلهم في آن معاً. عاد فالاس إلى هذا المكان كمن يعود إلى ملجأ؛ كان يود أن يكون أعطى موعداً لأحدهم هنا، كان سينتظر ساعات، منغمساً في المحادثات الفارغة، وهو يشرب مشروبات ساخنة على تلك الطاولة المنعزلة قليلاً...

- مرحباً، يقول السكير.

- نهارك سعيد

يقول السكير: - انتظرتك طويلاً.

يستدير فالاس. حتى هنا، لا توجد طاولة منعزلة يمكن للمرء أن يكون

فيها بسلام.

هو لا يرغب بالصعود إلى غرفته التي يتذكر أنها كثيفة ، ولا بد أنها باردة جداً . يقترب من البار ، حيث يقف ثلاثة رجال .

يصرخ السكير خلفه :

- إذاً ، لن تأتي للجلوس؟

يستدير الرجال الثلاثة في الوقت نفسه نحو فالاس ويتفحصونه بوقاحة . يرتدي الأول لباس ميكانيكي قدر ، والاثنان الآخرين سترة غليظة ، بياقة كبيرة من الصوف الأزرق القاتم اللون . يرى فالاس أن ملابسه البرجوازية تفضح مهنته في الشرطة . ربما بدأ فاييوس بارتداء ثياب بحار .

... يدخل فاييوس ، وهو يرتدي لباس بحارة أزرق ، ويسير محرّكاً ردفيه - ذكرى ترجحات خيالية .

- لم يكن الصيد عظيماً اليوم ، (يرمي بهذه الكلمات على الصحبة) .
وكان سمك الرنجة الذي في البحر أصبح كله في العلب . . .

يرمقه الأشخاص الثلاثة بتعجب وشك . زبونان آخران ، واقفان أمام المدفأة ، يقطعان محادثتهما - مع أنها شيقة - كي ينظرا إليه أيضاً . يمرر صاحب المقهى خرقة على سطح البار .

- إذاً ، ستأتي . (يكرر السكير وسط الصمت) ، سنطرح عليك الأحجية .

البجاران ، والميكانيكي ، والاثنان الآخران قرب المدفأة ، الكل ينغمس من جديد في انشغالاته .

يقول فالاس لصاحب المقهى :

- هلاً أعطيتني شرباً ساخناً ، من فضلك .

يذهب للجلوس على أول طاولة ، على نحو لا يرى فيه السكير .

يستنتج هذا الأخير : - دائماً ودود .

يقول أحدهم : أنا أستطيع أن أتبع خطأ منحرفاً عن القناة ، وأن أسير مع ذلك بخط مستقيم . ها ! يقدم صاحب المقهى من جديد مشروبات للرجال الثلاثة المستندين إلى البار . أما الاثنان الآخران فقد استأنفا نزاعهما ؛ إنه معنى كلمة «منحرف» الذي يفرق بينهما . يحاول كل منهما أن يكون مصيماً فيصرخ بقوة أكبر .

- هل تتركني أتكلم ؟

- لكنك لا تفعل غير ذلك ، تتكلم ! - ألا تفهم : أقول إنني أستطيع أن أسير على نحو مستقيم ، بإتباع اتجاه منحرف - منحرف بالنسبة إلى القناة .

يفكر الثاني ، ويلاحظ بدعة :

- ستسقط في القناة

- إذا ، أنت ترفض الإجابة ؟

- اسمع ، أنطوان ، يمكنك أن تقول ما تشاء ، لكنني لن أبدل رأيي : إذا انحرفت ، لن تذهب على نحو مستقيم ! حتى إذا كان ذلك بالنسبة إلى القناة ، أو إلى أي شيء آخر .

يفكر الرجل - ذو السترة الرمادية وقبعة الصيدلي - بالدليل الذي صفعه به ، من دون أن يلقي جواباً . يرفع خصمه كتفيه من التقزز .

- لم ألتق أبداً في حياتي بشخص بهذا الغباء .

يلتفت نحو البحارة ، لكن هؤلاء كانوا يتحدثون فيما بينهم بهتافات ذات لهجة إقليمية وبضحكات عالية . يقترب أنطوان من الطاولة حيث يحتسي فالاس مشروبه الساخن ؛ يتخذه شاهداً :

- أسمعتَ يا سيدي؟ هذا رجل يبدو أنه متعلم لا يوافق على أن خطأ يمكن أن يكون منحرفاً ومستقيماً في آن معاً .

- ها!- أتوافق أنت على ذلك؟

- لا ، لا ، (يسارع فالاس بالإجابة .)

- كيف لا؟ خط منحرف ، هو خط . . .

- نعم ، نعم ، بالطبع . قلتُ: لا أوافق أن لا نوافق .

- ها ، هكذا إذن .

لا يبدو أنطوان راضياً مطلقاً عن هذا الموقف الذي يجده دقيقاً جداً . يقول مع ذلك لرفيقه :

- أترى ، هيه ، أيها الأعشابي!- لا أرى شيئاً على الإطلاق . يجيب الأعشابي بهدوء .

- هذا الرجل من رأيي! بدأ أنطوان يغضب شيئاً فشيئاً .

يصرخ في فالاس : اشرح له ما معنى كلمة «منحرف» .

يردد فالاس مراوغةً . . .

- «منحرف» . . . لها معانٍ عدة .

يوافق الأعشابي: - هذا هو رأيي أيضاً .

يصيح أنطوان فاقداً صبره:

- أخيراً، إن خطأً مستقيماً، ومنحرفاً بالنسبة إلى آخر، هذا يعني بالطبع شيئاً! يُكره فالاس نفسه على صياغة جواب محدد، يقول:

- هذا يعني أنهما يشكلان زاوية، زاوية مختلفة عن الصفر، وعن التسعين درجة .

يهلل الأعشابي، خاتماً:

- هذا ما كنتُ أقوله . إذا كانت هناك زاوية فهو ليس مستقيماً تماماً .

يقول أنطوان: _ لم ألتقِ أبداً في حياتي بشخص غبي كهذا .

- اسمع إذاً، أنا أعرف أحجية أفضل بكثير . . . هل تسمح . . .

ينهض السكير عن الطاولة كي يشارك بالمحادثة . وبما أنه لا يتوازن واقفاً، يجلس في الحال إلى جانب فالاس . يتحدث ببطء، لئلا يتلعثم:

- قل لي ما هو الحيوان الذي هو قاتل أبيه في الصباح . . .

- لا ينقصنا سوى هذا المعتوه، (يصرخ أنطوان .)

أنت لا تعرف حتى ما هو الخط المنحرف، (يقول السكير بلهجة عذبة .)
الأحاجي، أنا من يطرحها . لدي واحدة مخصصة لصديقي القديم . . .

يتعد الخصمان نحو البار، بحثاً عن مؤيدين جدد .

يدير فالاس ظهره للسكير الذي يتابع مع ذلك بصوته المبتهج والمثابر :

- ما هو الحيوان الذي يكون قاتل أبيه في الصباح ، في علاقة محرمة
ظهراً ، وأعمى في المساء؟

أصبحت المناقشة عامة عند طاولة البار ، لكن الرجال الثلاثة يتحدثون
كلهم معاً ، ولم يفهم فالاس سوى أطراف جمل .

يلح السكير: - إذن ، لم تعرف؟ مع أنها ليست صعبة: قاتل أبيه صباحاً ،
أعمى ظهراً . . . لا . . . أعمى صباحاً ، في علاقة محرمة ظهراً ، قاتل أبيه
مساءً . هيه؟ ما هو الحيوان؟

لحسن الحظ ، يصل صاحب المقهى لرفع الكؤوس الفارغة .

يعلن له فالاس: - سأحتفظ بالغرفة هذه الليلة .

يضيف السكير: - ثم يدفع هذه الجولة من المشروبات .

ولكن لا أحد يلتقط هذا الاقتراح .

يستأنف السكير: - إذاً ، هل أنت أصم . هيه ، يا رفيق ! أصم ظهراً ،
وأعمى مساءً؟

يقول صاحب المقهى: - اتركه بسلام .

- ويعرج في الصباح ، (يكمل السكير باهتمام مفاجئ .)

- أقول لك اتركه بسلام .

- لكنني لا أفعل شيئاً سيئاً ، أ طرح أحجية فقط .

يقوم صاحب المقهى بمسحة على الطاولة .

- أنت تزعجنا بأحاجيك .

يفادر فالاس . لم يعد لديه عمل محدد يقوم به ، لكن ذلك الرجل صاحب الأحاجي يدفعه إلى مغادرة المقهى الصغير .

يفضل أن يمشي ، على الرغم من البرد والليل والتعب . يود أن يجمع بعض العناصر التي التقطها من هنا وهناك أثناء النهار . يرفع بصره عند مروره أمام الحاجز المشبك للحديقة يرفع بصره نحو الجناح الذي أصبح الآن مقفراً . ، تبدو نافذة السيدة باكس مضاءة من الجانب الآخر من الشارع .

- هيه ! ألا تنتظرني ؟ هيه ! يا صديقي ! إنه السكير وقد تبعه .

- هيه ، أنت هناك ! هيه ! يسرع فالاس الخطأ .

- انتظر قليلاً ! هيه ! يضع الصوت الصاخب تدريجياً .

- هيه هناك ، لست مستعجلاً هكذا !... هيه !... لا تسرع

هكذا !... هيه !... هيه !... هيه !...

- ٢ -

ثمان أصابع غليظة وقصيرة تكرر وتعود بدقة ، بعضها أمام بعضها الآخر ، الجانب الوحشي من الأربع اليمنى أمام الجانب الإنسي من الأربع اليسرى . يداعب الإبهام الأيسر الإصبع الأيمن ، برفق في البداية ، ثم بالضغط شيئاً فشيئاً . تبدل الأصابع الأخرى وضعيتها ، فيأتي الجانب الخارجي للأصابع الأربعة اليسرى ليحل الجانب الداخلي من الأصابع اليمنى بقوة . يتداخل بعضها في الأخرى ، وتتشابك ، وتلتوي ، تتسارع الحركة ، وتتعدد ، ثم تفقد تدريجياً

انتظامها ، وتصبح بعدها مختلطة لدرجة لا نعود نميز شيئاً في قرقرة السلاميات وراحتي اليدين .

يقول لوران: ادخل

كان يضع يديه الاثنتين منبسطتين على المكتب ، والأصابع متباعدة . إنه الحاجب يحمل رسالة .

- سيدي المفوض ، أحدهم مرّر هذه تحت باب حجرة البواب . كُتِبَ عليها «عاجل جداً» و «شخصي» .

يتناول لوران المغلف الأصفر من الرجل . الجملة مكتوبة بقلم الرصاص ، وتكاد لا تُقرأ: «شخصي» ، السيد المفوض العام . عاجل جداً»

- أَلَمْ يَرِ البواب حامل هذه الرسالة؟

- لم يستطع يا سيدي المفوض ، وجدها تحت الباب . ربما كانت هناك منذ حوالي ربع ساعة أو أكثر .

- حسناً ، أشكرك .

بعد خروج الحاجب ، يتلمس لوران المغلف؛ يبدو أنه يحتوي على بطاقة من الورق المقوى . يقربه من المصباح الكهربائي ليتفحصه وهو شفاف . لا يرى شيئاً غير عادي . يقرر أخيراً فتحه بقاطع ورق .

إنها بطاقة بريدية مصوّرة تمثل منزلاً صغيراً يقلد أسلوب لويس الثالث عشر ، في زاوية بين شارع طويل وكثيب في ضاحية ، وآخر واسع جداً ، من المحتمل أن يكون على ضفة قناة . كُتبت جملة خلف البطاقة ، بالرصاص

كالعادة، الجملة الوحيدة: «الموعد هذا المساء في السابعة والنصف». إنه خط امرأة. لا يوجد توقيع.

تلقى الشرطة كل يوم رسائل كثيرة من هذا النوع - رسائل مجهولة، شتائم، تهديدات، إخباريات - وهي في أغلب الأحيان مشوشة، رسالة من أميين أو مجانين بوجه العموم. تتميز البطاقة البريدية بإيجازها ودقتها. مكان الموعد غير محدد، وربما تمثل الصورة زاوية الشارعين؛ يمكننا على أية حال أن نفترض ذلك. لو كان لوران يعرف المكان لأرسل إليه عنصراً أو عنصريين من الشرطة، في الموعد المذكور، لكن هذا الأمر لا يستحق القيام بتحريات كبرى حتى نتمكن - في أحسن الأحوال - من القبض على مركب صيد يقوم بتهريب خمسة كيلوغرامات من تبغ النشوق.

ينبغي عليه أيضاً أن يتأكد من أن هذه الجنحة البسيطة يعاقب عليها بالفعل المفتش الذي يكشفها. يعرف المفوض العام جيداً أن العديد من هذه التجارات الصغيرة السرية تتمتع بمساعدة بعض عناصر الشرطة الذين يكتفون بالحصول على حصتهم المتواضعة. إذ يُطلب منهم التشدد الكامل فقط في حالات خرق القانون الخطرة. في الطرف الآخر من سلم الجرائم، يمكننا أن نتساءل عما سيكون تصرفهم... فعلى سبيل المثال؛ إذا استدعت منظمة سياسية من النوع الذي وصفه فالاس... لحسن الحظ، لسنا بصدد هذه المسألة.

يرفع المفوض سماعة الهاتف ويطلب العاصمة. يريد أن يطمئن قلبه. وحدها السلطات المركزية يمكن أن تعطيه المعلومات - إذا كانت عناصرها أخذت وقتها في تشريح الجثة.

يحصل على المكالمات بسرعة، لكنه يجول مرات عدة من مكتب إلى مكتب من دون أن يتمكن من التحدث إلى الشخص الكفو. يبلغه رئيس المكتب الذي وقّع الرسالة التي سمحت بنقل الجثة بأن عليه أن يتوجه إلى مكتب الطب

الشرعي؛ وهنا، يبدو أنهم لا يعرفون شيئاً. يصل أخيراً بعد تحويله على التوالي من مكتب إلى آخر، يصل إلى مكتب رئيس البلدية، وربما شخص آخر - لا يعرف بالتحديد من هو - لكنه يوافق على الإصغاء إلى سؤاله: «من أية مسافة أطلقت الرصاصة التي قتلت دانييل دوبون؟».

«انتظر لحظة، من فضلك، سأرد عليك»

لم يصل الجواب، إلا بعد انقطاع طويل نسبياً، تخللته ضججات مختلفة.

«رصاصة بحجم ٦٥، ٧، أطلقت مواجهة، على بعد أربعة أمتار تقريباً».

جواب لا يثبت شيئاً على الإطلاق، سوى أن الدرس حُفظ جيداً.

يتلقى لوران بعد ذلك زيارة جدية من فالاس. يبدو أن التحري الخاص لا يملك شيئاً يقوله له. عاد إلى هنا، كأنه لا يدري إلى أين يذهب. يروي له حادثة هرب التاجر مارشا، لقاءه مع جيوار، وزيارة زوجة دوبون القديمة. ويرى ككل مرة تعامل فيها المفوض مع الدكتور أن تصرفاته تثير الشبهات. أما عن الزوجة المطلقة، فمن البدهي بالنسبة إلى الجميع أنها لا تعرف شيئاً. يصف فالاس الواجهة الزجاجية الغريبة التي جهزتها البائعة، ويُخرج من جيبه البطاقة البريدية التي حملها الحاجب للتو، أمام دهشة لوران.

سيأخذ المفوض البطاقة التي أرسلها المجهول من طاولة مكتبه. إنها البطاقة ذاتها. يقرأ على فالاس الجملة المكتوبة على الخلف.

-٣-

يحدث المشهد في مدينة من طراز مدينة بومبي الإيطالية، وبالتحديد في ساحة مستطيلة يشغل صدرها معبد (أو مسرح، أو شيء من هذا القبيل)، وفي

الجهات الأخرى أوابد متعددة بأبعاد أصغر ، تفصل بينها ممرات واسعة مبلّطة .
لا يدري فالاس من أين جاءت هذه الصورة . يتحدث ، أحياناً وسط الساحة ،
وأحياناً فوق درجات السلم – درجات طويلة جداً – إلى أشخاص لم يعد يميز
بعضهم عن البعض الآخر ، لكنهم كانوا في الأصل واضحين ومميزين . لديه
دور محدد هو بالذات ، في الصف الأول بوجه الاحتمال ، ربما دور رسمي .
تصبح الذكرى فجأة حادة جداً ، في جزء من الثانية؛ يأخذ المشهد كثافة غريبة .
ولكن أي مشهد؟ كان لديه الوقت فقط لكي يسمع نفسه تقول :

– هل حدث ذلك منذ زمن بعيد؟

واختفى كل شيء على الفور؛ البشر، الدرجات، المعبد، الأرضية
المستطيلة وأوابدها . لم يرَ أبداً شيئاً كهذا .

إنه وجه محبب لامرأة شابة، شديدة السمرة، ينبثق مكان الصورة
السابقة، إنها صاحبة المكتبة في شارع فيكتور هوجو، وصدى ضحكاتها الرنانة .
ومع ذلك فالوجه شديد الجدية .

كان فالاس ووالدته قد وصلا أخيراً إلى القناة في مكان مسدود؛ تعكس
البيوت المنخفضة في الشمس واجهاتها القديمة في المياه الخضراء .

لم يكونا يبحثان عن قرية: بل عن قريب ، قريب لم يعرفه ، تقريباً . ولم
يرَه أيضاً ، في ذلك اليوم . إنه والده . كيف استطاع أن ينساه؟!

يتسكع فالاس داخل المدينة ، من دون هدف . الليل رطب وبارد؛ فقد
بقيت السماء طوال النهار شاحبة ، منخفضة وملبدة . إنها سماء ثلج ، لكن الثلج
لم يهطل ، إنه الآن ضباب شهر تشرين الثاني/نوفمبر الذي بدأ يستقر . لقد حل
الشتاء بسرعة هذا العام .

ترسم الأضواء في زوايا الشوارع دوائر من الضوء الأحمر ، تكاد لا تكفي لمنع المار من أن يضل طريقه . يتوجب توخي الحذر عند العبور حتى لا تصطدم القدم عند حافة الأرصفة .

يتعجب الغريب - في الأحياء التي تكثر فيها المخازن - من الإضاءة الشحيحة للواجهات . فمن المؤكد أنهم لا يحتاجون لاجتذاب الزبائن من أجل بيع الرز أو الصابون الأسود؛ فهناك القليل من بائعي الكماليات في هذه المنطقة .

يدخل فالاس إلى مخزن مكتظ ومغبرّ ، يبدو أنه مخصص لتخزين البضائع أكثر منه لبيعها بالمفرق . ثمة رجل بصدارة في آخر المخزن منهلك بإغلاق صندوق . يتوقف عن الطرق ليفهم أي نوع من المماحي يريد فالاس . يحرك رأسه عدة مرات ، خلال الشرح ، وكأنه يعرف هو نفسه جيداً ما المطلوب . وبعدها ، يتجه من دون أن يجيب بشيء نحو الطرف الآخر من المخزن؛ هو مضطر لتحريك كمية كبيرة من الأشياء في طريقه ، حتى يصل إلى هدفه . يفتح أدراج عدة لخزانة الواحد تلو الآخر ، ويغلقها ، يفكر لدقيقة ، يصعد على سلم مزدوج ، يعاود بحثه ، دون مزيد من النجاح .

يعود إلى زبونه : لم يعد لديه النوع . كان لديه منه ، منذ وقت قريب ، كمية بقيت عنده في وقت ما قبل الحرب؛ لا بد أنهم باعوا القطعة الأخيرة - إلا إذا كان أحدهم وضعها في مكان آخر : « ثمة أشياء كثيرة هنا إلى حد لم نعد نجد في المخزن شيئاً »

يعود فالاس ليخوض في الليل .

لم لا يعود إلى ذلك الجناح المعزول .

وكما أشار المفوض العام ، ليست تصرفات الدكتور جيوار واضحة على

الإطلاق ، مع أنه من الصعب معرفة ما يمكن أن يكون دوره السري . عندما عبّر الدكتور القصير صالة المكتبة ، رمق فالاس متصنعاً أنه لا يراه عبر نظارات حسر البصر ، على الرغم من أنه تقصّد المرور من هناك كي ينظر إليه . تعجب فالاس وفي عدة مناسبات ، خلال المحادثة التي حصلت بينهما بعد نصف ساعة ، تعجب من الطريقة الغريبة التي يعبر بها جيوار: كان يبدو كأنه يفكر في شيء آخر ، وأحياناً كأنه يتحدث عن شيء آخر . «ضميره يعذبه» ، يؤكد لوران .

كذلك ، قد لا يكون التاجر مارشا أبلة كما يبدو . وبناء على ذلك ؛ كان من دواعي الحذر بالنسبة إليه أن يبقى بعيداً . يبدو غريباً أن نستنتج أن الدكتور لم يلمّح البتة في روايته على وجود مارشا في شارع كورينته عند وصول الجريح ، فقد ادعى على العكس مراراً أنه لم يكن بحاجة لمساعدة أحد ، مع أنه لا يمكن لمارشا أن يخترع كل هذه التفاصيل الذي نقلها عن نهاية البروفسور ، بحسب اعتراف المفوض . لو كان جيوار يعلم بطريقة أو بأخرى أن مارشا عليه أن يُقتل هو أيضاً هذه الليلة ، لكان بالفعل من صالحه أن يخفي حضور التاجر إلى عيادته الليلة الفائتة مساءً . لكنه يجهل أن هذا الأخير تحدث عن ذلك للشرطة .

فالرسالة إذاً ، التي كُشفت في «شباك البريد» متعلقة فعلاً بهذه القضية ، وقد كان فالاس مقتنعاً بذلك منذ البداية . إنها الدعوة الموجهة للقاتل للجريمة الثانية ، جريمة هذا اليوم ، والتي يجب أن تحدث (بحسب هذه الفرضية) في هذه المدينة نفسها . ومن الممكن أن تحتوي نتائج المفتش التي قرأ فالاس تقريراً عنها في مكتب لوران شيئاً دقيقاً هو: وجود اثنين (متواطئين) في الاعتداء على دانييل - المرسل إليه (أندريه ف . س .) والشخصية المحددة بالحرف الأول (ج .) في نص الرسالة . سيقوم الأول هذا المساء بالعملية وحده . وكان مارشا أخيراً على صواب عندما خشي من كمين يبدأ قبل الساعة المحتومة بوقت طويل . هذا ما تؤكده الكلمات: «بعد الظهر كله» الموجودة في الرسالة أيضاً .

تبقى البطاقة البريدية التي مرّرت على نحو غامض تحت باب البواب في المفوضية العامة. من المثير للشك أن المتآمرين هم أنفسهم أُصِرّوا على إبلاغ الشرطة بمكان فعلتهم وتوقيتها. وهذا جزء من برنامجهم أن يوقعوا على جرائمهم ويمنحوها التوهج الممكن. (سبق أن تلقت وزارة الداخلية والرئاسة بعض الرسائل القادمة من زعماء المنظمة)، لكن البطاقة البريدية تشكل كشافاً قد يفشل مخططهم - اللهم إلا إذا كانوا أصبحوا أقوياء لدرجة لم يعودوا فيها يخشون أحد. قد يقودنا ذلك إلى افتراض ازدواجية المفوض - وهذا صعب، من ناحية أخرى.

قد يكون من الملائم أن نقرّ بالشيء الذي أكده لوران، من جهته، تماماً، أي أن الاتصال قادم من مارشا نفسه. فقبل أن يغادر التاجر المدينة، حاول هكذا القيام بمحاولة أخيرة لإقناع الشرطة بمراقبة منزل القتل.

ثمة دلائل؛ التصرف المشبوه للدكتور القصير، مخاوف التاجر، والتلميحات الكثيرة التي تحتويها الرسالة. . . تلك دلائل توصلنا إلى استنتاجات تمثل طابعاً يفتقر إلى التأكيد. وفالاس يعلم ذلك. وهو يدرك بخاصة التأثير الذي تمارسه عليه البطاقة التي وُضعت في المفوضية، على الرغم من أن هذه البطاقة لا يمكن منطقياً أن تدخل في الحجج. لكنه لا يملك في النهاية سوى أن يذهب إلى الموعد. وبما أنه لا يوجد في الوقت الحالي مسار آخر، لن يضيق شيئاً إذا اتبع هذا المسار. لديه في جيبه، أحد مفاتيح الجناح؛ مفتاح الباب الزجاجي الصغير الذي أعطته إياه السيدة سميت. هرب مارشا تاركاً له الطريق مفتوحة. سيقوم هو نفسه بدور التاجر، ليرى ما إذا كان أحد سيأتي ليقته بفعل معجزة. يهنئ نفسه لأنه حمل معه مسدسه.

يقول لوران بسخرية: صحيح، لا يعلم المرء ما قد يحصل.

وصل فالاس أمام الحاجز المشبك للحديقة . إنها السابعة مساء .

كل شيء مظلم في المكان . الشارع مقفر . يفتح فالاس الباب بهدوء .

يدفع الباب بعد دخوله بحذر إلى أقصى حد ، من دون أن يغلقه ، على نحو يترك فيه أثراً لمروره .

من غير المجدي لفت انتباه متنزه محتمل متأخر على الشارع العريض بإحداثه ضجة؛ ويسير فالاس على العشب لتجنب صرير الحصى ، فهو مريح أكثر من رصيف الآجر . يلف حول المنزل من جهة اليمين . لا نميز في الليل سوى الممر الأكثر إضاءة من الخططين المنبسطين المحاذيين ، والرأس المقلم لأشجار المضاض .

ثمة مصراع من الخشب يحمي الآن زجاج الباب الصغير . يدور في القفل المفتاح بسهولة . يضبط فالاس نفسه في مواقف سارق: فبدلاً من أن يفتح الباب على مصراعيه ، يتسلل إلى الداخل من باب موارد . يسحب المفتاح ويعيد إغلاق الباب بهدوء .

المنزل الكبير صامت

نجد المطبخ إلى اليمين ، وفي الداخل إلى اليسار غرفة الطعام . يعرف فالاس الطريق ، وهو لا يحتاج إلى ضوء يقوده . ومع ذلك فهو يشعل مصباح جيب ويتقدم ، تسبقه حزمة الضوء الضيقة . إن أرضية الممر سوداء وبيضاء ، مؤلفة من مربعات ومعينات . هناك شريط من الموكيت الرمادي ، يحمل خطين بلون أرجواني على الطرفين ، يغطي السلم .

في الدائرة المضيئة للمصباح الكهربائي تظهر لوحة صغيرة ذات ألوان قائمة ،

إنها تبدو قديمة ، تمثل ليلة كوايس ؛ يرقد رجلان أسفل برج مهدم ، تضيئه العاصفة بلمعان مشؤوم؛ الأول يرتدي ملابس ملكية ، ويلمع تاجه الذهبي في العشب قربهِ ، والآخر قروي بسيط . لقد ضربتهما الصاعقة للتو فذاقا الموت نفسه .

يتوقف فالاس وهو على وشك فتح الباب: إذا كان القاتل قام حقاً بحراسته خلف هذا الباب ، سيكون من الغباء من جانب تحرٍ خاص أن يقع هكذا في الفخ . وبما أنه جاء في الموعد ، عليه أن يدخل اللعبة من دون غش . يُدخل يده في جيبه ليتناول سلاحه ، فيتذكر المسدس الثاني الذي يحمله منذ الصباح - مسدس دانييل دوبون ، المعطل الذي لا يمكن أن ينقذه إذا اضطر للدفاع عن حياته . لا مجال للخطأ هنا .

وحقيقة الأمر أنه لا يمكن أن يقع في الخطأ ، فمسدس دوبون في الجيب الأيسر لمعطفه: لقد وضعه هناك في البداية ، ثم أعاده عندما أحضر من المخبر . وبما أنه لم يستخدم أبداً السلاحين في الوقت نفسه ، لا يمكنه أن يخطئ بهما .

ويتفحصهما للمزيد من التأكد ، على الفور في ضوء المصباح الصغير . ويتعرف إلى مسدسه من دون أدنى شك . حتى إنه لا يشعر بأية خشية من تجريب مسدس الميت ، فهو المعطل تماماً . يقوم بحركة لإعادته إلى جيبه ، لكنه يرى أنه من غير المجدي الاستمرار في إرباك نفسه بحمل هذا الغرض الثقيل . يدخل إذاً إلى غرفة النوم ليضعه في مكانه ، في درج طاولة حجرة النوم ، حيث رأى العجوز تأخذه هذا الصباح .

يضغط فالاس في غرفة المكتب على زر القاطع الموجود عند المدخل على كشف الباب . يضاء مصباح كهربائي في السقف . أغلقت الخادمة العجوز قبل مغادرة المنزل ، التوافذ كلها؛ لن نرى إذاً الضوء من الخارج .

يفتش فالاس الغرفة الصغيرة مصوباً مسدسه بيده اليمنى . لا أحد يختبئ فيها بالتأكيد . كل شيء في مكانه . لا شك أن السيدة سميت رتبت أكداً الكتب التي ذكر المفتش أنها كانت مبعثرة . لقد اختفت الورقة البيضاء التي لم يخطُ فيها الأستاذ سوى أربع كلمات ، فهي الآن إما على طاولة المكتب أو في درج ما . لقد وضع المكعب الحجري المزجج ، ذا الأضلاع الحادة ، والزوايا القاتلة ، بحكمة بين المحبرة ودفتر الملاحظات . الكرسي وحده مُنحى قليلاً عن طاولة المكتب ، وكأن أحداً سيجلس عليه .

يقف فالاس خلف ظهر الكرسي وينظر نحو الباب ، فهي وضعية جيدة لانتظار وصول القاتل المريب . من الأفضل إطفاء النور ، عندها سيكون هناك متسع من الوقت لدى التحري الخاص كي يرى العدو قبل أن يُكشَف هو .

يميز فالس من مرقبه بدقة موضع قطع الأثاث المختلفة . يعود إلى الباب ، ويضغط على القاطع ، فيعود الظلام إلى المكان نفسه . يتأكد من وضعيته بوضع يده الطليقة على ظهر الكرسي أمامه .

-٤-

إذا كنا لا نجد أثراً للقاتل ، فذلك لأن دانييل دوبون لم يُقتل؛ وهكذا فمن المستحيل إعادة تأليف انتحاره على نحو مترابط . . . يتنصل لوران بسرعة من المسؤولية . . .

وإذا كان دوبون لم يمت؟

يفهم المفوض العام فجأة غرابة هذا «الجرح» ، واستحالة السماح للشرطة برؤية «الجثة» ، والمظهر المرتبك للدكتور جيوار . دوبون لم يمت؛ كان يكفي أن يفكر المرء بذلك .

إن أسباب هذه القصة كلها ليست بعد واضحة تماماً ، لكن نقطة البداية هنا: دانييل دويون لم يمت .

يرفع لوران سماعة الهاتف ويضرب الرقم: ٢٠٢-٠٣

- ألو ، مقهى الحلفاء؟

- نعم ، هنا مقهى الحلفاء ، يجيب صوت أجش ، وكأنه من الكهف .

- أود التحدث إلى السيد فالاس .

- «السيد فالاس ليس هنا» ، ينطق الصوت بقرف .

- لا تعلم أين هو؟

- «كيف تريدني أن أعلم؟» ، يقول الصوت ، «لست مرضعته!»- هنا

المفوضية العامة للشرطة . لديك بالفعل زبون باسم فالاس ، أليس كذلك؟

يقول الصوت: - «نعم ، أعلنت عن ذلك هذا الصباح» .

- ليس المقصود هذا الأمر . أسألك ما إذا كان هذا السيد في منشأتك .

ربما صعد إلى غرفته؟

- «سأرسل أحدهم للتأكد» ، يجيب الصوت على مضض .

وبعض دقيقة يضيف ، بشيء من الرضا: «لأحد!» .

- حسناً ، أريد التحدث إلى صاحب المنشأة .

- «صاحبها هو أنا» ، يقول الصوت .

- ها ، إنه أنت ! هل أنت من روى لأحد المفتشين تلك الحماسة حول الابن المفترض للبروفسور دوبون؟

- «لم أرو شيئاً على الإطلاق» ، يعترض الصوت . «قلت إن بعض الشباب كانوا يأتون إلى هنا ، وكان هناك من مختلف الأعمار ، ومنهم أصغر بكثير من أن يكونوا أبناء لدوبون هذا . . .»

- هل قلت إنه كان هناك ابن؟

- «أنا لا أعرف شيئاً ، إذا كان هناك ولد أم لا ! هذا السيد لم يكن زبوناً عندي ، ولو كان زبوناً أيضاً ، لست من سيمنعه من أن ينجب أطفالاً من عاهرات هذا الحي - مع احترامي لك ، يا سيدي» ، يلفظ الصوت فجأة ، باذلاً بعض الجهد في محاولة للتصحيح : «سألني المفتش ما إذا كان هناك شبان اعتادوا المجيء عندي ، فقلت نعم . ما فوق سن السادسة عشرة ، مسموح في القانون . ثم لمح إلى أنه ربما كان لدوبون ولد ، ولإرضائه قلت نعم ، وأن هذا الولد قد يكون جاء ليشرب شيئاً هنا في يوم من الأيام . . .»

- حسن ، سنستدعيك . لكن ، انتبه لما تقول في المرات القادمة ، وحاول أن تكون أكثر تهدياً .

ألم يُعلم فالاس عن الساعة التي سيعود فيها؟

صمت . أغلق الآخر السماع . تشكل ابتسامة مهددة مباشرة على وجه المفوض . . . عندها يُسمع الصوت :

«قال فقط إنه سينام هنا الليلة»

- شكراً ، سأعاود الاتصال .

يعيد لوران السماعه . يفرك يديه . بوده أن يعلن على الفور اكتشافه
للتحري الخاص . يتهج مسبقاً من تعجبه المشكك عندما سيسمع على الطرف
الآخر من الهاتف:

«دوبون لم يمت . دوبون يختبئ عند الدكتور جيوار»

-٥-

يقول جيوار: السيارة تنتظر

ينهض دوبون وينطلق على الفور . هو يرتدي ملابس السفر . لم يتمكن
سوى من تمرير واحد من كمي معطفه الكبير الذي زرّره الدكتور بقدر ما استطاع
فوق ذراعه الجريحة ، المثنية والمربوطة بشريط من الشاش . إنه يرتدي قبعة من
اللباد بإطار عريض يخفي الجبين تماماً . حتى إنه وافق على وضع نظارة سوداء
كي لا يتعرف عليه أحد . لم نجد في العيادة سوى نظارة طبية ، إحدى عدستها
غامقة جداً ، والأخرى فاتحة اللون ، مما يخلع على البروفسور مظهراً كوميدياً
لخائن في ميلودراما .

وبما أن مارشا يرفض في اللحظة الأخيرة أن يقدم له الخدمة الموعودة ،
يتوجب على دوبون أن يذهب بنفسه إلى الجناح الصغير ليأخذ الأوراق .

رتب جيوار الأمر على نحو تكون فيه ممرات العيادة فارغة عند مرور
صديقه . يصل هذا الأخير من دون ضجة إلى سيارة الإسعاف السوداء الضخمة
التي كانت متوقفة أمام الباب . يجلس على المقعد إلى جانب السائق ، سيكون
ذلك أسهل للنزول والصعود من دون إضاعة الوقت .

ارتدى السائق لباس المستشفيات الأسود ، والقبعة المنبسطة بأطراف

مشمّعة. لا شك أنه في حقيقة الأمر أحد المرافقين الخاصين الذين يدفع لهم روا-دوزيه، على نحو رسمي تقريباً. لاسيما أن لهذا الرجل جثة ضخمة، وحركات جافة، ووجه قاسٍ ومقطب لقاتل في سينما. وهو هكذا لم يفتح فمه، إذ أعطى للبروفسور رسالة الوزير التي تثبت أنه المنتظر، وما إن صَفَقَ الدكتور باب السيارة حتى انطلق.

يقول دوبون:

- يجب أن نمرّ أولاً بيّتي، سأقودك.

«اتجه يمينا... يمينا أيضاً... ثم يساراً... در حول المبنى... انعطف هنا... الشارع الثاني يمينا... بخط مستقيم الآن...».

خلال بضع دقائق، يصلون إلى الشارع الدائري.

يوقف دوبون السيارة عند زاوية شارع «آربانتور». يقول للسائق: لا تبقى متوقفاً بالسيارة هنا. أفضل ألا تلاحظ زيارتي. استمر في السير، أو اذهب لتوقف السيارة على بضع مئات من الأمتار. عُد بعد نصف ساعة تماماً.

يقول الرجل: - حسناً، يا سيدي. هل تريد أن أصف السيارة، وأرافلك؟

- لا داعي لذلك، شكراً لك.

ينزل دوبون ويتجه بخطا سريعة نحو الحاجز المشبّك.

يسمع سيارة الإسعاف تبتعد. ليس الرجل «مرافقاً» خاصاً، وإلا لكان أصر على مرافقته. لقد خدعت هيئته البروفسور، وهو الآن يسخر من رومانسيته. إن وجود هؤلاء المرافقين المعروفين في نهاية الأمر ليس أمراً مؤكداً.

لم تكن البوابة مغلقة . فالفقيل معطل منذ مدة طويلة ، ولم يعد بالإمكان استخدام المفتاح . لكن ذلك لا يمنع من إغلاق قبضة الباب . أصبحت أنا العجوز مهملة ، إلا إذا كان أحد الأطفال لها بفتح الباب بعد رحيلها- طفل أو متسكع . يصعد دوبون الدرجات الأربع الأولى للمدخل ، كي يتأكد من أن باب المنزل مغلق بالفعل ، على كل حال . يدير القبضة النحاسية الكبيرة ، ويدفع بقوة مستعينا بكتفه ، لأنه يعلم أن المفاصل قاسية جداً ، وبما أنه يريد التأكد من النتيجة ، ولا يثق بالحركات غير الاعتيادية التي فرضتها الذراع الواحدة السليمة ، يعاود الكرة مرتين أو ثلاث مرات ، من دون أن يجروء على إحداث ضجة . لكن الباب الضخم محكم الإغلاق بالفعل .

كان قد عهد إلى مارشا بمفاتيح هذا الباب ، والتاجر رحل من دون أن يعيدها . لم يعد دوبون يملك سوى مفتاح الباب الصغير المزجج؛ عليه إذاً أن يلف حول المنزل من الخلف . تحت خطواته تصر البلاطات قليلاً في الصمت الليلي . كان مخطئاً في اعتماده على هذا الجبان مارشا .

لقد فقد أعصابه مدة بعد الظهر كلها وهو ينتظره ، ثم اتصل به بالهاتف في المنزل لكنه لم يجد أحد ، وآخر المطاف ، في الساعة السابعة إلا ربعاً ، تلقى مكالمة لا يدري من أين: كان مارشا يعتذر ، فقد اضطر لمغادرة المدينة لأمر عاجل . وهذا ليس صحيحاً ، بالطبع؛ إنه الخوف الذي جعله يهرب .

عالج دوبون قبضة الباب الصغير آلياً ، إنه يُفتح من دون مقاومة ، إذ لم يكن مقفولاً بالمفتاح .

المنزل مظلم وصامت .

يخلع البروفسور نظارته التي تضايقه . يقف عند مدخل الممر ويحاول فهم

الوضع . . . هل جاء مارشا إلى هنا مع ذلك؟ لا ، بما أنه يملك مفاتيح الباب الأمامي . . . والعجوز آنا، إذا لم تكن رحلت ، فهل هي في المطبخ في هذه الساعة . . . هذا ليس مؤكداً . . . لو كانت هناك لتركت النور على أية حال في المرأو في السلم . . .

يفتح دوبون باب المطبخ . لا أحد . يدير زر المصباح الكهربائي . كل شيء مرتب كما في منزل لم يعد يسكنه أحد . النوافذ مغلقة في كل مكان . يضئ دوبون النور في الممر . يفتح في طريقه أبواب الصالون وغرفة الطعام ، لا أحد ، طبعاً . يبدأ بصعود السلم . قد تكون آنا نسيت أن تغلق الباب الصغير وهي مغادرة ، فقد بدأت تفقد صوابها منذ أشهر عدة .

في الطابق الأول ، يدخل إلى غرفة الخادمة . نرى بوضوح أن الغرفة رُتبت على نحو يدل على غياب طويل .

يجلس دوبون أنفاسه عندما يصل إلى غرفة المكتب . مساء أمس كان القاتل ينتظره هنا .

نعم ، ولكن مساء أمس كان الباب الصغير مفتوحاً: لم يكن الرجل بحاجة إلى مفتاح كي يدخل ، ولا شك أنه كسر القفل هذا المساء ، ولم يلاحظ دوبون شيئاً من ذلك . وإذا وجد الرجل هذه المرة أيضاً الباب مفتوحاً ، فذلك ، على أية حال ، لأن العجوز آنا لم تغلقه . . . من غير الممكن أن يطمئن لأدلة من هذا النوع ، لأن متخصصاً يحمل حزمة من المفاتيح المزيفة يمكنه أن يفتح الأقفال العادية كلها بسهولة . أحدهم تسلل إلى الجناح وانتظر في غرفة المكتب ، في المكان نفسه الذي كان فيه الليلة الفائتة ، كي ينهي عمله .

لا شيء يمنع موضوعياً أن يكون ذلك صحيحاً . ليس البروفسور جباناً ،

لكنه يأسف في هذه اللحظة لأنهم لم يرسلوا إليه مرافقاً خاصاً حقيقياً. ومع ذلك ، فمن المحال أن يغادر قبل أن يحمل معه الملفات التي يحتاجها .

قال له مارشا بالهاتف إن مفوض الشرطة لم يصدق فرضية جريمة القتل: هو مقتنع بأنها حادثة انتحار . يستدير دوبون ، ويذهب للبحث عن مسدسه؛ لقد تركه مساء أمس وهو مغادر إلى العيادة على الطاولة الصغيرة في غرفة النوم . . . عند دخوله إلى غرفة النوم ، يتوقف قليلاً: ربما يكونوا قد نصبوا له فخاً في هذه الغرفة .

هذه المخاوف المتتابة، الخيالية تقريباً، تزعج البروفسور . وبحركة سريعة ، يدير قبضة الباب ، مع توخي الحذر في عدم فتح الباب على النور؛ يمرر يده بخفة لإنارة المصباح الكهربائي ، ويمد رأسه من خلال الفتحة الضيقة ، وهو مستعد للفرار إذا لاحظ شيئاً غير عادي .

لكن الغرفة خاوية: لا أثر لعميل من أعوان الشرطة خلف السرير ، ولا في زاوية الطاولة الصغيرة . يرى دوبون في المرأة فقط وجهه حيث رُسم قلق يبدو له مضحكاً الآن .

يتوجه إلى الطاولة الصغيرة من دون تأخير . لم يعد المسدس على الرخام . يجده في الدرج في مكانه المعتاد . لن يستخدمه دون شك كما لم يفعل أمس ، ولكن من يعلم؟ لو كان معه ليلة أمس عندما صعد من غرفة الطعام ، لكان استخدمه بالفعل .

يتأكد البروفسور من أن صمّام الأمان فعال ، ويعود بخطا ثابتة ، السلاح في يده ، إلى غرفة المكتب . عليه أن يستخدمه بذراع واحدة ، اليمنى ، لحسن الحظ . عليه وضع المسدس أولاً في جيبيه ، فتح الباب قليلاً ، إنارة ضوء السقف ، وفي أسرع وقت ممكن ، تناول المسدس مع فتح الباب بحركة مفاجئة بالرجل .

هذه المسرحية الصغيرة - التي لا جدوى منها كالتي قام بها للتو - تدفعه إلى الابتسام مسبقاً.

يجب أن يسرع ، وإلا ستنتظر السيارة أمام الحاجز المشبك . عندما يمد يده نحو قبضة الباب ، يلقي نظرة إلى ساعته . ما زال لديه عشرون دقيقة: إنها السابعة والنصف تماماً .

يسمع فالاس خفقان قلبه . وبما أنه قرب النافذة ، يسمع السيارة تتوقف ، وباب الحديقة يفتح ، خطوات ثقيلة تصر لها بلاطات الأرضية . حاول الرجل الدخول عبر باب المدخل . هزه من دون جدوى ، ثم دار حول المنزل . علم فالاس عندها أن التاجر مارشا ليس من غير رأيه وجاء لأخذ أوراق الميت . ليس مارشا ولا شخصاً أرسل من طرفه ، أو من طرف الخادمة العجوز . كان هذا شخصاً آخر لا يملك مفاتيح الجناح .

مرت الخطا ذات الصرير تحت النافذة . ووصل الرجل إلى الباب الصغير ، الذي تركه التحري الخاص مفتوحاً عن قصد . صرَّت المفاصل قليلاً عندما دفع المصراع . ولكي يتأكد من عدم تمكن ضحيته من الهرب ، فتش الرجل كل الغرف التي وجدها في الطابق الأرضي ، ثم في الطابق الأول .

يرى فالاس من خصائص الباب الضوء المتزايد على طول الكشف ، يبطء لا يُحتمل .

يصوب فالاس إلى المكان الذي سيظهر فيه القاتل ، قامة سوداء تنفصل عن الإطار المضاء . . .

لكن الرجل لا يثق حتماً بهذه الغرفة الغارقة في الظلمة . يد تتقدم ، تتحسس ، تصل إلى مفتاح الكهرباء . . .

يميز فالاس مبهوراً بالضوء فقط حركة ذراع سريعة توجه نحوه ماسورة
مسدس ضخمة ، حركة رجل يطلق النار . . . وبينما ينبطح فالاس أرضاً ،
يضغط على الزناد .

-1-

انهار الرجل إلى الأمام مرة واحدة ، الذراع اليمنى ممدودة ، واليسرى
ملتوية تحته . بقيت يده متصلة على أخمص المسدس . لم يعد يتحرك . ينتصب
فالاس ، خشية أن يكون الأمر متصنعاً ، يقترب بحذر ، وسلاحه ما زال موجهاً ،
لا يدري ما الذي يجب أن يفعله .

يمر على الطرف الآخر من الجثة ، متوضعاً خارج مجال إطلاق نار
محتمل . ما زال الرجل دون حراك . بقيت قبعته مغروزة في رأسه . العين اليمنى
شبه مفتوحة ، والأخرى موجهة إلى الأرض ، والأنف ملتصق تقريباً بالموكيت .
ما نراه في الوجه يبدو بلون رمادي . إنه ميت .

إن ثورة أعصابه تجعل فالاس يفقد ما تبقى له من حذره . ينخفض ويجس
معصم الرجل بحثاً عن نبضه . تفتت اليد المسدس الثقيل وتستسلم برخاوة لمن
يمسك بها . لم يعد هناك نبض . الرجل ميت فعلاً .

يرى فالاس أنه من الواجب النظر في جيوب الجثة . (للبحث عن ماذا؟) .
لا يمكن الوصول إلا إلى الجيب الأيمن للمعطف . يُدخل يده فيه ويسحب منه
نظارة سوداء ، إحدى عدستها غامقة جداً والأخرى أفتح .

- هل يمكنك القول إن العدسة اليمنى هي الأغمق ، أم أنها اليسرى؟

العدسة اليسرى . . . من الطرف الأيمن . . . العدسة اليمنى للطرف
الأيسر . . .

إنها العدسة اليسرى الأغمق. يضع فالاس النظارة على الأرض ، وينهض .
لم يعد يرغب بمتابعة التفتيش . يرغب بالأحرى بالجلوس ، فهو متعب جداً .

دفاع مشروع عن النفس . رأى الرجل يهم بإطلاق النار . رأى انقباض
الإصبع على الزناد؛ وأدرك الوقت المعدّ الذي تستغرقه استجابته وإطلاقه النار .
كان متأكداً من أنه لا يملك ردود الفعل الانعكاسية ذات السرعة الكافية .

لكن ، يجب الإقرار بأنه أطلق النار أولاً . لم يسمع الطلقة الأخرى قبل
طلقتها؛ ولو كانت الطلقتان أطبقتا معاً في اللحظة ذاتها ، لرأى أثر الرصاصة
الضائعة على الجدار أو على خلفية الكتب . يرفع فالاس ستارة النافذة: زجاج
النافذة هو أيضاً سليم . لم يجد غريمه الوقت لإطلاق النار .

إنه فقط ضغط حواسه الذي أوحى إليه بالبطء في لحظته .

يلصق فالاس راحة يده على أسطوانة سلاحه ، يشعر بحرارتها بوضوح .
يستدير نحو الجثة وينخفض ليتلمس السلاح المرمي . هذا السلاح بارد تماماً . عندما
نظر بشكل أفضل ، لاحظ أن الكم اليسار للمعطف الواقعي فارغ . يجس تحت
القماش شكل الذراع . هل كانت ذراعه مربوطة؟ «جرح بسيط في الذراع .» .

يجب إعلام لوران . تخص المسألة الشرطة من الآن فصاعداً . لم يعد
بوسع التحري الخاص التصرف وحده وقد أصبح هناك جثة .

لا شك أن المفوض لم يعد في مكتبه . ينظر فالاس إلى ساعته ، إنها الساعة
السابعة وخمس وثلاثين دقيقة . يتذكر أنها توقفت عند الساعة السابعة والنصف .
يرفعها على أذنه ويسمع دقات خفيفة . لا شك أن صوت الطلقة جعلها تعمل
من جديد - أو الصدمة ، إذا كان قد صدمها عندما وقع على الأرض . سيتصل
بالمفوض في مكتبه ، وإذا لم يكن هناك ، قد يتمكن أحدهم بالتأكيد من أن يقول
له أين يمكن الاتصال به . لقد رأى جهاز هاتف في غرفة النوم .

الباب مفتوح . الغرفة مضاعة . درج الطاولة الصغيرة مفتوح إلى آخره . لم يعد المسدس فيه .

يرفع فالاس السماعة . الرقم ٢٤-١٢٤ . «إنه خط مباشر» . على الطرف الآخر ، تنقطع الرنة على الفور .

- ألو ! يقول الصوت البعيد .

- ألو ، هنا فالاس ، إن . . .

«آه ، نعم نعم ، كنت أود التحدث إليك . هنا لوران . اكتشفت شيئاً ، لن تخمن أبداً ! دانييل دوبون ! لم يمت على الإطلاق ! هل تفهمني؟» يكرر مشدداً كل مقطع صوتي : «دانييل دوبون لم يمت !»

من كان يقول إذاً إن هاتف الجناح الصغير لا يعمل؟

1940

Vol. 62, No. 1

1940

1940

1940

1940

1940

1940

1940

1940

1940

1940

1940

1940

خاتمة



ظل صلاة المقهى ، يرتب صاحب المقهى الطاولات والكراسي ، ومنفضات السجائر ، ومصاصات المياه الغازية؛إنها السادسة والنصف صباحاً. لم يصح صاحب المقهى بعد تماماً. إنه بمزاج معكر ، فهو لم ينم جيداً. مساء الليلة الفائتة ، أراد انتظار عودة الزبون ، ليغلق أقفال الأبواب؛ لكنه بقي مستيقظاً حتى ساعة متأخرة من الليل من دون جدوى ، فقرر أخيراً إغلاق الأبواب مع ذلك ، والنوم من دون أن يرى فالاس هذا اللعين عائداً. لقد أيقن أن الشرطة اعتقلت زبونه ، بما أنها تبحث عنه .

وصل فالاس هذا الصباح فقط ، منذ عشر دقائق. يبدو منهكاً ، وملامحه مشدودة ، يكاد لا يستطيع الوقوف على ساقيه . « كان رجال الشرطة يبحثون عنك » ، قال له صاحب المقهى وهو يفتح له الباب . لم يتأثر الآخر بما سمع ، أجاب فقط: «نعم ، أعلم ، أشكرك» ، وصعد مباشرة إلى غرفته . يبدو مهذباً إلى حد لا يمكن فيه أن يكون مستقيماً . لقد أحسن عملاً إذ انتظر الساعة السادسة كي يعود . لو لم يكن صاحب المقهى مستيقظاً ، لما نهض بالتأكد من سريره ليفتح له الباب . على أية حال ، لن يستقبل الزبائن بعد الآن للنوم ، فذلك مصدر إزعاج . سيكون من حسن الحظ ألا يسبب له هذا الزبون المتاعب مع هذه القصص كلها .

ما إن بدأ صاحب المقهى بإنارة الصالة حتى رأى رجلاً قصيراً يدخل بملابس بالية ، وقبعة قدرة ، ومعطفاً شديداً . . . إنه الشخص الذي جاء صباح اليوم الفائت ، في الساعة نفسها . يطرح السؤال الذي طرحه سابقاً :

– السيد فالاس ، من فضلك؟

يتردد صاحب المقهى ، فهو لا يعلم ما إذا كان زبونه سيتضايق أكثر من

أن يزعجه أحدهم في هذه اللحظة ، أم أن يفوته لقاء الرجل الذي يبحث عنه منذ أربع وعشرين ساعة . لا يبدو على هذا الرجل أنه يحمل أخباراً سارة .

- إنه في غرفته ، ما عليك سوى الصعود إليه . إنها الغرفة التي في نهاية الممر ، في الطابق الأول .

يتوجه الرجل القصير ذو السحنة المعكّرة نحو الباب الذي أشاروا إليه ، في آخر الصالة . لم يكن صاحب المقهى بعد قد لاحظ إلى أي حد كانت خطواته مرنة وصامتة .

يغلق جاريناتي الباب خلفه . إنه في ممر ضيق يتسرب إليه ضوء خافت ، عبر الزجاج المخشّن الموضوع في أعلى باب آخر ، الباب الذي يطل على الشارع . السلم أمامه . وبدلاً من أن يذهب في هذا الاتجاه ، يسير على طول الممر نحو الباب الذي يفتحه بهدوء . يجد نفسه على الرصيف . فالاس في غرفته ، كان هذا كل ما يريد أن يعرف .

اليوم ، لن يتركه يهرب؛ سيكون بوسعه أن يقدم لـ بونا تقريراً عن أقل تحركاته . لقد استحق في الأيام الأخيرة ، لوم رئيسه في العمل واحتقاره . كما أن بونا فضّل ألا يحدثه عن قتل ألبير دوبون ، مستورد الخشب ، الذي اهتم به «السيد أندريه» ليلة أمس . يبدو أنه عمل ناجح .

لكن عمله هو ، جاريناتي ، لم يكن في النهاية شيئاً إلى الحد الذي ظن . كان عليه أن يرى بعينه جثة ضحيته ، ليتأكد تماماً من موته . كانت لديه ظنونه ، لكن الضربة التي وجهها إلى البروفسور كانت بالفعل قاضية .

لن يكون بونا مسروراً عندما سيعلم (سيعلم عاجلاً أم آجلاً) أن جاريناتي ، بدلاً من متابعة التحري الخاص ، أمضى السهرة في حملات خطيرة عبر كل مستشفيات المدينة وعياداتها ، بحثاً عن جثة دانييل دوبون .

لقد رأى الميت بأَم عينه . وهذا آخر خطأ يرتكبه . لن يترك بعد الآن شيئاً يؤثر بهذا الغباء على ثقته في بونا . سيطيع أوامره من دون تحفظ . اليوم ، سيتبع فالاس كظله . وهذا ليس بالأمر الصعب .

لن يطول الأمر كثيراً: سيغادر فالاس المدينة في أول قطار . إنه يجلس الآن على طرف سريره ، الكوعان على الركبتين ، ورأسه بين يديه . لقد خلع حذاءه الذي كان يؤلمه ، فقدماه متورمتان من كثرة المشي .

لقد أنهكته الليلة التي قضاها ساهراً؛ إذ رافق في كل مكان المفوض العام الذي استعاد على الفور مسار القضية ، وكل ما فيها من أهمية . نام فالاس في السيارة مرات عدة ، خلال تحركاتهما الليلية . منذ أن حصل لوران على الجثة التي كانت تنقصه ، حتى شعر على العكس تماماً بالراحة: فقد أظهر نشاطاً لم يكن زميله الجديد ينتظره منه قط - لاسيما عندما علم بقتل المصدر المليونير .

أما فالاس ، فلم يعد يهتم بشيء . بقي لأنه لم يُطلب منه الرحيل .

عندما اتصل بالمكتب ، كان فاييوس من ردِّ عليه بنفسه . فعرض له تفاصيل مهمته ، وسأل ما إذا كان من الممكن نقله من جديد إلى فرعه القديم . كان ذلك طلب الأمر قبل حدوثه: إذ لا يمكن أن يبقى في هذا الموقع الحساس بعد هذه المغامرة التعسة . ربما لأن المحكمة ليست بحاجة إليه في الوقت الحالي ، سيعود إلى العاصمة هذا الصباح .

تعود مقتطفات من نهاره الضائع لتعذبه من جديد ، وهو في قمة تعبهِ: « . . . ولو كنت ، في تلك اللحظة ، فكرت بـ . . . وإذا كنت . . . » يطرد هذه الأفكار الملحة ، بحركة سريعة من الرأس . فات الأوان .

ثلاث وأربعون مضروبة بـ مئة وأربع عشرة . أربع مرات ثلاث ، اثنتي

عشرة. أربع مرات أربع، ست عشرة. ست عشرة وواحد، سبع عشرة. ثلاث وأربعون. ثلاث وأربعون. اثنان. سبعة وثلاثة، عشرة. أربعة وثلاثة، سبعة. سبعة وواحد، ثمانية. ثمانية وواحد، تسعة. أربعة. أربعة آلاف وتسعمئة واثنان. . . لا يوجد حل آخر ممكن.

«أربعة آلاف وتسعمئة واثنان. . . لا يمكن، يا بني. تسعة وأربعون سنتيمتراً مربعاً من المساحة: لا بد من خمسين على الأقل، أتعلم»

سنتيمتراً واحداً. لا ينقص سوى هذا الفضاء البسيط.

ما زال بحوزته مليمتران صغيران لم يستخدمهما. مليمتران صغيران أخيران. مليمتران أخيران مربعان من الحلم. . . هذا ليس كثيراً. ماء القنوات الأخضر المزرق يصعد ويفيض، يجتاز أرصفة الغرانيت، يجتاز الطرقات، ينشر أهواله ووحله في المدينة كلها. . .

ينهض فالاس: إذا بقي هنا من دون حراك، سينام بالفعل. يريد أن يأخذ مشطه من الجيب الداخلي لسترتة، لكن حركاته خرقاء، فبإمساكه العلبة، يُسقط محفظته فتخرج منها بضع وريقات. تعكس له بطاقته الشخصية ذلك الوجه الذي كان له. يقترب من طاولة الزينة لينظر إلى نفسه بالمرآة، ويقارن بالصورة: إن قلة النوم جعلت ملامحه تهرم، وأعادت الشبه. سيكون من غير المجدي أيضاً تغيير هذه الصورة، يبقى أن يترك شاربه يطول، فهو لا يملك ما يسمى بالجبن «المنخفض»، لكن شعره فقط مغروس في مستوى منخفض.

عندما رتب أوراقه في المحفظة، لم يجد بطاقة العودة بالسكك الحديدية. ينظر أرضاً قرب السرير، لعلها وقعت هناك. يفتش بعد ذلك في جيوبه كلها، ويبحث مرة أخرى في المحفظة. يتذكر أنه رأى البطاقة فيها أثناء النهار. لا بد أنه أوقعها وهو يأخذ بعض المال. إنها أيضاً الدليل الوحيد على الساعة المحددة لوصوله إلى المدينة.

لم يُظهر فايوس على الهاتف ردة الفعل المأساوية التي خشيتها فالاس . حتى أنه لم يصغ إلى نصف قصة عميله . كان الرئيس يبحث في اتجاه جديد؛ والأمر متعلق هذه المرة بالجريمة القادمة ، جريمة هذا المساء ، التي ستحصل في العاصمة .

- كما يظن ، على الأقل .

يبدأ فالاس بتطويل لحيته . يسمع الضحكة الأجشة لصاحبة المكتبة - المزعجة أكثر منها مثيرة .

- يجب أن أذهب . . .

«نبذل قصارى جهدنا في بعض الأحيان لاكتشاف جريمة . . .»

نبذل قصارى جهدنا لاكتشاف القاتل ، والجريمة لم تحدث .

نبذل قصارى جهدنا . . .

«بعيداً عنا ، بينما ليس علينا سوى أن نمد يدنا نحو صدورنا . . .» من أين تخرج إذاً هذه الجمل؟

ليست هذه ضحكة البائعة ، الصوت قادم من الأسفل ، ربما من صالة المقهى .

أنطوان سعيد جداً بدعابته . يستدير يمينا ويساراً ليرى ما إذا كان المستمعون جميعاً سمعوها جيداً . الأعشابي وحده لم يضحك ، يقول فقط :

- هذا غباء . لا أرى لماذا لا يهطل الثلج في شهر تشرين الأول/أكتوبر .

لكن أنطوان يتنبه للتو إلى الصحيفة التي يقرأها أحد البحارة ، عنواناً يجعله يهتف متعجباً:

- إذاً، ماذا كنتُ أقول!

- إذاً، ماذا كنتَ تقول؟ (يسأل الأعشابي .)

- هيه، يا صاحب المقهى، ماذا كنت أقول! البير دوبون الذي مات !
انظر إذاً إذا لم يكن اسمه البير، وإذا لم يمت!

يتناول أنطوان الصحيفة من بين يدي البحار، ويضعها فوق الطاولة.
بصمت، يقرأ صاحب المقهى المقال الخاص بالجريمة: «عائداً إلى منزله مشياً على
الأقدام، ككل ليلة...».

يقول أنطوان: - إذاً، من كان محقاً؟

لا يجب صاحب المقهى، يتابع قراءته بجمود. استأنف الآخرون
مناقشتهم حول الشتاء المبكر. أنطوان، الذي يفقد صبره، يكرر:
- إذاً؟

- إذاً، (يقول صاحب المقهى)، حري بك أن تقرأ إلى الآخر قبل أن
تضحك. ليست مطلقاً قصة الأمس. كان هذا، مساء أمس؛ وأمس، كان ما
قبل أمس. ثم هذا، لم يكن سارقاً من أطلق النار عليه: إنما هي سيارة خرجت
عن طريقها، وسحقته على طرف الرصيف.

«وسائق الشاحنة الصغيرة، بعد أن استعاد مساره، هرب باتجاه
الميناء...»

اقرأ إذن قبل أن تتظارف. إذا كنت تخطط ما بين أمس واليوم، لن يتحسن
وضعك.

يعيد أنطوان الصحيفة، ويجمع الكؤوس الفارغة ليغسلها. يقول أنطوان:

- لن تقنعنا أن شخصاً يدعى دوبون يُقتل كل مساء.

- لم يعد هناك حمار في المعرض . . .

يبدأ السكير بوقار . . .

بعد أن يحلق ذقنه ، ينزل فالاس من جديد ليتناول فنجاناً من القهوة الساخنة . عليه أن يكون جاهزاً في هذه الساعة . أول شخص يلحظه عند دخوله هو الرجل صاحب الخردوات ، الذي حاول من دون جدوى أثناء الليل إعادة صياغة سؤاله : « ما هو الحيوان الذي في الصباح . . . »

يقول السكير بابتسامته المرحّة : صباح الخير .

يجيب فالاس : صباح الخير . ثم (متوجهاً إلى صاحب المقهى) :

- أعطني فنجاناً من القهوة السادة .

وبعد قليل ، بينما كان يحتسي قهوته على الطاولة ، يقترب السكير منه ويحاول أن يبدأ حديثاً معه . ينتهي فالاس إلى سؤاله :

- كيف كانت أحجية أمس ؟ ما هو الحيوان . . .

يجلس السكير سعيداً أمامه ، ويفتش في ذكرياته .

ما هو الحيوان الذي . . . وفجأة ، يلمع وجهه ، يغمز بعينه ليعلن بنبرة خبيثة جداً :

- ما هو الحيوان الذي لونه أسود ، ويطير ، وله ستة أطراف ؟

يقول فالاس : - لا ، لم تكن هذه الأحجية .

مسحة سريعة . يحرك صاحب المقهى كتفيه . ثمة أناس يملكون حقاً وقتاً يضيعونه هكذا .

لكنه لا يثق بالمظاهر البسيطة التي يبيدها زبون ما عمداً. إذ لا يمكن لبرجوازي أن ينزل في فندق من فئة متواضعة كهذا، من دون دافع لا يريد التصريح به. فلو كان دافعه التوفير، لما حجز غرفة وأمضى بعد ذلك الليلة كلها خارجاً. ولماذا كان ذلك الشرطي يريد التحدث إليه، مساء أمس؟

- صاحب المقهى هو أنا.

- ها، هذا أنت! أنت الذي روى لمفتش الشرطة تلك الحماقة حول الابن المفترض للبروفسور دوبون؟

- لم أرو شيئاً على الإطلاق. قلت إن بعض الشباب كانوا يأتون إلى هنا، وأنهم كانوا من أعمار مختلفة، البعض منهم صغير السن لدرجة يمكن فيها أن يكونوا أبناء... .

- هل قلت إن دوبون كان له ابن؟

- لا أدري، أنا، إذا كان له أبناء!

- حسناً. أريد التحدث إلى صاحب المقهى.

- صاحب المقهى هو أنا.

- آه، إنه أنت! هل أنت من روى تلك الحماقة حول الابن المفترض للبروفسور دوبون؟

- لم أرو شيئاً على الإطلاق.

- هل قلت إن دوبون كان له ابن؟

- لا أدري إذا كان له أبناء. قلت فقط إن شباناً من مختلف الأعمار كانوا يأتون إلى هنا.

- هل أنت من روى هذه الحماقة ، أم صاحب المقهى؟

- صاحب المقهى هو أنا!

- هل أنت . . . شبان . . . حماقة . . . بروفيسور ، إلى هنا؟

- صاحب المقهى هو أنا!

- حسناً ، أريد تماماً ابنَ ، منذ زمن طويل ، المفترض ، شاب ، ميتة بطريقة غريبة . . .

- صاحب المقهى هو أنا . صاحب المقهى أنا ، صاحب المقهى أنا . . .
صاحب المقهى . . . صاحب المقهى . . . صاحب المقهى . . .

تمر ظلال عابرة في المياه العكرة لحوض السمك . صاحب المقهى ثابت في موقعه . يستند قسمه العلوي الضخم على ذراعيه الممدودتين المتباعدتين جداً ، وتمسك يده بطرف الطاولة: ينحني رأسه ، مهدداً تقريباً ، وفمه منحرف قليلاً ، ونظرته فارغة . حوله أشباح مألوفة ترقص الفالس ، كفراشات تتصادم في حركة دائرية أمام المصباح ، كالغبار في ضوء الشمس ، كسفن صغيرة تائهة في البحر ، تهز ، بحسب الموجات ، حملاتها الهشة ، البراميل القديمة ، الأسماك الميتة ، البكرات والحبال ، الطوافات ، الخبز البائت ، السكاكين والبشر .

الطبعة الأولى / ٢٠١١
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

الروائي

الآن روبر - غرييه



www.syrbook.gov.sy

مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١

سعر النسخة ٢١٠ ل.س أو ما يعادلها